

تُرجمت إلى 25 لغة
فيولا أردونيه
قطار
الأطفال
من الأدب
الإيطالي
رواية
دار
الساقي
ترجمة
يوسف وقاص

فيولا أردونيه

قطار الأطفال

ترجمة

يوسف وقّاص



هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيَة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلِّف الشاق.

Viola Ardone, *I treni dei Bambini*, 2019

Giulio Einaudi editore 2019 ©

الطبعة العربية

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠٢٠

الطبعة الإلكترونية، ٢٠٢٠

ISBN-978-614-03-0229-7

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

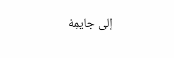
تابعونا على



@DarAlSaqi

دار الساقي

Dar Al Saqi


إلى جايمهْ

الجزء الأول

1946

1

أمّي في المقدّمة وأنا أتبعها. داخل أزقّة الأحياء الإسبانية تمشي أمّي بسرعة. كلّ خطوة منها تعادل اثنتين منّي. أراقبُ أحذية الناس. حذاءٌ سليم، علامةٌ واحدة. حذاءٌ مثقوب، أخسر علامة. بلا حذاء، لا علامات. حذاءٌ جديد، الجائزة الكبرى، نجمة. لم أملك أبداً أحذيةً خاصّة بي، أنتعل أحذية الآخرين وتؤلمني دائماً. تقول أمّي إنني أمشي بشكل مُعوَجّ. إنّه ليس ذنبي، بل ذنب أحذية الآخرين، لها شكل أقدام من استعملوها قبلي، اتخذت عاداتهم، سلكت طرقاً مختلفةً، مارست ألعاباً أخرى. فكيف لها عندما تصل إليّ أن تعرف كيف أمشي وأين أريد الذهاب؟ عليها أن تعتاد رويداً رويداً، لكن في هذه الأثناء قدماي تنموان والأحذية تغدو صغيرة، فنعود إلى نقطة البدء.

أمّي في المقدّمة وأنا أتبعها. إلى أين نذهب، لا أعرف. تقول إنّه لمصلحتي، إنّما ثمّة خدعة وراء ذلك، مثلما حدث مع القمل. "إنّه لمصلحتكَ"، ووجدتُ نفسي برأس كالبطيخة. لحسن الحظ، فعلوا الشيء نفسه مع صديقي توماسّينو، من

أجل مصلحته جعلوا رأسه كالبطيخة أيضاً. سخر رفاقنا في الحيّ منّا، قالوا إنّنا بَدونا كراسي ميتين خارجين من مقبرة فونتانيلّي. لم يكن توماسّينو صديقي في البداية. رأيته مرّة يسرق تفاحةً من طبليّة كابايانكا، بائع الخضار الذي يركن عربته في ساحة السوق. فكّرت حينئذ أننا لا نستطيع أن نكون أصدقاء لأنّ أمّي أنطونييتا أوضحت لي أنّنا فقراء، نعم، لكن لسنا لصوصاً، وإلّا سنكون أوغاداً. لكنّ توماسّينو رآني وسرق تفاحةً لي أيضاً. أكلتها، فأنا لم أسرقها وإنّما أُهديت إليّ. في الحقيقة، كنتُ أتضوّر جوعاً. منذ تلك اللحظة صرنا أصدقاء. أصدقاء التفاح.

أمّي تمشي في منتصف الشارع دون أن تنظر إلى الأرض أبداً. أنا أجرجر قدميّ وأجمع علامات الأحذية لأحتال على خوفي. أعدّ حتى العشرة على أصابعي ثمّ أبدأ من جديد. عندما سأعدّ العشرة عشر مرات سيحدث شيء جميل، هكذا هي اللعبة. حتى اللحظة لم يصادفني الشيء الجميل أبداً. ربما لأنني أحصيت العلامات بطريقة خطأ. أحبّ الأرقام كثيراً بعكس الأحرف التي أتعرّف إليها منفردةً لكنّها تلتبس عليّ حين تختلط ببعضها بعضاً لتصنع الكلمات. تقول أمّي إنّه ليس عليّ أن أحذو حذوها، ولذا أرسلتني إلى المدرسة.

ذهبتُ إليها غير أنني لم أكن مرتاحاً. قبل كلّ شيء كان رفاقي يزعقون وأعود إلى البيت أعاني من الصداع. كانت غرفة الصفّ صغيرةً تفوح فيها رائحة الأقدام المتعرّقة. كما كنت مضطراً إلى البقاء جامداً وصامتاً طوال الوقت أرسم الجداول خلف مقعد. كانت المعلمة بذقنها الحادّة المتطاولة تتحدث مع لثغة في لسانها، ومن يسخرُ منها يتلقّى صفعة على رأسه بظاهر يدها. خلال خمسة أيام تلقيتُ عشر صفعات. عددتها على أصابعي كعلامات الأحذية، لكن لم أربح شيئاً. لهذا لم أشأ الذهاب إلى المدرسة أكثر.

لم تكن أمي سعيدةً. قالت إنّه ينبغي لي تعلّم بذل الجهد على الأقل، وهكذا أرسلتني لأجمع الملابس البالية. في البداية، كنت سعيداً. تعلّق الأمر ببقائي طوال اليوم في الأرجاء أجول من منزل إلى منزل، أو بين حاويات القمامة، لأجمع الملابس القديمة وأنقلها إلى السوق، عند كابا إيفيرّو. لكن بعد بضعة أيام صرت أعود متعباً لدرجة أحنّ فيها إلى صفعات المعلّمة مع ذقنها الحادّة المتطاولة.

تقف أمّي أمام مبنىً رماديّ وأحمر بنوافذ كبيرة. "إنها هنا"، تقول. تبدو لي هذه المدرسة أفضل من السابقة. السكون يخيم في الداخل ولا

شيء من نتن الأقدام. نصعد إلى الطابق الثاني حيث ننتظر على مقعد خشبي في الممر إلى أن ينادي صوت: "التالي". بما أنّ أحداً لم يتحرّك تفهم أمّي أنه دورنا، فندخل.

أمّي تُدعى أنطونييتّا سبيرانتسا. السيدة التي كانت تنتظرنا تكتب الاسم على ورقة وتقول: "بالنسبة إليكم هذا فقط". أفكّر عندئذ: ها نحن نذهب، ستستدير أمّي على عقبيها ونعود إلى المنزل. لكن لا.

"هل تستخدمون الضرب يا آنسة؟" أسأل وأنا أغطي رأسي بذراعي للأمان. تضحك الفتاة وتقرص خدّي برفق بإبهامها وسبابتها. "تفضّلوا بالجلوس"، تقول، فنجلس أمامها.

الفتاة لا تشبه الأخرى أبداً. ليس لها ذقن متطاولة بل ابتسامة جميلة، والكثير من الأسنان البيضاء المنتظمة. شعرٌ قصيرٌ مقصوص، وترتدي بنطالاً كالذكور. نحن نبقى صامتين. تقول إنّ اسمها مادالينا كريسكولو وربّما تتذكرها أمّي لأنها حاربت لتحريرنا من اضطهاد النازيين. أمي تهزّ رأسها لكن من الواضح تماماً أنها لم تسمع من قبل باسم مادالينا كريسكولو. تروي مادالينا أنها في تلك الأيام هي من أنقذت جسر حي سانيتا، لأن الألمان كانوا يريدون نسفه بالديناميت، ثمّ مُنحت

ميدالية برونزيّة وشهادة تقدير. أظنّ أنه كان من الأفضل لو منحوها حذاءً جديداً لأنّ لديها فردة جيّدة وأخرى مثقوبة (لا علامات). تقول إننا أحسنّا العمل بالمجيء إليها، وإنّ الكثير من الناس يخجلون حتى اضطرت مع رفيقاتها إلى طرق الأبواب، من بيت إلى بيت، لإقناع الأمّهات بأنّ ما يفعلنه شيء جيد لهنّ ولأطفالهنّ. وقد أغلقت في وجوههنّ أبواب كثيرة، مع بعض الشتائم أيضاً. أصدّق ذلك، فحتى أنا غالباً ما يصدّونني بكلمات نابية عندما أجول طلباً للملابس البالية. تقول الفتاة إنّ الكثير من الناس الجيدين وثقوا بهنّ، وإن أمّي أنطونييتّا امرأة شجاعة وتمنح ابنها هديّة. أنا لم أتلقّ أبداً أي هدايا باستثناء علبة الخياطة القديمة التي وضعت فيها كلّ كنوزي.

تنتظر أمّي أنطونييتّا أن تنتهي مادّالينا من الحديث، فالثرثرة ليست من اهتماماتها. وتلك تقول إنه ينبغي منح الفرصة للأطفال. لكنت أكثر سعادة لو أنها منحتني خبزاً وسكّراً وجبنة الريكوتّا، لقد ذقتها مرّة في حفل للأميركيين حيث تسلّلتُ إليه مع تومّاسينو (أحذية قديمة؛ أخسر علامة).

أمّي تلتزم الصمت ولذا تواصل مادّالينا الحديث: "لقد نظّموا قطارات خاصّة لنقل

الأطفال إلى الأعلى". عندئذ تردَ أمي: "لكن هل أنتم واثقون؟ أترين هذا؟ إنه عقاب إلهيَ!" مادّالينا تقول إنهم سيضعون الكثير منّا في القطار، وليس أنا فقط. "ليست مدرسة إذاً!" أفهم أخيراً وأبتسم. أمي أنطونييتّا لا تبتسم. "لو كان لديّ خيار آخر، ما أتيت إلى هنا. إنّه خياري الوحيد. انظروا ما تستطيعون فعله".

عندما نغادر تمشي أمّي أمامي ولكن أكثر بطئاً. نمرّ بكشك البيتزا، حيث أمسك بثوبها كلّ مرّة ولا أكفّ عن البكاء حتى أتلقّى صفعةً. وقفت هي هذه المرّة. "تشيكولي وريكوتّا"، تقول للشاب خلف الطاولة، "واحدة فقط". لم أطلب شيئاً هذه المرّة، وإن كانت أمي ترغب في أن تبتاع لي البيتزا المقلية في منتصف الصباح، أظنّ أنّ ثمّة فخّاً وراء ذلك.

لفّ الشاب بالورق قطعة بيتزا صفراء كالشمس وأوسع من وجهي. أخذتها بكلتا يديّ خشية أن تسقط. إنها ساخنة وفوّاحة. أنفخ عليها ورائحة الزيت تنسلّ إلى أنفي وفمي.

تنحني أمّي وتحدّق في وجهي. "إذاً، لقد سمعت أيضاً. إنك كبيرٌ الآن، أنت على وشك أن تكمل الثامنة. وتعرف حالنا".

تمسح الزفر عن وجهي بقفا يدها. "دعني أتذوقها أيضاً"، تكدش قطعة منها، ثم تنهض وننطلق نحو المنزل. لا أسأل شيئاً، وأمشي. أمّي في المقدمة وأنا أتبعها.

2

لم يُذكَر أمر مادَالينا بعد ذلك حتى ظننتُ أنّ أمّي قد نسيته، أو أنّها غيّرت رأيها. عوضاً عن هذا جاءت إلى منزلنا، بعد بضعة أيام، راهبةٌ مندوبة من قبل الأب جِنّارو. تختلس أمّي النظر من خلف الزجاج: "أف. ماذا تريد أمّ الطرحة[1]؟"

[1] في الأصل capa e pezza، وهو مصطلح في اللهجة النابوليتانية يطلق على الراهبة لكونها تضع قطعة قماش على رأسها. (الهوامش كافة من المترجم)

تقرع أمّ الطرحة مرّة أخرى، فتترك أمي الخياطة وتذهب لتفتح الباب. لكن مجرد شَقّ بحيث تستطيع تلك أن تحشر وجهها الشاحب فقط. تسأل الراهبة هل بإمكانها الدخول، تومئ أمّي برأسها أن نعم، ولكن تمكن ملاحظة استيائها. تقول الراهبة إن أمّي مسيحية صالحة وإن الربّ يرى كلّ شيء، وإنّ الأطفال ليسوا ملكاً لا للأمهات ولا للآباء، إنّهم أبناء الله. وبدلاً من ذلك يريد أولئك الشيوعيون وضعنا في القطار وإرسالنا إلى روسيا حيث تقطَع أيدينا وأرجلنا ولا يعيدوننا أبداً.

أمي لا تجيب. إنها ماهرة جداً في السكوت، ما يجعل الراهبة تنزعج في النهاية وتنسحب. عندئذ

أسألها: "حقاً تريدين إرسالي إلى روسيا؟" تستأنف الخياطة وتبدأ الحديث وحدها: "لكن أيَّ روسيا وروسيا... أنا لا أعرف الفاشيين ولا الشيوعيين. لا أعرف حتى الكهنة والأساقفة". أمّي تتحدّث قليلاً مع الآخرين لكن كثيراً مع نفسها. "حتى الآن لم أعرف سوى الجوع والتعب... أودّ لو أرى تلك الراهبة مع طفل ودون رجل إلى جانبها... الكلام يسيرٌ حين لا يكون لديهم أولاد. أين كانت عندما وقع لويجينو طريح الفراش؟"

لويجي كان أخي الأكبر، لو لم تراوده الفكرة السيئة للإصابة بالرَبْو القصبيّ في صغره، لكان يكبرني الآن بثلاث سنوات. لذلك كنت عندما ولدتُ طفلاً وحيداً بالفعل. أمّي لا تكاد تذكره غير أنها تحتفظ بصورته فوق خزانة الملابس مع شمعة أمامها. أخبرتني ذلك زاندراليونا[2] التي تعيش في Basso [3] مُقابِل Basso خاصتنا، وهي امرأة طيّبة. عانت أمّي كثيراً حتى ظنّ الجميع أنها لن تتعافى. لكن عوضاً عنه ولدتُ، أنا، وكانت سعيدة. لكنّني لم أفرحها مثله وإلا ما كانت لترسلني إلى روسيا.

2 Zandragliona تعني في اللهجة النابوليتانية: مبتذلة، ثرثارة، بغيضة، مزعجة.

3 منزل صغير مؤلف من غرفة أو غرفتين في الطابق الأرضي، يطل مباشرة على الشارع في أحياء فقيرة في نابولي.

أخرج من المنزل وأذهب إلى Basso زاندراليونا العارفة بكلِّ شيء دوماً، وما لا تعرفه تجعلهم يحكونه لها.

تقول ليس حقيقياً إنهم سيأخذونني إلى روسيا. إنّها تعرف مادّالينا كريسكولو والأخريات: يردن مساعدتنا، يردن منحنا بعض الأمل. لكن ماذا أفعل بالأمل؟ أنا "الأمل"[4] بالفعل، مثل أمّي أنطونييتّا.

4 يوجد لعب بالكلمات، لأن كنيته Speranza تعني أمل بالإيطالية.

واسمي أميريغو، الاسم الذي منحه لي أبي. لم أتعرّف عليه أبداً، وعندما أسأل ترفع أمّي عينيها إلى السماء كما تفعل حين تمطر ولا يسعفها الوقت لجمع الغسيل. تقول إنه بالفعل رجل عظيم، وقد سافر إلى أميركا ليجمع ثروة. "هل سيعود؟" سألتُ. "عاجلاً أم آجلاً"، أجابت. لم يترك لي شيئاً سوى الاسم. أفضل من لا شيء بجميع الأحوال.

منذ شاع خبر القطارات فقدنا الطمأنينة داخل الزقاق. كلٌّ يقول أمراً مختلفاً. ثمّة من يعرف أنهم سيبيعوننا ويرسلوننا إلى أميركا للعمل. وآخر يدّعي أننا سنذهب إلى روسيا ويضعوننا في الأفران. والبعض سمع أن الأطفال المرضى هم

الذين سيغادرون فقط، وأولئك الأصحاء ستحتفظ الأمهات بهم. هناك من لا يكترثون ويواصلون كأنّ شيئاً لم يحدث لكونهم جهلة تماماً. أنا جاهل أيضاً، رغم أنهم في الزقاق يدعونني "نوبل" بسبب معرفتي الكثير من الأشياء رغم أنني لم أرغب في الذهاب إلى المدرسة. أتعلم في الزقاق. أتجوّل، أسمع القصص وأتدخل في شؤون الآخرين. لا أحد يولد متعلماً.

أمّي أنطونييتا لا تريد مني أن أشيع شؤونها، وأنا لا أخبر أحداً أبداً أن ثمّة طروداً من القهوة لكابا إيفيزو تحت سريرنا. ولا حتى أن كابا إيفيزو يأتي إلى منزلنا في الظهيرة ويغلق على نفسه مع أمّي. من يدري ماذا يقول لزوجته، ربّما يقول إنه يذهب للعب البلياردو. يرسلني إلى الخارج قائلاً إن عليهما العمل بجدّ، هو وهي. عندئذ أخرج وأبحث عن الملابس البالية.

خرق، قصاصات أقمشة، ملابس رثّة لجنود أميركيين، أشياء قذرة مليئة بالبراغيث. في البداية، كنت أرفض المغادرة عندما يأتي. لم أكن أتقبّل أن يأتي كابا إيفيزو ليكون سيداً في منزلي. بعد ذلك قالت أمي إنّ عليّ احترامه لكونه يملك صداقات مهمّة ويؤمّن لنا الطعام. قالت إنه يعرف آليّات التجارة وإنّ عليّ أن أتعلم منه فحسب لأنه

يستطيع إرشادي. لم أجب، لكنني منذ ذلك اليوم أخرج حالما يصل. الأقمشة التي أجمعها أحضرها إلى البيت حيث تقوم أمي على تنظيفها وخياطتها لنعطيها أخيراً لكابا إيفيرّو. إنه يملك كشكاً في السوق ويمكنه بيعها لأولئك الأقل فقراً منّا. في هذه الأثناء، أراقب الأحذية وأحسب العلامات على أصابعي. عندما أحصي العشرة عشر مرات، سيحدث الشيء الجميل، سيعود أبي من أميركا غنياً، وسأقفل الباب في وجه إيفيرّو.

مرّةً نجحت اللعبة حقاً. أمام مسرح سان كارلو رأيت رجلاً محترماً ينتعل حذاءً جديداً لامعاً حتى أنه حقق مئة علامة دفعةً واحدة. وحين عدت إلى البيت كان كابا إيفيرّو بالفعل خارج الباب. كانت أمي قد رأت زوجته تعبر شارع ريتيفيليو بحقيبة يد جديدة تحت ذراعها. قال كابا إيفيرّو: "يجب أن تتعلّمي الانتظار. انتظري وسيحين دورك أيضاً". "لكن اليوم انتظر أنت"، ردّت أمي. في ذلك اليوم، لم تسمح له بدخول البيت. بقي كابا إيفيرّو خارج Basso، أشعل سيجارة ومشى ويداه في جيوبه. تبعته لأستمتع برؤيته يشعر بالمرارة فقط. قلت له: "اليوم عطلة يا كابا إيفيرّو؟ ألا تعمل؟" جثم أمامي. مجّ سيجارته، وعندما نفث الدخان خرج من فمه على

هيئة حلقاتٍ صغيرة. ثم قال لي: "يا غلام، النساء والنبيذ متماثلان، إمّا أن تَحكُم وإما ستكون محكوماً. إن سمحت لهن بالسيطرة عليك، فستفقد وعيك وتغدو عبداً. لقد كنتُ دوماً رجلاً حرّاً، وسأكون كذلك دائماً. تعال. سنذهب إلى الحانة. اليوم سأجعلك تشرب النبيذ الأحمر. اليوم كابا إيفيزو سيصنع منك رجلاً".

"للأسف، كابا إيفيزو، لا أستطيع تلبيتك، إنني مشغول".

"وما هي مشاغلك؟"

"عليَ الذهاب لجمع الشراطيط كالعادة. إنها تساوي بضعة قروش، لكنها توفر لنا قوتنا. بالإذن".

تركته وحيداً بينما تتلاشى حلقات دخان السيجارة في الهواء.

ما أعثر عليه أضعه في سلة أعطتني إياها أمّي. بما أنَ السلّة تغدو ثقيلة حين تمتلئ، بدأت أحملها على رأسي مثلما رأيت النسوة يفعلن في السوق. لكن بعد حملها كلّ يوم تساقط شعري وأصبحت بنافوخٍ أصلع. أظنّ أنه لهذا السبب حوّلته أمّي إلى بطيخة بحجّة القمل.

خلال تجوالي بحثاً عن الملابس البالية أسأل مراراً عن حقيقة القطار. لكن، لا شيء. أحدهم

يقول أبيض، وآخر يقول أسود.

توماسِينو ما زال يكرِّر أنه غير مضطر إلى المغادرة لأنّ بيتهم لا يفتقر إلى شيء، وأنّ والدته، الدونا أرميدا، لم تبلغ بها الأمور حدّ طلب الإحسان.

تقول باكيوكيا[5]، وهي زعيمة زقاقنا، إنه عندما كان هناك ملك، لم تكن هذه الأشياء تحدث، ولم تكن الأمهات يفرّطن بأبنائهنّ. تقول إنه لم تعد هناك ك – ر – ا – م – ة! وفي كل مرة تقولها تظهر لثتها البنية، تكزّ أسنانها الصفراء المتبقية وتبصق من الثقوب التي اختفت منها الأسنان. لقد ولدت باكيوكيا قبيحة بالفعل. أعتقد أنّها لهذا السبب لم تتزوّج أبداً. لكن لم يكن ذلك هو الشيء الذي نتحدث عنه كنقطة ضعفها، بل أنها في الحقيقة لم تنجب أولاداً. اقتنت حسّوناً في إحدى المرّات لكنه هرب. حتى الحسّون لا نستطيع التحدث عنه مع باكيوكيا.

5 La Pachiochia، زعيمة شعبية ذات عقيدة ملكية متزمتة، كانت من أكبر المعارضين لنقل أطفال نابولي الفقراء إلى الشمال لرعايتهم وتعليمهم، لكن بعد أن تأكدت من الطبيعة المفيدة للمبادرة عرضت نفسها للتعاون.

زاندراليونا أيضاً عزباء. لم يُعرف أبداً سبب ذلك. البعض يقول إنها تردّدت حيال الأشخاص الذين طلبوها وفي النهاية بقيت وحيدة لأنها في

يقول أبيض، وآخر يقول أسود.

توماسّينو ما زال يكرّر أنه غير مضطر إلى المغادرة لأنّ بيتهم لا يفتقر إلى شيء، وأنّ والدته، الدونا أرميدا، لم تبلغ بها الأمور حدّ طلب الإحسان.

تقول باكيوكيا[5]، وهي زعيمة زقاقنا، إنه عندما كان هناك ملك، لم تكن هذه الأشياء تحدث، ولم تكن الأمهات يفرّطن بأبنائهنّ. تقول إنه لم تعد هناك ك – ر – ا – م – ة! وفي كل مرة تقولها تظهر لثتها البنية، تكزّ أسنانها الصفراء المتبقية وتبصق من الثقوب التي اختفت منها الأسنان. لقد ولدت باكيوكيا قبيحة بالفعل. أعتقد أنّها لهذا السبب لم تتزوّج أبداً. لكن لم يكن ذلك هو الشيء الذي نتحدث عنه كنقطة ضعفها، بل أنها في الحقيقة لم تنجب أولاداً. اقتنت حسّوناً في إحدى المرّات لكنه هرب. حتى الحسّون لا نستطيع التحدث عنه مع باكيوكيا.

5 La Pachiochia، زعيمة شعبية ذات عقيدة ملكية متزمتة، كانت من أكبر المعارضين لنقل أطفال نابولي الفقراء إلى الشمال لرعايتهم وتعليمهم، لكن بعد أن تأكدت من الطبيعة المفيدة للمبادرة عرضت نفسها للتعاون.

زاندراليونا أيضاً عزباء. لم يُعرف أبداً سبب ذلك. البعض يقول إنها تردّدت حيال الأشخاص الذين طلبوها وفي النهاية بقيت وحيدة لأنها في

الحقيقة غنية جداً ولا تريد اقتسام دنانيرها مع أحد. ثمّة من يقول إنها كانت مخطوبةً لكن خطيبها مات. وآخرون يقولون إنها كانت مخطوبة لشخص اتضح لاحقاً أنه كان متزوجاً. أنا أقول إنّ ذلك كلّه مجرّد إشاعات.

مرة واحدة فقط اتفقت باكيوكيا وزاندراليونا. عندما وصل الألمان داخل الزقاق طلباً للطعام فخبأت الاثنتان براز الحمام في كعكة الكازاتييلّو وادّعتا أنه شحم الخنزير، وهو طبق تقليدي من مطبخنا. أكل أولئك وهم يرددون: gut, gut! [جيد، جيد] في حين تبادلت باكيوكيا وزاندراليونا اللكزات والضحكات خفية. لم نرَ الألمان بعد ذلك، ولا حتى للانتقام.

أمّي أنطونييتّا، حتى الآن، لم تبعني مطلقاً. لكن بعد يومين أو ثلاثة على زيارة الراهبة عدت إلى البيت مع سلّة الأسمال لأجد مادالينا كريسكولو هناك. هذه هي، جاؤوا لشرائي كما أظنّ! بينما تتحدث أمّي إليها، أجول في الغرفة مثل نصف أبله، وإذا ما طرحوا عليّ أيّ أسئلة لا أجيب، أو أتعمّد التأتأة. أريد أن أبدو معوّقاً ليمتنعوا عن شرائي. مَن الأحمق الذي يرغب في شراءِ طفلٍ معوّق يتلعثم؟

تقول مادّالينا إنها أيضاً كانت فقيرة ولا تزال، وإن الجوع ليس ذنباً بل هو ظلم، وإنّ على النساء التوحّد بينهنّ لتحسين الأمور. من ناحية أخرى، تقول باكيوكيا لو أنّ كل الإناث قصصن شعورهنّ قصيرةً وارتدين بناطيل كالتي ترتديها مادّالينا، سينقلب العالم رأساً على عقب. لكنّني أقول: "أمّ الشوارب تحكي! على الأقل مادّالينا لا تملك شوارب، لديها فمٌ أحمر جميل وأسنانٌ بيضاء".

تخفض مادّالينا صوتها وتخبر أمّي أنها تعرف قصّتها وكم عانت لسوء حظّها، وأن على النساء مساعدة بعضهن بعضاً بالتضامن بينهنّ. تحدّق أمّي أنطونييتّا إلى الحائط بنظرة فارغة لدقيقتين. أفهمُ أنّها تفكّر في لويجي، أخي الأكبر.

قبل مادّالينا حضرت إلى منزلنا سيّدات أخريات، لكن لم تكن شعورهنّ قصيرة، ولم يرتدين البنطلونات. كنّ سيّدات حقيقيّات بملابس جيّدة وتسريحات الشعر الأشقر. عندما كنّ يدخلن الزقاق، كانت زاندراليونا تتجّهم وتقول: "ها قد وصلت سيّدات الإحسان". في البداية، كنّا سعيدين لأنهم جلبوا لنا طرود الطعام، لكن رويداً رويداً اتضح لنا أنه ليس داخل تلك الطرود معكرونة أو لحم أو جبن. كانت تحوي الأرز، دائماً أرز، أرز فقط. كلّ مرّة أتين فيها كانت أمّي

تنترها بعيداً كأنما لمست قِدراً يغلي. لا تحبّ أمّي أن تُلمس، ولا حتى للملاطفة. تتخذ مادالينا نبرة جديّة صارمة وتقول إنّها لا تريد شرائي. إنّ الحزب الشيوعي ينظّم شيئاً لا مثيل له من قبل، سيخلّده التاريخ ويذكره الجميع لسنوات وسنوات. "مثل موضوع كعكة الكازاتييلّو ببراز الحمام؟" أسأل، فتنظر إليّ أمّي أنطونييتّا نظرةً صارمةً تجعلني أفكّر في صفعة أخرى قادمة. لكنّها عوضاً عن ذلك تقول لي: "وأنت، ماذا تريد أن تفعل؟" أجيب: "إذا أعطوني حذاءً بفردتين جديدتين (الجائزة الكبرى، نجمة)، سأذهب إلى بيت الشيوعيين مشياً على الأقدام بدلاً من القطار". مادالينا تبتسم، وتهز أمّي رأسها بما يعني: لا بأس.

3

تتوقف أمّي أنطونييتا أمام مبنى الشيوعيين في شارع مِدينا، حيث كنا في المرّة السابقة. قالت مادالينا إنّه علينا التسجيل في قائمة أطفال القطار. في الطابق الأول، نجد ثلاثة شبان وشابتين. ما إن رأتنا الشابّتان، حتى أخذتانا إلى غرفة تحتوي طاولة مكتب وعلماً أحمر من خلفها. أجلستانا هناك وراحتا تسألان عن أمور كثيرة. واحدة تتحدّث والأخرى تكتب على ورقة. أخيراً تأخذ تلك التي تتحدّث قطعة سكاكر من علبة وتقدّمها إلي. أما التي كانت تكتب، فتضع ورقةً أمام أمّي على الطاولة. أمّي لا تفهم، فتضع قلماً بيدها وتخبرها أنّ عليها أن توقّع. أمّي لا تحرّك ساكناً وأنا أقشّر قطعة السكاكر ورائحة الليمون المنبعثة منها تدغدغ أنفي. أنا لا أتناول السكاكر كلّ يوم.

من الغرفة المجاورة، تصل صيحات الشبّان الثلاثة. تتبادل الفتيات النظرات بصمت. يبدو أنهن معتادات الأمر ولا يمكنهن فعل شيء حياله. في غضون ذلك، تبقى أمّي أنطونييتا متسمّرة والقلم في يدها الجامدة والورقة أمامها. أسأل:

"لماذا يصرخون في الغرفة الأخرى بهذه الطريقة؟" تلك التي كانت تكتب تبقى صامتة، والتي كانت تتكلم تقول إنهم لا يتنازعون بل يناقشون ما يجب فعله ليكون الجميع راضين، وإن هذه هي السياسة. عندئذ أسأل: "عفواً، لكن ألستم على وفاق بينكم هنا؟" يمتقع وجهها مثلما يحدث حين تضع حبّة بندق في فمك وتكتشف أنّها مرّة. ثمّ تقول إنّه ثمّة انقسامات وتيّارات... عند هذا الحد تلكزها التي كانت تكتب بمرفقها كأنها تقول إنها استفاضت بالحديث. ثمّ تلتفت إلى أمّي وتشير أنّ بإمكانها، إن كانت لا تعرف كتابة اسمها، أن تكتفي برسم الصليب ما دامتا شاهدتين. تحمرّ أمّي، ودون أن ترفع عينيها عن الورقة ترسم علامة الصليب مائلةً قليلاً. أنا يتملكني الخوف بعد سماعي بأمر التيّارات، فكما تردّد زاندراليونا دائماً: "التيّارات الهوائية تسبّب الزكام"، وقد أخبروني أنّهم لن يسمحوا للأطفال المرضى بالمغادرة. لكن هذا ليس عدلاً. تحديداً أولئك المرضى عليهم الذهاب للعلاج. أم لا؟ لأنّه من السهل التضامن مع الأصحاء، كما ستقول باكيوكا بحق. بصرف النظر عن شاربها ولثّتها البنيّة إنها حقاً امرأة طيبة وتمنحني ليرة بين حين وآخر أيضاً.

بعد ذلك تكتب الفتيات أشياء فوق كتاب كبير ويرافقننا إلى الخارج. عندما نمر عبر الغرفة الأخرى نجد الشبّان الثلاثة يواصلون جدلهم في السياسة. ذاك الضامر، ذو الشعر الأشقر، يردّد بين كل كلمتين أو ثلاث: "القضية الجنوبيّة" و"الاندماج الوطني". أنظر إلى أمي لأرى إن فهمت، لكنها تمضي في وجهتها. عندذاك يستدير الشاب الأشقر نحوي حيث كنت أمرّ في تلك اللحظة، كأنّه يقول: "تكلّم، أخبره أيضاً!" أود أن أردّ عليه أنني لا أعرف شيئاً على الإطلاق، وأنّ أمّي أنطونييتّا من أحضرني إلى هنا لمصلحتي، وإلا ما أتيت. تمسكني أمّي من ذراعي وتزجرني بصوت منخفض: "تريد أن تحشر نفسك في هذه الأمور أيضاً؟ اخرس. وامشِ خارجاً".

هكذا نغادر بينما يلاحقنا الأشقر بعينيه حتى الباب.

4

حلّ الزمن الرديء فجأة. لم تعد أمي أنطونييتّا تسمح لي بالذهاب لجمع الأسمال، لأن الأمطار بدأت وبوادر البرد أيضاً. لم تشترِ لي المزيد من البيتزا المقلية، لكنها ذات مرّة أعدّت لي طبقاً من المعكرونة على الطريقة الجنويّة التي تفقدني صوابي. حتى الراهبة اختفت عن الأنظار، وفي الزقاق، ضجروا من الحديث عن موضوع القطارات.

بما أننا وجدنا أنفسنا في وضع سيئ من دون العمل في الأسمال البالية مع أمّي، أنشأنا شراكة، أنا وتومّاسينو. في البداية، لم يرغب أن يعرف شيئاً عن الموضوع. كان يتهرّب قليلاً ويخشى أن ينكشف أمره لأمّه فتعاقبه بترحيله في القطارات. قلت له حينذاك: "إذا كان كابّا إيفيبرّو يستطيع كسب المال من الأشياء التي يعثر عليها وسط القمامة. لماذا نكون حمقى؟" هكذا بدأنا بتجارة الجرذان. كان اتفاقنا كالتالي: أنا أذهب لاصطيادها وهو يصبغها. ثم وضعنا طاولة في السوق حيث يعرضون الببغاوات والحساسين أيضاً. نحن كنا متخصصين بالأقداد[7]. خطرت لي

هذه الفكرة لأن ثمّة ضابطاً أميركياً كان يملك مزرعة لتربيتها وبيعها للسيدات الثريات اللواتي لم يعدن ثريات الآن. كنّ يصنعن ياقات من فرائها. كن يوفّرن ويتباهين. الجرذان التي كنت أصطادها كانت مبتورة الذيل ومصبوغة بالكامل بطلاء الأحذية الأبيض والبني، فبدت مماثلة تماماً لأقداد الضابط الأميركي. بالمبدأ، كانت الأعمال تسير جيداً، وكان لدينا، أنا وتومّاسينو، زبائن لطيفون. وكان من الممكن أن نصبح أغنياء الآن لو لم تمطر في يوم رديء. "آميريةُ"، قال تومّاسينو ذلك الصباح، "إذا كسبنا المال، ليس عليك الذهاب عند الشيوعيين!" "وما دخل هذا؟"، أجبته، "إنها أشبه بعطلة". "أجل، عطلة المتضورين جوعاً. هل تعرف إلى أين ستأخذني أمي في الصيف المقبل؟ ستأخذني إلى إسكيا[8]..." في تلك اللحظة تماماً، تلبدت السماء بالغيوم، وهطل مطر لم يسبق أن رأينا مثله. "تومّاسيهْ، عندما تريد أن تخرط كذبة كبيرة كهذه، في المرة المقبلة، هيِّئ المظلة قبلُ".

7 أو جرذان الهامستر. نوع من القوارض يكثر تربيته في أوروبا.

8 جزيرة بركانية في الطرف الشمالي لخليج نابولي.

التجأنا تحت إفريز أحد المباني. ولكن الطاولة مع الجرذان المطلية بقيت تحت الماء. لم نملك الوقت لنقلها من هناك. عندما بدأ طلاء الأحذية

الانحلال، وعادت الأقداد جرذاناً، بدأت السيدات حول الأقفاص الصراخ: تفوه! كوليرا!

عندئذ لم نعد نستطيع الهرب. أتى أزواج السيدات وأرادوا ضربنا لو لم يصل كابا إيفييرَو، لحسن الحظ، ويمسكنا من رقابنا آمراً: "أخفوا تلك القاذورات حالاً. وحسابنا، أنا وأنت، سيكون لاحقاً".

اعتقدت أنه سيشبعني ضرباً، لكنه لم يتطرق إلى موضوع الجرذان أبداً. ثمّ، عندما جاء يوماً للعمل مع أمّي، تنحّى بي جانباً قبل أن يدخل. مجّ نفساً من سيجارته وقال قبل أن ينفث الدخان: "كانت فكرة جيدة، ولكن كان عليكم وضع الطاولة في الداخل!" وأطلق ضحكة وحلقات الدخان تتّسع في الهواء: "إن أردت العمل في التجارة، فعليك أن تأتي معي إلى السوق. أنا أعلّمك..." ثم وضع يده على خدي بطريقة ملتبسة بين صفعة وتربيتة. وغادر.

كنت على وشك الذهاب إلى كابا إيفييرَو، لتحسين العمل فقط. لكن الحرّاس اقتادوه بعد بضعة أيّام بسبب قصّة القهوة، كما أظن. هكذا أيضاً كفّ أهل الزقاق عن التفكير في الأقداد الملونة، لأن الجميع كانوا يتحدّثون عن كابا

إيفيبرّو الذي صار سجيناً. الآن أريد حقاً رؤية هل لا يزال يقول إنه رجل حرّ!

عندما علمت أمّي بالأمر أخرجت كل الأشياء من تحت السرير، ولأيّام كانت تخفي وجهها خلف يديها كلّ مرة تسمع فيها جلبةً عند الباب، وتبدو كأنها ترغب في الاختفاء. لكن الأيام توالت ولم يأتِ أحدٌ للتفتيش. الناس تضايقوا من هذا أيضاً. يتحدث الناس كثيراً، ثم ينسون فوراً، باستثناء أمّي التي تتكلّم قليلاً لكنها لا تنسى أي شيء أبداً. بالفعل، في صبيحة أحد الأيام، عندما لم أكن أفكّر حتى في الأمر، أيقظتني قبل شروق الشمس حيث الظلام ما زال مخيّماً خارج النافذة. ارتدت أجمل فساتينها ومشّطت شعرها أمام المرآة. أعدّت ملابسي الأقل رثاثة، وقالت: "دعنا نذهب، وإلّا سنتأخر". لقد فهمتُ.

مشينا. هي في الأمام، وأنا وراءها. بدأت تمطر في هذه الأثناء. أقفز في برك الماء لألعب وأمّي تصفعني على مؤخرة رأسي. الطريق لا يزال طويلاً وقدماي صارتا مبللتين. أتلفت حولي لألعب لعبة الأحذية وأحصل على علامات إضافية، لكن ملائكتي ليست حاضرةً هذا الصباح. أودّ لو أنّني أيضاً أضع يدي على وجهي وأختفي قليلاً. أمّهات كثيرات يمشين معنا بصحبة أبنائهن. ثمّة آباء

أيضاً، لكن من الواضح جداً أنهم ما كانوا راغبين في المجيء. واحدٌ منهم كتب لابنه جميع الملاحظات على ورقة: متى يستيقظ، متى يخلد إلى النوم، ما الذي يروقه ولا يروقه من الطعام، عدد المرات التي يتغوّط فيها أسبوعياً، أن يضعوا له مشمّعاً تحت الشرشف لأنه يبول في ثيابه ليلاً. يقرأ القائمة والابن يواري نفسه أمام الجميع. في النهاية، يدسّها مطوية إلى أربعة أجزاء في جيبٍ خيطت داخل القميص. ثمّ يعود لأخذ الورقة بعد تفكير، ويكتب فوقها منذ الآن عبارات الامتنان للعائلة التي ستستضيفه، قائلاً إنهم غير معوزين، والحمد لله، لكن الابن أصرّ كثيراً، ولم يرغبوا في تخييب أمله.

أما النساء، فكنّ يمشين دون خجل، ومنهن من تجرّ معها ابنين أو ثلاثة أو أربعة. أنا ابن وحيد، نظراً إلى أنّ الوقت لم يسعفنا لنتعرف إلى بعضنا بعضاً، أنا وأخي الأكبر لويجي. كذلك، لم يسعفني الوقت مع أبي. لقد وُلدتُ متأخراً عن الجميع. لكن هذا أفضل؛ لن يضطر أبي إلى الخجل من اصطحابي إلى القطار.

نصل أمام مبنى شاهق. تقول أمي أنطونييتّا إنه فندق الفقراء. "لكن كيف؟" أقول، "أليس المفترض أن يأخذوني إلى الشمال لأتمتع بحياة

حلوة؟ بدلاً من ذلك نوجد في فندق الفقراء. إنّ حالتي تسوء! ألم يكن من الأفضل البقاء في زقاقنا؟" أمي تقول إننا جئنا إلى هنا لأنّ عليهم أن يفحصونا قبل إرسالنا إلى الشمال، عليهم أن يروا هل نحن أصحاء أو مرضى أو نعاني من مرض معدٍ... ثم يجب أن يعطونا الملابس الثقيلة، المعاطف والأحذية، لأن الشمال بارد في الشتاء، ليس كما عندنا.

"أحذية جديدة تماماً؟" أقول، "جديدة تماماً، أو مستعملة لكنها جيدة"، تجيبني. "علامتان!" أصرخ. أنسى السفر للحظة، وأذهب للّهو في الجوار.

ثمّة حشد أمام المبنى الشاهق. كلّ الأمهات مع أطفالهن من جميع الأعمار: صغارٍ جداً، صغار، متوسطي العمر، كبار. أنا بين المتوسطين. أمام المدخل هناك فتاة شابة لكنها ليست ماذالينا. كما أنها ليست واحدة من سيدات الأرز. تقول إنّ علينا الاصطفاف بالرتل، وإنهم سيُجرون بعض التدقيقات ثمّ سيخيطون لنا الأرقام للتعرف إلينا، وإلا سينتهي الأمر عند عودتنا بأن يعيدوا إلى كلّ عائلة الطفل الخطأ، ولن نلتقي ثانية. أنا سأبقى مع أمّي فقط ولا أريد مبادلتي بطفل آخر. لذا أتشبث بحقيبتها وأقول إنني، في نهاية الأمر، لا

أحتاج الأحذية الجديدة. ولو كان الأمر لي، يمكننا العودة إلى المنزل. لكنها لا تسمعني، أو لا تريد أن تسمعني. أشعر بالحزن يتسبب في انقباض بطني، وأعتقد أنه ربما كان من الأفضل مواصلة لعب دور المعوّق المتلعثم لكيلا أغادر.

أشيح وجهي لأنني لا أريد أن تراني أبكي. وبدلاً من ذلك أوشك على الضحك، فعلى بعد نسقين خلفي، وسط الحشد، كان تومّاسينو. "تومّاسيّه"، أصرخ، "هل تنتظر الباخرة إلى إسكيّا؟" ينظر إليّ بوجه شاحب. إنّه يكاد يموت من الخوف. في النهاية، اضطرت والدته أيضاً إلى طلب الإحسان! أخبرتني باكيوكيا أن الدونا أرميدا كانت ثرية في وقت ما، ثرية جداً. كانت تعيش في مبنى في شارع ريتّيفيليو مع الخدم. كانت تحيك الملابس لأفضل سيدات المدينة وتحتفظ بأواصر معهنّ.

زوجها، الدون جواكينو سابوريتو، كان على وشك شراء سيارة. لكن، وفق زاندراليونا، الدونا أرميدا، مع كل الاحترام، شقّت طريقها بلعق أقدام الفاشيين. ثم عندما سقطت الفاشية عادت خياطة كما بدأت. زوجها الذي كان شخصيّة مهمّة ألقي القبض عليه واستجوبوه. كان الجميع ينتظرون عقوبة ما، محاكمةً، سجناً. لكن شيئاً من

هذا لم يحدث. قالت زاندراليونا إن عفواً كان قد صدر. أي مثلما حدث معي حين اكتشفت أمّي أنطونييتّا أنني كسرت سلطانية المعكرونة التي ورثتها عن أمها فيلومينا الطيبة الذكر، السلام لروحها والصحة لنا، وقالت لي آنذاك: "اغرب عن عينيّ وإلا سأقتلك ضرباً". هربتُ عند زاندراليونا ولم آتِ ليومين. أُطلق سراح زوج الدونا أرميدا الفاشي. عاد إلى المنزل وأحدٌ لم يذكر شيئاً بعد ذلك. هم يعملون الآن في بيع الألبسة المهرّبة داخل Basso في الزقاق المحاذي لزقاقنا.

عندما كانت الدونا أرميدا تعمل خيّاطة في شارع ريتّيفيليو، كان لدى تومّاسينو أحذية جديدة، جديدةً جداً (الجائزة الكبرى، نجمة). ثم عندما عادت أمه خيّاطةً في الزقاق، كان لديه الحذاء نفسه الذي كان من قبل لكنه أصبح قديماً ومثقوباً (علامة).

عندما ترى أمي تومّاسينو في الرتل وراءنا تضغط على يدي لتذكّرني بالوعد. أضغط أيضاً، ولكن ألتفت بعد ذلك نحو صديقي وأغمزه. في الواقع، كان تومّاسينو يرافقني في بعض الأحيان حين كنت أذهب لجمع الأسمال، لكن الدونا أرميدا لم تكن راضية. كانت تقول إنّ على ابنها مرافقة من هو أفضل منه وليس الأكثر بؤساً. عندما

علمت أمّي بهذا الأمر، جعلتني أعدها أن أبتعد عن توماسينو، لأنه ابن فلاحين محدثي نعمة تصعلكوا من جديد. وهم فاشيون أيضاً، كما أخبرتها زاندراليونا. انتهى الأمر أنْ وعدت أمّي وتوماسينو وعد أمّه. وهكذا، كنا نلتقي سرّاً كل ظهيرة.

يستمر الناس بالوصول، البعض مشياً على الأقدام، والبعض الآخر في الحافلات التي وفّرتها شركة الترام، كما تقول سيدة بجانبنا، وحتى آخرون وصلوا على متن سيارات الشرطة، سيارات الجيب التي بدت لي من دون الجنود وهي مليئة بأطفال يلوّحون برايات ملوّنة بأيديهم كأنها عربات عيد بيديغروتّا. أسأل أمّي هل بإمكاني أيضاً صعود سيارة الجيب. تطلب أن أبقى ملتصقاً بها لكيلا أفقدها، وإن كان لا بدّ من فقدانها، فعليّ الانتظار ريثما يخيطوا الرقم على ملابسي. الناس من حولنا كثر. تضعنا فتاة في الرتل لكن الرتل يتحرك باستمرار مثل حنكليس في يد بائع السمك.

الفتاة الشقراء، التي كانت تعذّب والدتها حتى الآن لأنها تريد ركوب القطار، غيّرت رأيها وأخذت تبكي لأنها لم تعد تريد الذهاب. طفل أكبر مني قليلاً، بقبعة بنية أتى لمرافقة أخيه فقط، يقول

إنه ليس من العدل أن يبقى هنا بينما يذهب أخوه ليستمتع، ويبدأ البكاء بدوره. تنهال الصفعات ويعلو الصراخ، لكن بلا جدوى. تستمر الصيحات وتحار الأمهات لأيّ قديس يبتهلن. في النهاية، تصل إحدى الفتيات مع القوائم وتحذف اسم الطفلة الشقراء. تكتب اسم الصبي ذي القبعة البنية وترضي الجميع ما عدا والدة الطفلة الشقراء التي تجرّ ابنتها بعيداً وهي تقول: "سنتحاسب في البيت".

في لحظة من اللحظات، يُسمع صوت معروف. إنّها باكيوكيا تتقدم مجموعة من النساء يسرن في موكب. تحرّك ذراعيها في الهواء وتصرخ ملء حنجرتها وقد علّقت على صدرها صورةً للملك أومبيرتو ثبتتها بالدبابيس. عندما رأيت صورته أوّل مرّة داخل Basso الذي تسكنه، سألتها: "من هذا الشاب الجميل أبو الشوارب؟ هل هو خطيبكم"، كادت باكيوكا أن تشوطني لكوني أسأت إلى صديقها الميت في الحرب، السلام لروحه، هي التي لم تخنه أبداً حتى بالتفكير. رسمت علامة الصليب ثلاث مرّات، ثمّ قبّلت رؤوس أصابعها وأرسلت القبلة إلى السماء.

قالت باكيوكيا إنّ الشاب ذا الشارب كان الملك الأخير، لكنه انتهى قبل أن يبدأ لأن أولئك ركبوا

رؤوسهم ليعلنوا الجمهورية، وهكذا زوّروا البطاقات الانتخابية ليفوزوا هم. قالت باكيوكيا إنها مَلكيّة، مُجزّئةً حروفها: مَ – ل – ك – يّة، وإن الشيوعيين قلبوا الأوضاع رأساً على عقب ولم يعد شيء واضحاً. وفقاً لها، أبي أيضاً مجرم أحمر ولهذا اضطر إلى الفرار، بخلاف ما يقال عن أنه في أميركا! فكّرت أنّ هذا قد يكون صحيحاً لأنّ شعري في الواقع أحمر في حين أن أمّي شعرها داكن، ولذلك لا بدّ أن يكون الأحمر هو أبي. منذ تلك اللحظة، لم أعد أغضب حين ينادونني بالأحمر: "الأحمر الماكر".

تقود باكيوكيا، مع الصورة على صدرها، موكب نساء، دون أطفال في إثرهن، يصرخن ضد النساء اللواتي يصطحبن الأطفال. "لا تبيعوا أطفالكم"، تصرخ، "أولئك خدعوكم بثرثرتهم، والحقيقة أنهم يرسلونهم إلى سيبيريا ليكدحوا، إذا لم يموتوا من البرد قبل".

الأطفال الأصغر سناً يبكون ولا يرغبون في الرحيل، وأولئك الأكبر يتعنّتون يريدون الذهاب، كأنه عيد سان جِنّارو لكن دون المعجزة. وبقدر ما تلطم باكيوكيا صدرها، يتلقّى أبو الشوارب المتدلي من عنقها صفعات أكثر. لو أنّ زاندراليونا كانت هناك، لردحت لها بالقوافي نفسها. لكن

زاندراليونا لم تكن قد شوهدت بعد. تتابع باكيوكيا: "لا تدعوهم يرحلون. لن يعودوا إليكم ثانية! هل تعرفون أن الفاشيين وضعوا المتفجرات على طول السكك الحديدية لتفجير القطارات؟ إنهم أطفالكم، تشبثوا بهم كما فعلتم تحت القصف عندما استطعتنَ وحدكنَ فقط وعناية الربّ حمايتهم".

أتذكّر من القصف صوت صفّارات الإنذار وصراخ الناس. كانت أمّي تأخذني في حضنها وتبدأ الركض. كنا نذهب إلى الملاجئ وهي تشدني إلى صدرها طوال الوقت. كنتُ سعيداً أثناء القصف.

يمرّ موكب النساء اللواتي دون أطفال عبر حشد الأمهات الواقفات عشوائياً في رتل واحد ويفسد كلّ شيء مجدداً. تخرج عندئذ فتيات أخريات من بوابات المبنى الشاهق محاولات استعادة النظام. "لا تغادرن. لا تحرمن أطفالكن هذه الفرصة. فكّرن في الشتاء المقبل، البرد، التراخوما[9]، البيوت التي تدلف...". يدنين من الأطفال ويهدين كلّ واحد رقاقةً قصديريّة. "نحن أمّهات أيضاً. سيمضي أطفالكن الشتاء في الدفء، سيأكلون ويتلقّون العلاج. العائلات في بولونيا ومودينا وريميني تأهبت لاستقبالهم في منازلها.

سيعودون إليكم أصحاء سِماناً وأكثر جمالاً. سيتناولون الطعام كلّ يوم، الفطور والغداء والعشاء. تدنو شابّة منّي وتعطيني رقاقة أيضاً، أجد داخلها لوحاً بنيّاً داكناً. "كُلْ أيها الولد الوسيم، إنها شوكولاتة"، تقول. ولكيلا أبدو جاهلاً، أقول: "أجل، أجل، سمعتهم يتحدثون عنها...".

9 أو الزمد الحُبَيبي. مرض معدٍ ويمكن أن يؤدّي بعد مرور الوقت إلى العمى.

"دونا أنطونييتّا، أنتم أيضاً تبيعون ابنكم؟" تقول باكيوكيا في تلك اللحظة بالذات، وكفُّها فوق صورة صاحب الشارب الذي تجعّد بكثرة في هذه الأثناء من شدّة اللطم. "لم أكن أنتظر هذا منكم! حتى أنكم لستم بحاجة إلى ذلك... ربما لأنهم سجنوا كابا إيفيزْو؟ لو أخبرتموني، لقدّمت إليكم القهوة!"

رمقتني أمي أنطونييتّا بنظرة بغيضة لتفهم هل أنا من تجسّس على موضوع القهوة. "دونا باكيوكيا"، تجيب، "لم أطلب في حياتي شيئاً من أحد. ودوماً أرجعتُ ما أخذته حين كنت أطلب. عندما كنت أجد نفسي عاجزة عن الردّ، كنت أتلافى الطلب. اضطر زوجي إلى السفر خارجاً

بحثاً عن الثروة، وعندما يعود... أنتن تعرفن القصّة جيداً ليس عليّ شرح أيّ شيء".

"لكن أيّ ثروة دونا أنطونييه؟ كفى هراءً... لم تعد هناك ك – را – مة!"

عندما تلفظ باكيوكيا كلمة "ك – را – مة"، أغمض عيني تلافياً لرؤية لثّتها البنية والبصاق الذي ينطلق من فجوات الأسنان الناقصة. ولكن أفتحهما بعد ذلك لأن أمي أنطونييتًا لا تجيب وهذه إشارة سيئة، فليس من شيمتها الصمت حين يهزؤون بها.

عندئذ آخذ القطعة الأخيرة من الشوكولاتة وأكوّر ورق القصدير وأحتفظ به في جيبي لألعب به لاحقاً كقذيفة مدفعية لجندي صغير من القصدير كنت قد عثرت عليه أوّل من أمس في شارع ريتيفيليو. في النهاية، أجيب عوضاً عنها: "دونا باكيوو، أنا لديّ أب في مكان ما. ولكن أنتم هل لديكم ابن؟"

تضع باكيوكيا إحدى يديها على صدرها لتداعب المسكين المجعّد أبا الشوارب.

"لا، أليس كذلك؟ لم يبقَ لك سوى صورة الملك أومبرتو؟"

بدأت اللثة البنية لباكيوكيا ترتعش غضباً.

"يا لسوء الحظ! لولا أنها قطعة الشوكولاتة الأخيرة، لأعطيتها له. هل ترونها؟" وأحشرها في فمي دفعةً واحدةً.

5

"أيتها النساء، أيتها النساء! استمعن إليَّ. أنا ماداّلينا كريسكولو، جئت من بالّونيتّو في سانتا لوتشيا وقاتلت في 'الأيام الأربعة'". الأمهات يصمتن. ماداّلينا تقف فوق عربة أحد بائعي الخضار وتتحدث عبر قمع حديدي يضخّم صوتها.

"عندما اضطررنا إلى طرد الألمان، نحن النساء أدّينا واجبنا. أمهات وبنات وزوجات، شابات ومسنّات، نزلنا إلى الشارع وقاتلنا. لقد كنتن هناك، وأنا أيضاً. هذه معركة أخرى لكنّها ضد أخطر الأعداء: الجوع والفقر. وإذا قاتلتنّ، سيربح أبناؤكن!"

تنظر الأمهات إلى أطفالهن.

"سيعودون إليكنّ أكثر صحّة وجمالاً. ستشعرن بالارتياح من المصاعب الكثيرة التي حمّلتها لكُنّ الحياة حتى الآن. عندما ستعانقوهن ثانية ستكنّ أيضاً أكثر صحّة وجمالاً. أنا سأعيدهم إليكنّ، أعدكنّ بشرفي وبمقدار حقيقة اسمي ماداّلينا كريسكولو".

النساء بقين صامتات وأبناؤهن أيضاً. تنزل ماداّلينا عن العربة وتمشي وسط الأمهات

وأطفالهن المتشبثين بملابسهن، وتبدأ الغناء داخل قمع الحديد. لها صوتٌ جميل يشبه تقريباً تلك التي أسمعها حين أذهب وأجلس خارج المعهد الموسيقي بانتظار خروج كارولينا مع الكمان بيدها.

مع أننا نساء، فإننا لا نخاف، من أجل حبّ أولادنا، من أجل حبّ أولادنا.
مع أننا نساء، فإننا لا نخاف، من أجل حبّ أولادنا، غُضبةً نكون...[10]

10 الغضبة: مقاطع شعرية شعبية انتشرت بين 1900 و1914 في وادي بو. مؤلف النص مجهول وكذلك الملحن. غالباً ما تغنيها النساء أثناء الاحتفالات وتعدّ أول أغنية نضال بروليتارية.

الفتيات يتبعن مادّالينا، الأمهات يبقين صامتات. ثم تنتاب إحداهن الشجاعة فتبدأ الغناء وتتبعها الأخريات رويداً رويداً. عند ذلك ترد باكيوكيا ونساء موكبها بالنشيد الملكي:

يحيا الملك، يحيا الملك، يحيا الملك، سعيدة تصدح الأبواق.
يحيا الملك، يحيا الملك، يحيا الملك، ومعها يتردّد صدى الأناشيد...

لكنهنّ قلّة ويغنين دون تناغم، وهكذا تصبح أصوات الأمهات أقوى، دائماً أقوى. في النهاية، لا نسمع أصواتهن فقط بل أصوات أبنائهن أيضاً. لأوّل مرّة، أسمع صوت أمّي أنطونييتا تغني. تبقى

باكيوكيا صامتةً بفم مغلق ولثة مخفية. ثم تقف على رأس الموكب وتغادر. تقول وهي تعبر قربي: "الجوع أقوى من الخوف..." ثم يجرفها الحشد فأخسر تتمّة الجملة.

تقول مادَالينا والقمع الحديدي بيدها دائماً إنه علينا توديع الأمهات ودخول المبنى الشاهق لأن عليهم أن ينظّفونا ويعاينونا. من يبقى هادئاً سيحصل على شوكولاتة أخرى. أشدّ على يد أمّي أنطونييتّا وعندما ألتفت نحوها أرى عينيها بلون غريب مثل لون بزّات الجنود الألمان الذين كانوا يتوغلون في زقاقنا بحثاً عن الطعام. عندئذ أفتح ذراعي، كما رأيت قائد الأوركسترا يفعل ذات مرة حين تسللنا، أنا وكارولينا، إلى المسرح حيث كانت تجري الاستعدادات للحفل الموسيقي، وألصق وجهي ببطنها قدر استطاعتي. تُفاجأ لأنها غير معتادةٍ العناق. لكن بعد ذلك تضع يدها في شعري وتحركها ببطء ذهاباً وإياباً. هي رقيقة، رائحتها كالأحجار الكريمة والصابون المذوّب بالماء، لا تدوم طويلاً.

تقترب فتاة وتسألني عن اسمي. أنا أجيب: أميريغو سبيرانتسا، مثل أمّي أنطونييتّا. تعلّق على قميصي بواسطة دبوس بطاقة كرتونية مكتوباً عليها رقمي واسمي وكنيتي. تعطي

واحدةً مشابهة لأمي التي تدسّها في صدرها حيث تحتفظ بالأشياء المهمة جداً. بعض النقود، صورة صغيرة لسانت أنطونيو عدو الشيطان، منديل مطرز ورثته عن أمها فيلومينا، السلام لروحها. والآن رقمي أيضاً. هكذا، بعد أن أغادر ستحتفظ بكل شيء قربها.

بعد أن استلم جميع الأبناء والأمهات أرقامهم أخذت مادّالينا القمع الحديدي وراحت تتحدث وهي تدير رأسها هنا وهناك لنسمع جميعاً: "أيتها النساء، أيتها النساء. لا تذهبن، انتظرن لحظة. فلتقف كل واحدة منكنّ بجوار ابنها لنلتقط لكم الصور الفوتوغرافية".

ذُهلت الأمهات من هذا الأمر الجديد، وبدأن يتحركن من جديد فيخلطن الرتل الذي احتاج تدخل الربّ لتنظيمه. واحدة تمسّد شعرها، وأخرى تقرص خدّيها لتبدو في صحة جيدة، وثالثة تعضّ شفتيها لتبدوا مطليتين بأحمر الشفاه مثل النساء في الصور داخل واجهات شارع ريتيفيليو. أمي أنطونييتّا تلعق يدها وتمررها على رأسي، فبعد حلاقة البطيخة بدأ شعري ينمو مجعّداً. تقترب مادّالينا مع يافطة بيدها. "ما المكتوب في اليافطة، أميريه؟" تسأل أمي. أنظر إلى الأحرف، أتعرف إلى بعضها فحسب، ولا أستطيع تجميعها

معاً. يلتبس عليّ الأمر. أنا أحب الأرقام. "هل أرسلتك إلى المدرسة لتسخين المقعد؟"

لحسن الحظ، تضع مادالينا القمع الحديدي قرب فمها وتقرأ لنا. لقد كُتِبَ على اليافطة أننا أبناء الجنوب، وأن الشمال ينتظرنا لمدّ يد العون إلينا. إنّه التضامن. أودّ أن أسألها عن معنى التضامن لكن شاباً يرتدي سترة وبنطالاً رمادياً مُستهلكين قليلاً يدنو ويطلب منّا الاستعداد لالتقاط الصورة. تضع أمّي أنطونييتا يديها على كتفي. أستدير لأنظر إليها، تبدو على وشك أن تبتسم لكن في اللحظة الأخيرة تعدل عن الأمر، وعندما يلتقط الشاب الصورة، يظهر وجهها كما هو دائماً.

أخيراً ندخل المبنى الطويل الشاهق. جميع الأطفال يبدون أصغر سناً دون أمّهاتهم، بمن فيهم أولئك الذين كانوا يتبجّحون في الخارج. تتركنا الفتيات ننتظر في ثلاثة أرتال. عندئذ أذهب للوقوف قرب توماسينو لأمنحه الشجاعة، لأن ساقيه كانتا ترتجفان بطريقة أسوأ من اللحظة التي عادت فيها الأقداد جرذاناً تحت الماء. معنا فتاة أخرى اسمها ماريوتشا. ضامرة وشعرها قصير. إنها ابنة الإسكافي هناك في الأعلى، في بيتسوفالكوني. أعرفها لأن أمي أنطونييتا

صحبتني إليه مرّة لسؤاله هل يستطيع إبقائي في دكانه لتعليمي الصنعة لكوني مهووساً بالأحذية.

لم نحظَ حتى بنظرة من الإسكافي الذي أشار بإصبعه خلف منضدة العمل حيث كان أربعة فتيان بأعمار مختلفة مع الأحذية والمسامير والغراء بين أيديهم. إنهم أبناء المرحومة زوجته، السلام لروحها، التي امتلكت الشجاعة لتنزلهم عن كاهلها وتغادر إلى العالم الآخر. كانت ماريوتشا الأنثى الوحيدة، وعندما تكبر قليلاً ستصبح ربّة المنزل ومرشدة لإخوتها، لكن حتى ذلك الوقت كان يحتفظ بأربعتهم كمتدربين، ولذلك كان ردّه النفي.

ثم أخبرتني زاندراليونا أنّ الإسكافي حين ذهبت مادّالينا إليه لتخبره عن القطار قرّر أن يرسل ماريوتشا، لأنّه يحتاج إخوتها الذكور في العمل، في حين أنها لا تزال عاجزة حتى عن تسخين القليل من المعكرونة. وهي لا تصلح حالياً لأيّ عمل.

عندما ننتظم في الرتل، يبقى وجهها شاحباً ونظرتها خائفة. "لا أريد! لا أريد!" تبكي. "سيقطعون يديّ ويضعونني في الفرن!"

بعكس الآخرين الراغبين في السفر بأي ثمن. "أنا مصاب بالتراخوما، أنا مصاب بالتراخوما"،

يصرخون كأنّ التراخوما، عوضاً عن أن تكون مرضاً باتت ورقة يانصيب رابحة. هكذا صار كلّ أولئك الذين يسمعونهم يمطّون رقابهم ويصرخون أيضاً: "التراخوما، نحن مصابون بالتراخوما" لاعتقادهم أنهم لن يسمحوا لهم بركوب القطار دون التراخوما.

نجلس، أنا وتومّاسينو وماريوتشا، قرب بعضنا بعضاً. ماريوتشا تتنشق الهواء بين حين وآخر رغم أنه ليس ثمّة رائحة لحم محروق أو مطبوخ، وحتى لا أثر للدخان، ما يعني أنهم لن يحشرونا في الأفران، على الأقل حتى اللحظة. لا شيء سوى فتيات يجئن ويذهبن، ويتحدثن إلى شاب طويل القامة يحمل سجّلاً يكتب فيه بقلم الرصاص بين وقت وآخر. مادّالينا تناديه "الرفيق ماوريتسيو"، هو أيضاً يناديها "رفيقة"، كأنهما زملاء يرتادان المدرسة معاً. هو يمشي جيئة وذهاباً، يصغي إلى الجميع ويجيب عن أسئلة كلّ منهم. عندما يصل إلينا، يقف محدّقاً بنا. "وأنتم، ما أسماؤكم؟" فلا نجيب خجلاً. "هييه، أتحدث إليكم؟ ألا تملكون ألسنة أم قطعوها لكم؟". "في الحقيقة، ليس بعد"، يجيب تومّاسينو مرتعداً من الخوف. "لكن لماذا عليهم أن يقطعوها لنا؟" تسأل ماريوتشا، "إذن باكيوكيا كانت محقّة!"

يطلق الرفيق ماوريتسيو ضحكة لطيفة ثم يداعب رأس كل واحد منّا. "دعوني أرى. أخرجوا ألسنتكم!"

نتبادل ثلاثتنا النظرات ثم نخرج ألسنتنا. "لو أن الأمر متروك لي، لكنت قصّرتها؛ إنّها طويلة جداً بحسب ذائقتي..."، تبلع ماريوتشا لسانها وتخبّئ فمها بكفين متصالبتين. "لكن التعليمات تمنعنا من ذلك..." يقلّب الرفيق ماوريتسيو صفحات السجلّ الذي يحمله بيده. "بالفعل، أرأيتم؟ إنه مكتوب هنا. هل تجيدون القراءة؟ كلّا؟ خسارة، وإلا لأمكنكم التأكد من ذلك بأنفسكم. لجنة حماية الأطفال، المادة مئة وثلاثة: يُمنع قطع ألسنة الأطفال..." ثم يضحك مجدداً. يقلّب الورقة ويرينا أنها بيضاء. "الرفيق ماوريتسيو يحبّ المزاح!" يقول توماسينو وقد استعاد شجاعته.

"برافو، هذا صحيح"، يقول الرفيق ماوريتسيو.

"أحبّ شيئاً آخر أيضاً... لا تتحركوا لخمس دقائق..."

يبدأ الرسم بقلم الرصاص على الصفحة البيضاء. ينظر إلينا ويتابع، ثم يتوقف، ثم يدرسنا مرة أخرى ويعاود الرسم. في النهاية، ينزع

الورقة، يقلبها ويرينا إياها. نبقى ذاهلين بأفواهٍ فاغرة. هناك وجوهنا كما هي بالضبط. بعد ذلك يعطي الورقة لتومَاسينو الذي يدسّها في جيبه.

من آخر الممر، تصل فتاتان ترتديان المئزر والقفازات وتطلبان منّا خلع ملابسنا. نوشك نحن الثلاثة على البكاء. تومَاسينو خوفاً من أن يستولي أولئك على الأحذية القديمة المثقوبة إن عثروا عليها، وماريوتشا لأنها تخجل أن تتعرى أمام الجميع، وأنا لأنني أشكّ في أنني أملك جورباً جيداً وآخر مرقّعاً. لذا أذهب إلى واحدة من الفتيات وأخبرها أنني لا أستطيع خلع ملابسي لأنني أشعر بالبرد، وكذلك صديقاي الاثنان.

لحسن الحظ، تصل مادّالينا وتقول: "هيّا نلعب لعبة جميلة الآن، أتوافقون؟ لعبة لم تلعبوها مطلقاً من قبل. لكن عليكم أن تخلعوا ملابسكم. بعد ذلك سنعطيكم ملابس جديدة أكثر جمالاً ودفئاً". "أحذية أيضاً؟" أسأل. "أحذية جديدة للجميع"، تجيب وهي ترتّب شعرها خلف أذنها. نخلع ملابسنا ببطء، ثم تقودنا مادّالينا إلى غرفة مزودة بأنابيب ترشّ الماء من السقف. إنه نوع من المطر لكنه دافئ. أقف تحت الأنبوب وتتساقط كل القطرات على جسدي. أبقي عينيّ مغلقتين خوفاً

من الغرق، فيما تقترب مادَالينا مع إسفنجة وتغمرني برغوة بيضاء معطَرة. تغسل شعري والذراعين والساقين والقدمين. تجعل الصابون ينزلق على كامل جسدي كمداعبة. أمّي لا تداعبني أبداً. ثم أفتح عينيّ وتومّاسينو، الواقف جواري، يرشّني بالماء، بينما ماريوتشا تخبط قدميها بالأرض، في بركة رمادية.

تغسلهما مادَالينا بالصابون أيضاً، وفي النهاية، تلفّ كل واحد منّا بمنشفة بيضاء خشنة، وتُجلسنا على المقاعد الخشبية جوار الأطفال الآخرين الذين تمّ تنظيفهم. ثم تأتي شابة شيوعية مع سلّة مليئة بالخبز وتعطي قطعة لكل واحد منّا. تقول إن الخبز أرسله الطبيب الذي سيفحصنا. أنا لم أرَ الأطباء قطّ ولا أريد أن أراهم، ولكن في هذه الأثناء آكل الخبز وأغلق عينيّ ورائحة الصابون تتغلغل قويّة في أنفي.

6

خطوط السكك الحديدية في ساحة غاريبالدي مغطاة بالركام، وعدد من القطارات دُمّر جرّاء القصف. تشبه الجنود الذين رأيتهم مرّة في عرض عسكري مع الأعلام بأيديهم. كانوا جميعهم غير مكتملين، ثمّة من يفتقر إلى ذراع، من فقد إحدى قدميه، من فقد إحدى عينيه. تبدو لي القطارات المحطّمة مثل قدامى المحاربين. إنها جريحة لكنها لم تمت بعد.

القطارات التي بقيت سليمة طويلة جداً. يمكن أن ترى بدايتها لكن ليس نهايتها. قالت مادّالينا إن أمّهاتنا سيأتين لوداعنا قبل المغادرة، لكنني أظنّ أنهنّ لن يتعرّفن إلينا حين يريننا. من حسن الحظ أننا نحتفظ بالأرقام مثبتة على الصدر فوق المعطف، وإلّا قد يخطئن ويحسبن أننا من أطفال الشمال، وعندما يغادر القطار، لن يقلن لنا حتى: "لترافقك السيدة العذراء".

جميع الذكور قصّوا لهم شعورهم وألبسوهم سراويل قصيرة وجوارب سميكة مع مريول الصحّة والقميص والمعطف. بقي شعري على حاله، فما زلت أحتفظ برأس البطيخة. جدلوا

الضفائر للإناث مع شرائط حمراء وخضراء، وألبسوهنّ الفساتين أو التنانير، وفوق ذلك، المعاطف أيضاً. ثم الأحذية. كل واحد امتلك زوجاً من الأحذية. عندما حان دوري، كان مقاس قدمي قد انتهى ولذا أعطوني زوجاً جديداً ذا لون بني لامع مع الأربطة، لكن أصغر حجماً. "كيف تشعر بها؟ هل أنت مرتاح؟" جرّبت أن أمشي قليلاً إلى الأمام والخلف، كانت ضيقة. "حسناً، حسناً! إنها جيدة" قلت خشية أن يسترجعوها، واحتفظت بها.

أوصونا ونحن مصطفون في الرتل أمام سكة القطار: لا تتوسّخوا، لا تصرخوا، لا تفتحوا النوافذ، لا تطاردوا بعضكم بعضاً، لا تختبئوا، لا تسرقوا أغراض القطار، لا تستبدلوا الأحذية أو السراويل، لا تفكّوا الضفائر. ثم، بما أننا بدأنا نجوع ثانية بعد الخبز، قدموا إلينا شريحتين من الجبن، لكن لا مزيد من الشوكولاتة أبداً. لم يكن القطار مرئياً بعد، والجميع متلهفون. أنا، لكي أتمايز، قلت إن أبي استقل القطار أيضاً عندما ذهب إلى أميركا، ولو أنه انتظرني حتى ولدت، كان يمكننا أن نسافر معاً. أجابت ماريوتشا أنّ أميركا لا يذهبون إليها بالقطار وإنّما بالسفن. "وماذا تعرفين عن أميركا، إذا كان والدك لم يذهب إلى هناك؟" قلت

لها. "أيها الأحمق، الجميع يعرفون أنّ أميركا تقع وراء البحار"، أجابت. ماريوتشا أكبر مني وتقول إنها كانت شاطرة في المدرسة قبل أن يدرك والدتها الموت الملعون وتتركها مع إخوتها وأبيها الإسكافي. لو كانت زاندراليونا هنا كان، بإمكاني سؤالها هل تقع أميركا بالفعل على الجانب الآخر من البحر، لكنها غير موجودة، ولا أمّي أنطونييتا التي لا تعرف هذه الأمور لأن معرفة الأشياء ليست من اهتماماتها. يوجد الشيوعي الأشقر الذي كان يجادل رفاقه داخل المبنى في شارع مِدينا. إنّه يساعد مادّالينا في عدِّنا، نحن الأطفال، ويبدو أنّه لم يعد حزيناً لكونه قريباً منها. ربّما حلّت مادّالينا أخيراً قضيّة الجنوبيين التي أغضبته كثيراً.

القطار من بعيد يشبه ذاك الذي رأيته في متجر الألعاب في شارع ريتيفيليو. كلما اقترب، يصير أكبر حجماً. ثم هائلاً. يختبئ تومّاسينو ورائي خائفاً. لا يدرك أنني خائف أيضاً. تتحقق الفتيات من الأرقام على المعاطف ويقرأن أسماءنا من القائمة. أميريغو سبيرانتسا، تقول إحدى الفتيات عندما يصل دوري. أصعد ثلاث درجات حديدية وأجد نفسي في القطار الذي تعبق فيه رائحة الرطوبة والأماكن المغلقة، مثل Basso باكيوكيا.

من الخارج، بدا كبيراً جداً لكنه ضيّق في الداخل وغير مريح، يشبه المخازن المتراصّة جوار بعضها، التي تفتح وتغلق بمقابض حديدية. لقد صرت هنا الآن وأدركت أن كلّ شيء سار بسرعة كبيرة وأنه ليس بإمكاني العودة حتى لو أردت ذلك. أفكّر في أمّي التي عادت إلى Basso وأشعر بانقباض في بطني. ماريوتشا وتومّاسينو يصعدان خلفي أيضاً. من وجهيهما، يمكن التخمين أنّهما يفكران: "أيتها العذراء، ما الذي فعلته". تواصل الفتيات مناداة الأسماء. شيئاً فشيئاً يمتلئ القطار. ننهض، نجلس، نركض، نروح ونجيء، هناك عِطاش وجياع. في لحظة، يدخل الرفيق ماوريتسيو، ذاك الذي أراد قطع ألستنا وبدلاً من ذلك رسم صورتنا. "اصمتوا، اصمتوا. اجلسوا. الرحلة طويلة"، يقول، لكننا نواصل الشغب حتى أنّ الرفيق ماوريتسيو يكفّ عن الضحك. أظنّ أنه متضايق، وأنهم سيستردون كلّ شيء: القطار، الأحذية، المعاطف... فنحن لا نعرف كيف نحافظ عليها. باكيوكيا محقّة. نحن لا نستحق شيئاً. أجلس على الكرسي الخشبي. ألصق وجهي بالعارضة المخرمشة لعربة القطار وتخزني عيناي من رائحة المقعد الخشبي والزجاج القذر وتفكيري في أمّي.

ثم تناديني ماريوتشا وتومّاسينو: "آميريه، اركض، تعال، انظر!"

أنهض وأتجه إلى النافذة. أشقّ طريقي بين رؤوس الأطفال الذين يمدون أذرعهم للمس أيدي أمهاتهم. تومّاسينو يفسح لي قليلاً فأتمكن من رؤية أمي أيضاً. تبدو أصغر حجماً بين الأخريات. إنها بعيدة بالفعل رغم أنّ القطار لم يتحرك بعد. جوارها تقف أيضاً زاندراليونا التي جاءت لوداعي مع أنها صباحاً كان عليها الذهاب إلى ثلاثينية أحد أقاربها.

عبر النافذة، تمرّر لي أمّي تفاحة صغيرة حمراء ومستديرة. تشبه تفاحة الإعلانات. أحتفظ بها في جيب بنطالي، وأظنّ أنني لن آكلها لشدّة جمالها. تبدو لي قلباً أحمر مثل ذاك الذي رأيته في كنيسة الأمير سانغرو حيث تسللت مرّة مع تومّاسينو. كانت زاندراليونا قد أخبرتني بوجود هياكل عظمية مع العظام والدم والقلب وكل شيء. هو لم يكن يريد المجيء؛ كان يخشى أن يختطفنا الموتى. باكيوكيا تقول دائماً إنه على المرء الخوف من الأحياء لا من الأموات. هكذا أضأنا الشمعة ودخلنا الكنيسة المظلمة دفعةً واحدة لنجد أنفسنا أمام التماثيل التي بدت كأنها مصنوعة من اللحم بدلاً من الحجر. كان هناك

مسيحٌ من الرخام نائمٌ تحت ملاءة، حيث يمكنه أن ينهض في أي لحظة لخفّة الملاءة الحجرية. مشيت بين التماثيل وقلبي ينبض في رأسي، وأخيراً رأيتها. هيكلان عظميان واقفان كأنّما خرجا من اللحم توّاً. رأس الميت أصلع ولامع، الابتسامة بلا أسنان، العظام تخدع خلف شرايين وأوردة حمراء وسوداء، القلب في الوسط، مستدير وأحمر مثل تفاحة الإعلانات. سقطت الشمعة من يدي ووجدنا نفسينا في الظلام. درنا حول بعضنا بعضاً طالبين النجدة دون أن يستجيب لنا أحد. في النهاية، حتى أنا لا أعرف كيف، وجد توماسينو المخرج. لقد كان محقّاً: "الأحياء مخيفون، لكن الموتى لا يمزحون". عندما خرجنا، كان الظلام مخيّماً على الشارع غير أنّ عتمة الليل، مقارنة بحلكة الكنيسة، بدت لي لا شيء. ما زلت أحلم بها أحياناً... الهياكل العظمية للأمير سانغرو.

أراقب أمّي من خلال النافذة. إنها منكمشة على نفسها في الوشاح بصمت. الصمت هو فنّها. ثم يهدر القطار بقوة، أقوى من صوت المعلمة ذات الذقن الحادة الممطوطة عندما تكتشف الصرصور الميت الذي أخفيناه تحت كتاب تعليم الأبجديّة.

عندئذ بدأت الأمهات خارج القطار التلويح بأذرعهنّ. أعتقد أنّهن يودعننا. لكن لا.

جميع الأطفال في القطار يخلعون معاطفهم ويرمونها لأمهاتهم من النافذة، بما في ذلك ماريوتشا وتوماسينو. أقول: "لكن بحق العذراء ماذا تفعلون؟ سيصيبكم النّتن من البرد في شمال إيطاليا". توماسينو يجيب: "كان هذا هو الاتفاق. أن يترك الأطفال المغادرون معاطفهم لإخوتهم الباقين هنا. صحيح أن الشتاء بارد في شمال إيطاليا، لكن حتى هنا لا يكون الجو حارّاً".

"وماذا عنّا؟" أقول.

"الشيوعيون سيعطوننا غيرها؛ إنّهم أغنياء ويمكنهم تحمّل نفقتها"، تقول ماريوتشا وهي ترمي معطفها لوالدها الإسكافي الذي يلبسه حالاً لأحد إخوتها اليتامى الأصغر سنّاً.

أنا لا أعرف ما الذي عليّ فعله. كان ليفيد أخي لويجي قبل. الآن لا. ثم أفكّر أن أمّي يمكنها تحويله إلى سترة سميكة. هكذا أخلع معطفي وأرميه إليها لكنني أحتفظ بالتفاحة. أمي أنطونييتا تتلقف المعطف في الهواء وتنظر إليّ. يبدو لي أنها تبتسم.

تصلنا صرخات الفتيات من المقصورات المجاورة. أبقى مطلّاً من النافذة لمعرفة ما

يجري. مدير المحطة يمشي ذهاباً وإياباً حائراً ما الذي يجب فعله. هل يوقف الرحلة لاسترداد المعاطف، أو ينزلنا جميعاً بسبب احتيالنا... يذهب الرفيق ماوريتسيو للتحدث معه، وفي النهاية، يقررون أن يربطوا عربة تدفئة أخرى بالقطار لزيادة درجة الحرارة.

هكذا، بين صرخات الفتيات وفرار الأمهات مع المعاطف تحت أذرعهنّ وضحكاتنا، نحن الأطفال في القطار، يرفع مدير المحطة الراية ويتحرك القطار أخيراً، ببطء شديد في البداية، ثم أسرع قليلاً. تبقى أمي أنطونييتا في زاوية من المحطة التي تزداد بعداً مع ذراعيها متشابكتين فوق معطفي كأنها تحتضنني بقوّة تحت القصف.

7

”والآن، كيف سيتعرّفون إلينا بعد أن أهدرنا المعاطف؟“ تقول ماريوتشا قلقةً.

”من الوجوه، أليس كذلك؟“ يردّ تومّاسينو.

”نعم، لكن من أين للشيوعيين أن يعرفوا من أنا ومن أنت؟ بالنسبة إليهم نحن جميعاً متشابهون، مثل زنوج أميركا بالنسبة إلينا. جميعنا فقراء، أيّ فرق بيننا؟“

”أظنّ أنهم فعلوا ذلك عن قصد“، يقول الصبي ذو الشعر الأصفر والأسنان الثلاثة المفقودة من فمه، ”هم الذين طلبوا من أمهاتنا أن يستعيدوا المعاطف، وهكذا عندما نصل إلى روسيا لا يستطيعون العثور علينا“.

”وسوف ننتن من البرد هناك“، يقول آخر، قصير وداكن البشرة، يقف جواره. ماريوتشا تنظر إليّ بعينين دامعتين محاولة أن تفهم هل ما يقوله حقيقي.

”لكن هل تعلمون أنهم في روسيا يأكلون الأطفال على الفطور؟“ يقول الأشقر الدَقِم لماريوتشا التي بدأت ترتجف.

"إذاً، أنت سيعيدونك. لديك عظام أكثر من الجلد"، أقول، "ثمّ من أخبركم أننا ذاهبون إلى روسيا؟ سمعت أننا ذاهبون إلى الشمال".

تبدو ماريوتشا أكثر هدوءاً لكن صاحب الشعر الأشقر كالقشّ يتابع: "قالوا أعالي إيطاليا لإقناع الأمهات، لكن الحقيقة أنهم سيأخذوننا إلى سيبيريا ويضعوننا في بيوت مبنية من الجليد، أسرّة من الجليد، طاولات من الجليد، آرائك من الجليد...".

تنهمر دموع ماريوتشا على الثوب الجديد. "نعم"، أتدخل، "هذا يعني أننا سنصنع عصير سلاش لذيذاً بالجليد المجروش. أي طعم تفضّلين ماريوو: الليمون أو القهوة؟"

يدخل الرفيق ماوريتسيو رفقة شخص ضامر وطويل يضع العدسات. كل الأولاد يسخرون منه: "طفَيشة"، "أربع عيون"، "قصب مص".

"اصمتوا يا أطفال!" يصرخ الرفيق ماوريتسيو، "هل تعرفون أنّ هذا الرجل هو من يستحق الشكر لصعودكم إلى القطار؟"

"هذا؟ ومن يكون؟" يسأل القصير الداكن البشرة.

"اسمي غايتانو ماكيارولي، وبالنسبة إلى العمل، أنا أتعامل مع الكتب"، يقول قصب المص

بالإيطالية الفصيحة وبصوت جميل. نحن نخرس. لقد قطعوا ألسنتا حقاً. "لقد نظَّمتُ هذه المبادرة الجميلة مع الرفاق الآخرين من أجلكم فقط...".

"ولماذا؟ ماذا تكسبون من ذلك؟ أنتم لستم أبانا أو أمَّنا"، يسأل القصير الشديد السواد، الوحيد الذي لا يشعر بالرهبة.

"عندما تستدعي الحاجة نحن جميعاً أب وأمّ للمحتاجين. لهذا نأخذكم إلى أشخاص سيعتنون بكم ويعاملونكم كأولادهم، من أجل مصلحتكم".

"ثمّ يحوّلون رؤوسنا إلى بطيخ؟" أسأل بصوت منخفض.

أبو طقيشة لا يسمع، ويلوّح بكلتا يديه لتحيتنا: "رحلة سعيدة أيها الأطفال، كونوا شاطرين واستمتعوا".

بعد خروج الطويل الضامر لا أحد تنفس.

الرفيق ماوريتسيو يجلس وسطنا ويفتح السجلّ الذي يحمله بيده. "بما أنكم أردتم 'إهداء' معاطفكم التي كانت تحمل أسماءكم وألقابكم لأمهاتكم"، يحدّق في عيوننا واحداً واحداً، "الآن يتعين علينا التعارف من جديد. فيما يلي القوائم التي تحتوي على جميع الأطفال، كل عربة على حدة". يريد أن يعرف الاسم والكنية واسم الأب والأم. نجيب كلّ حسب دوره، ويعيدون تثبيت

البطاقة مع الرقم على أكمام قمصاننا. عندما يحين دور الأشقر الدَقِم، يتعيَن على الرفيق ماوريتسيو أن يسأله عن اسمه مرتين وثلاثاً دون جدوى. يتظاهر أنه أصمَ وأبكم. يحاول مخاطبته بكلّ الطرق لعلّه يلتفت: "باسكال، جوزيف، أنطونيو" لكن دون جدوى. في النهاية، ينزعج ويعبر إلى المقصورة المجاورة. "لكن لماذا تتظاهر أنك أصمّ وأبكم؟" يسأل تومّاسينو، "لقد أفقدته صبره، ذلك المسكين". تبدر عن الأشقر ابتسامة شريرة.

"عليّ أن أكون أحمق لأفصح له عن اسمي!" وأومأ بيده كمن يعلّق مظلّة على ذراعه.

"لكن كيف سيتعرفون إليك بعد ذلك؟" تقلق ماريوتشا، "ألا تخشى أنهم لن يعيدوك إلى أمك؟"

"أمي"، يجيب الأشقر، "لقد علّمتني أنّه علينا، نحن المتورطين في التهريب، ألّا نخبر أحداً بأسمائنا أو أسماء أقاربنا أو أماكن إقامتنا، خاصّة الحرّاس. حتى لو كنّا تحت القصف!"

يرسم الأشقر على وجهه ملامح زعيم. نلتزم جميعاً الصمت، هو أيضاً، لكنّني أظنّه خائفاً الآن بعدما تصنّع المكر. عندما نعود، لن يعرفوا لمن يسلمونه. بعد لحظات تدخل فتاة شابة لم أرها



من قبل، تجلس والقائمة بيدها أيضاً، وتبدأ من جديد.

عندما يحين دوري تسألني عن اسمي. "أميريغو سبيرانتسا". "العمر؟" "أكملت سبع سنوات". "أبوك وأمك؟" "أنطونييتا سبيرانتسا". "والدك، ما اسمه، وماذا يعمل؟" "لا أعرف" أجيب محرجاً. "لا تعرف ماذا يعمل والدك؟" تسأل. "لا أعرف هل لدي أب أم لا. البعض يقول نعم، والبعض الآخر لا. أمّي أنطونييتا تقول إنه سافر، وباكيوكيا تقول إنه هرب..." "إذاً، لنكتب أنّه مفقود؟" "هل يمكنك ترك مكانه فارغاً لنضيفه عندما يعود؟" أسأل، فلا تجيب وترفع القلم وتنتقل إلى السطر التالي. "التالي"، تقول.

8

الرحلة طويلة. الصراخ، البكاء، ضحكات لحظة المغادرة، لم أعد أسمعها. أسمع ضجيج القطار الرتيب فقط، وأشمّ رائحة الرطوبة العتيقة الشبيهة بتلك التي كانت في الكنيسة الصغيرة ذات الهياكل العظميّة الحيّة. أنظر إلى الخارج عبر النافذة، أفكّر في مكاني على سرير أمّي، وقهوة كابا إيفيرّو المخبأة تحت الفراش. أفكّر في الشوارع حيث كنت أذهب للتجوّل طوال اليوم لأجمع مِزَق القماش، تحت الشمس والمطر. أفكّر في باكيوكيا التي تنام في هذه اللحظات في Basso مع صورة الملك أبو الشوارب على سلسالها.

أفكّر في زاندراليونا وأشمّ رائحة عجّتها مع البصل. أفكّر في الأزقة التي عشت فيها، إنها أضيق وأقصر من هذا القطار. أفكّر في أبي الذي غادر إلى أميركا. أخي الأكبر لويجي الذي رحل بمرض الربو القصبي وتركني أغادر وحدي.

بين حين وآخر يتراخى رأسي على كتفي، تُغمض عيناي وتختلط الأفكار. معظم المحيطين بي نائمون. أنظر إلى الخارج مجدداً. أرى القمر

يركض فوق الحقول كأنّه يلاعب القطار لعبة المطاردة. أتكوّر على المقعد وأحضن ساقيَ بذراعي. تسيل الدموع على خدّي دافئة ودبقة، ثمّ تنساب إلى فمي مالحةً وتفسد ذكرى طعم الشوكولاتة. توماسينو ينام بوداعة أمامي. هو تحديداً، الذي يخاف من ظلّه، نائم، بينما أنا الذي نزلت إلى المجاري لاصطياد الجرذان آمل أن يتوقف القطار الآن وأن يعيدونا جميعاً. أريد فقط صوت أمّي تقول: "أميريه، تعال، هيّا إلى المنزل!"

فيما كنت على وشك أن أغفو، أسمع ضوضاء تصيب جلدي بالقشعريرة، مثل حكّ الأظفار في قاع الطنجرة. يتوقف القطار فجأة ونسقط جميعاً إلى الأمام، فوق بعضنا بعضاً. أجد نفسي منبطحاً على وجهي. ماريوتشا، التي كانت نائمة، تبدأ البكاء خشية أن يكون ثوبها الجديد قد تمزّق.

"لكن من الذي منح رخصة القيادة لهذا؟" يقول الأشقر.

"ما هذا؟ هل وصلنا؟" يقول توماسينو وهو نصف نائم.

"ليس ممكناً"، يردّ ذاك القصير الأسود، "أمّي نبهتني أننا سنحتاج الليلة كاملة، وغداً أيضاً".

تنطفئ الأضواء ونبقى في الظلام. يصلنا نحيب من بعيد. ربما يضربون أحداً. ثم يخيّم صمت طويل جداً، إلى أن يُسمع صوت، ربما يكون صوت الأشقر، أو ربما شخص آخر أراد استغلال الموقف لجعلنا نموت خوفاً: "تراهنون أنهم سيلقون بنا الآن خارج القطار ويتركوننا في قلب الظلام هنا؟"

"أظنّ أنّ القطار تعطّل"، أقول لأمنح الشجاعة لماريوتشا، ولنفسي أيضاً. لكنّني أفكّر في أن الفاشيين وضعوا المتفجرات تحت السكة لجعلنا نتشظّى في الهواء، كما كانت تقول باكيوكيا. ماريوتشا لا تهدأ وتعاود البكاء. "إمّا أننا سنموت من البرد وإما من الجوع"، يقول صوت آخر.

أضع يديّ على أذنيّ وأغمض عينيّ وأنتظر الانفجار. لكن لا شيء. ربما فكّرت مادّالينا في إفشال التفجير، إنها لهذا السبب تماماً تحمل الميدالية البرونزية، لقد أنقذت جسر حي سانيتا. في الظلام أشعر بأصابع الهياكل العظمية للأمير سانغرو خلف عنقي باردة ومدببة. لذلك أفتح عينيّ وأحرر أذنيّ. يُفتح باب المقصورة على مصراعيه، لا أحد يتكلّم أو يتنفس، نبقى جميعاً متسمّرين.

"من الذي سحب مقبض الإنذار؟" في تلك اللحظة يعود الضوء. مادالينا جادّة وصارمة وقد تغضّن جبينها وبات جزأين من شدّة التوتّر. "القطار ليس مزحة"، تقول وتنظر إلى الأشقر الذي يفهم ويشعر بالإهانة. يبدو لي أنه نادمٌ بعض الشيء لكونه لم يفصح عن اسمه ما سيجعله عرضة للشك عند كلّ أمر. يستأهل.

"لم نسحبها"، يقول تومّاسينو، وهكذا ينقذ المهرّب الدّقم من الورطة.

"كنا جميعاً نائمين"، تتدخل ماريوتشا التي توقفت عن البكاء لأن ثوبها لم يتمزّق.

"حسناً، من فعلها"، تحذّر مادالينا، "عليكم أن تبقوا أيديكم مكانها وألا تلمسوا شيئاً أبداً، وإلا ستمضون يومكم غداً في مركز الشرطة".

"لكن أي قبضة تلك التي توقف القطار؟" يسأل الأشقر بمكر.

"يجب أن أكون حمقاء لأخبرك بذلك!" تجيب مادالينا. هو يفهم ويلتزم الصّمت. "على كلّ حال ابتداء من هذه اللحظة سأبقى هنا للمراقبة. هكذا نتجنب توقفات أخرى خارج البرنامج".

تجلس مادالينا في إحدى الزوايا، وبعد ذلك تعود مبتسمة. إنها لا تبقى أبداً غاضبة لمدة طويلة. ربما لهذا السبب منحوها الميدالية.

9

الجميع نيام باستثنائي. لا أحبّ السكون. في زقاقي دائماً الوقت هو منتصف النهار، حتى في الليل. لا تتوقف الحياة أبداً حتى لو كانت هناك حرب. أنظر من النافذة وأرى الأنقاض فقط. دبابات مقلوبة، حجرات طائرات مدمّرة، مبانٍ نصف منهارة. حطام في كل مكان. أشعر ببطني ينقبض حزناً، مثل ذاك الذي انتابني حين غنّت لي مرّةً أمّي أنطونييتّا أغنية تقول: "نيناوه، نيناوه، هذا الطفل لمن أعطيه ..." وجعلتني أفقد النوم، لأن الطفل يعطونه في البداية للرجل الأسود الذي يحتفظ به لعام كامل، ولكن بعد ذلك حتى الرجل الأسود لم يعد يريده، فيعهد به إلى شخص آخر يهديه إلى آخر بدوره، ثم لا يُفهم ماذا حدث له.

بين فينة وأخرى، يتوقف القطار ويصعد أطفال آخرون، فنبدأ الصراخ والعويل والضحك من جديد، ثمّ يخيّم الصمت لا يخرقه غير ضجيج القطار وانقباض بطني من الحزن. حين كان الحزن يلّم بي كنت أذهب دوماً إلى زاندراليونا. قبل المغادرة وضعت كنوزي في علبة الخياطة القديمة التي أعطتني إياها أمّي أنطونييتّا،

وخبأناها تحت بلاطة في منزلها. تقول باكيوكيا إن زاندراليونا تخبئ دنانيرها هناك، لكن هذا مجرّد حدس كما أعتقد.

يغطّ توماسينو في النوم مرة أخرى، لكنه الآن يهذي. يفتح عينيه كل خمس دقائق، يركل ويلفظ كلمات مبهمة، ثم يغلقهما. إنه يحلم. ربما بعربة فواكه كابايانكا، أفران الشيوعيين، ضربات أمه حين عاد إلى البيت بعد حكاية الجرذان؟ من يدري. إنّه محظوظ على أي حال. إنّه ينام. أن تبصر أحلاماً سيئة خير من أن تعيش كوابيس اليقظة. زاندراليونا تقول إنّه عندما يجافينا النوم علينا ألّا نبحث عنه.

أنهض عن المقعد وأخرج. أمشي في الممر جيئة وذهاباً. أتلصّص على المقطورات الأخرى. الكثير من وجوه الأطفال، واحد فوق الآخر، ينامون بطمأنينة كأنّهم في بيوتهم. أفكّر في أمّي أنطونييتا. كلّ مساء في السرير أفرك قدميَ الباردتين بفخذها فيأتيني التأنيب حالاً: "هل تحسبني مدفأتك؟ أبعد قطع القدّ هذه عنّي". غير أنها بعد ذلك تمسك قدميَ وتدفئهما إصبعاً إصبعاً إلى أن أغفو وأصابع قدميَ بين يديها.

أعاود المشي في الممر للعودة إلى مكاني. لا أدخل. ثمّة مقعد في الممر، أجلس هناك وألصق

وجهي بزجاج النافذة. الظلام حالك في الخارج، لا يمكن رؤية شيء. من يدري أين نحن، كم ابتعدنا عن البيت، كم بقي لنصل حتى إلى حيث لا نعرف. الزجاج بارد ورطب ووجهي صار مبللاً. هذا أفضل، إذا بكيت، لن يلحظ أحد ذلك. لكن مادَالينا تلاحظ. تقترب مني وتعانقني بلطف. ربما جافاها النوم أيضاً.

"لماذا تبكي؟" تقول، "هل تفتقد أمَك؟" أخفي دموعي محتفظاً بعناقها. "لا، لا، أبداً، لا أبكي من أجل أمّي"، أجيب، "إنه الحذاء. الحذاء ضيّق".

"لمَ لا تخلعه الآن بما أننا في الليل؟ هذا أكثر راحة. فالرحلة طويلة جداً".

"شكراً سيدتي. لكن أخشى أن يسرقوه وأعود حافياً، أو أضطر إلى انتعال حذاء شخص آخر. لا أريد أن أمشي بأحذية الآخرين بعد الآن".

من قلب العتمة، يشعّ ضوء يحرق العيون. القطار يخرج من النفق والقمر كبير يصبغ كلّ شيء بالأبيض. الطريق والأشجار والجبال والبيوت. من الأعلى، تتساقط ندف كثيرة، بأحجام مختلفة كبيرة وصغيرة. "إنه الثلج"، أقول وأنا لا أصدّق عينيّ، "الثلج، الثلج!" أكرّر بصوت أعلى وأقوى، لكن لا أحد يستيقظ في مقصورتي، ولا حتى ذو الشعر الأصفر الذي قال إنهم سيضعوننا في بيوت من الجليد. أودّ أن أراه الآن، هو وروسيا. أعاود إلصاق رأسي بالنافذة وأتابع "فتات الخبز" ينهمر ببطء. وهكذا تغمض عيناي أخيراً.

"ريكوتّا ... ريكوتّا".

تأتي ماريوتشا لإيقاظي: "أميريغو! آميريغ... انهض، هناك الكثير من جبن الريكوتّا على الأرض. على الطريق، فوق الأشجار وعلى الجبال! إنها تمطر ريكوتّا!"

انقضى الليل وعبر النافذة تسللت الشمس قليلاً.

"ماريووه، ولكن أيّ بروفولا وريكوتّا؟ إنه الثلج".

"الثلج؟"
"إنه ماء متجمّد...".
"مثل الذي يباع على عربة الدون ميمي؟"
"نوع منه، لكن دون القشطة".
عيناي تذبلان من النعاس. الجو بارد الآن داخل القطار. الأولاد جميعهم يراقبون الأبيض في الخارج صامتين بأفواه فاغرة.
"ألم تروا الثلج من قبل؟" تسأل مادالينا. ماريوتشا تومئ برأسها نافيةً وقد تلبّسها الخجل لاعتقادها أنّه ريكوتّا. يخيّم الصمت لبعض الوقت كأنّ الثلج أعدانا بصمته.
"سيدتي"، يقول الأشقر الدّقم بعد ذلك، "هل سيطعموننا شيئاً حين نصل إلى هناك؟ إنّني أتضوّر جوعاً أكثر ممّا كنت عليه في بيتنا...".
تبتسم مادالينا. إنّها طريقتها في الإجابة عن الأسئلة. تبتسم أولاً ثم تتحدث: "الرفاق في الشمال ينتظروننا من أجل حفلة كبيرة، مع لافتات وفرقة موسيقية والكثير من الطعام".
"إذن هم سعيدون لأننا ذاهبون إليهم؟" أقول.
"ألم يجبروهم؟" تضيف ماريوتشا.
مادالينا تقول لا، وإنهم سعيدون حقاً.
"سعيدون لأننا ذاهبون لنأكل طعامهم؟" يسأل الأشقر الذي لا يصدق ذلك، "لماذا؟"

"من أجل الـ – تضا – من"، تجيب مادالينا.

"مثل الكر – ا – مة؟" أسأل وأنا أتقمص وجه باكيوكيا، لكن دون البصاق من بين الأسنان.

توضح مادالينا أن التضامن مع الآخرين يشبه الكرامة: "إنْ كان لدي اليوم قطعتان من السّلامي، أمنحكَ واحدة، ثم ستمنحني قطعة من جبن الكاتشوتّا إذا كان لديك اثنتان".

إنَّه عمل جيد كما أظن، لكنَّني أفكّر أيضاً أنَّ أولئك في إيطاليا العليا إذا كان لديهم اليوم قطعتان من السلامي ومنحوني إحداهما، فكيف لي أن أعطيهم غداً جبن الكاتشوتّا وأنا حتى الأمس لم أكن أملك حذاءً؟

"لقد ذقت السلامي في إحدى المرات"، يقول تومّاسينو، ويلعق شاربيه لذكرها فقط، "أهداني إياها اللحّام في فوريا...".

"أهداك إيّاها من تلقاء نفسه؟" تغمز ماريوتشا وهي تلكز تومّاسينو وتومئ بأصابعها حركة تنمّ عن النشل.

يضحك تومّاسينو وأنا أغيّر الموضوع لأنّنا دفنّاه معاً. لحسن الحظ مادالينا لا تسمع، فالأولاد الآخرون بدؤوا الصراخ مجدداً. أوسع لنفسي مكاناً أمام النافذة أيضاً وأنظر وراء الشاطئ

المغطى بالثلج. في البداية، لا ألحظ اختلافاً. إنه أملس وثابت ورمادي مثل فراء القطط.

"حتى البحر لم تروه من قبل؟" تسأل مادّالينا، "لا شكّ أنكم تعرفونه جيداً!"

"تقول أمّي أنطونييتّا إن البحر لا فائدة له. إنّه يجلب الكوليرا فقط ويتسبب في الربو القصبي".

"هل هذا صحيح سيدتي؟" تسأل ماريوتشا المرتابة من كل شيء.

"البحر مفيد للاستحمام"، تجيب مادّالينا، "وللسباحة والغطس والترويح عن النفس...".

"وهل سيسمح لنا الشيوعيون في إيطاليا العليا بالغطس؟" تسأل ماريوتشا.

"أجل يا سادة!" تجيب مادّالينا، "لكن عندما يحين الموسم وليس الآن، لأن الطقس بارد".

"أنا لا أجيد السباحة"، يعترف تومّاسينو.

"لكن كيف؟" أسخر منه، "كنت ستذهب في إجازة إلى إسكيا، هل نسيت؟" يشبك تومّاسينو ذراعيه ويستدير إلى الناحية الأخرى.

"إذا ما أخذونا إلى البحر، لأنهم يريدون إغراقنا"، يقول الأشقر. أرى أنه لا يصدّق ذلك وإنّما يقوله ليدفع ماريوتشا إلى البكاء فقط.

"هذه كلّها ثرثرة"، تختصر مادّالينا، "عليكم ألّا تصغوا إليها...".

"ولكن عفواً، هل لديكم أولاد؟" يصرّ الأشقر.
لأوّل مرّة منذ تعرّفت إليها، يكتسي وجه مادالينا بالحزن.
"لكن أيّ أولاد؟"، أدافع عنها، "إنها لا تزال شابة صغيرة".
"لكن لو كان لديكم" يتابع الأشقر، "هل تجعلونهم يركبون القطار، أم لا؟"
"أنت لم تفهم شيئاً!" أردّ عليه، "الأطفال المحتاجون إلى المساعدة فقط يركبون القطار، وليس أولئك الميسورين، وإلا ما معنى التضامن؟"
مادالينا لا تتكلم. تكتفي بهزّ رأسها موافقةً.
"أخبريني الحقيقة"، تسأل ماريوتشا بطريقة خبيثة، "ذلك الشاب الأشقر في المحطة، الذي ساعدك في إحصاء عدد الأطفال... هل هو حبيبك؟"
"أي حبيب!" أتدخل مرة أخرى لأنقذ مادالينا من الحرج، "هو أيضاً شيوعي. رأيته هناك في القسم، في الأعلى، قبل السفر بقليل...".
"وإن يكن. ماذا يعني ذلك؟ ألا يقع الشيوعي في الحبّ أيضاً؟" تصرّ ماريوتشا.
"لكن متى؟" أجيب، "ذاك مشغول بحلّ قضية الجنوب لا بالتفكير في الحبّ...".

"للحبّ وجوه عدّة، ليس ما تفكرون فيه فقط"، تتدخل مادّالينا، "على سبيل المثال، البقاء هنا وسط الكثير من المشاغبين الجامحين أليس حبّاً؟ وأمهاتكنّ اللواتي جعلنكنّ تصعدون القطار للذهاب بعيداً إلى بولونيا وريميني ومودينا... أليس هذا حبّ أيضاً؟"

"ماذا؟ من يرسلك بعيداً يحبك؟"

"أميريه، أحياناً من يتركك تذهب بعيداً يحبك أكثر ممّن يحتفظ بك".

لا أفهم هذا الشيء لكنني لا أعقّب. مادّالينا تقول إنّ عليها تفقّد الأولاد الآخرين، وتذهب. أنا وتومّاسينو وماريوتشا نبدأ لعبة "حجرة، ورقة، مقص" لتمضية الوقت. هكذا، في النهاية، يتباطأ القطار، ثم يقف. تقول الفتيات إنّ علينا الانتظار بهدوء وتهذيب ريثما يحين دورنا للخروج، وألّا نبتعد حين نكون في الشارع، وإلا سنضيع. عندئذ، إذا مضى كلّ منّا بمفرده، كيف سيمكن تحقيق التضامن؟

عندما نصل إلى المحطة نجد فرقة من الموسيقيين ويافطةً بيضاء تقول: "مرحباً بكم أطفال الجنوب"، كما تقرؤها لنا إحدى الفتيات. إنهم هنا لانتظارنا فقط. يبدو كأنه عيد سيدة

القنطرة، لكن دون أطفال بملابس بيضاء يرتمون على الأرض ويصرخون: "يا سيدة القنطرة!"

العازفون يؤدون أغنية تعرفها كل فتيات القطار لأنهنّ كلّ لحظتين أو ثلاث يصرخن: "بيللا تشاو تشاو تشاو"، وعند نهاية الأغنية يرفعن قبضاتهن نحو السماء التي بدت رمادية مع الكثير من الغيوم الرفيعة الطويلة.

ماريوتشا وتومّاسينو يعتقدان أنهن يرفعن قبضاتهنّ ليلتصقن أكثر ببعضهن بعضاً. عندئذ أشرح لهما أنهنّ يؤدين التحية الشيوعية، كما علّمتني زاندراليونا، المختلفة عن التحية الفاشيّة، كما علّمتني باكيوكيا. وفي الحقيقة عندما كانت زاندراليونا وباكيوكيا تلتقيان في الزقاق، كانت كلّ منهما تؤدّي تحيتها كأنّهما تتنافسان في لعبة "حجرة، ورقة، مقص".

أقف في الرتل مع ماريوتشا في حين أن تومّاسينو في الوراء يمسك يد ولد آخر أكبر منه قليلاً.

نعبر وسط الناس الذين يلوّحون بأعلام ثلاثية الألوان. هناك من يبتسم لنا ومن يصفّق ومن يحيّي. ربما يظنون أننا فزنا بشيء ما وجئنا إلى إيطاليا العليا لنسدي معروفاً لهم وليس العكس. بعض السادة، بالقبعات والشوارب، يحملون رايات

حمراء مع دائرة صفراء في الوسط، يغنون أغنية لا أعرفها، ويصرخون بين حين وآخر: "الأ – مَ – مِيَة".

ثم تبدأ الإناث الغناء، هنّ زوجات الرجال ذوي الشوارب والقبعات الذين يحملون الرايات الحمراء مع دائرة صفراء في المنتصف. إنّها الأغنية التي تغلّبت فيها مادالينا على باكيوكيا. تلك التي تتحدث عن نساء لا يخفن حتى لو كنّ نساء، أو ربّما بسبب ذلك بالضبط، لا أدري. الأصوات الآن قوية جداً، والكثيرات منهنّ اغرورقت أعينهنّ بالدموع وهنّ يغنين.

لا أفهم كل الكلمات جيداً، لكن من المؤكّد أن الأمر يتعلّق بالأمهات والأبناء، لأن فتيات القطار وشيوعيات إيطاليا العليا ينظرن إلينا أيضاً ويبتسمن كما لو كنّا جميعاً أبناءهن.

يأخذننا إلى غرفة كبيرة مليئة بالأعلام الثلاثية الألوان والرايات الحمراء. في الوسط ثمّة طاولة طويلة جداً مليئة بخيرات الله: أجبان، لحم خنزير، سلامي، خبز، معكرونة... كدنا نرتمي على الطعام، لكن إحدى الفتيات تنبّهنا: "هناك ما يكفي من الطعام للجميع. لا تتحركوا. سيحصل كلّ منكم على طبق مع أدوات المائدة ومنديل وكأس للماء. ما دمتم هنا لن تشعروا بالجوع". توماسينو

يلكزني ويقول: "بخلاف أنَّ الشيوعيين يأكلون الأطفال. هنا إذا لم يأخذوا حذرهم، نحن سنأكلهم!"

نضع رؤوسنا في الصحون جميعاً، ويخيّم سكونٌ لا يسمع فيه أزيز ذبابة. أنا وماريوتشا وتومَاسينو نجلس متجاورين. قدموا إلينا شريحة من لحم الخنزير الوردي المليء بالبقع البيضاء، وقطعة من الجبن الطري جداً وأخرى قاسية كالحجر، وواحدة تفوح منها نتانة أقدام. نتبادل النظرات مترددين. لا أحد يجرؤ أن يبدأ الأكل رغم الجوع البادي في أعيننا. لحسن الحظ، تدنو مادَالينا.

"ما الخطب الآن؟ هل ذهب جوعكم؟"

"سيدتي، لقد أعطانا هؤلاء الشماليون أشياء قديمة؟ هنا لحم خنزير مليء بالبقع البيضاء، والعفن يغطّي الجبن"، تقول ماريوتشا.

"يريدون تسميمنا بالتأكيد"، يضيف الطفل الأشقر بلا الأسنان الثلاثة.

"ثم أنني إن كنت أريد أن أصاب بالكوليرا، أقول هذا مع الاحترام، أما كنت أكلت المحار في الميناء؟" يقول تومَاسينو.

تأخذ مادَالينا شريحة من لحم الخنزير مع البقع وتحشرها في فمها. تقول إننا يجب أن نعتاد تلك

الأطعمة الجديدة المتميزة: المرتديلا، البارميزان، الجبن الأزرق...

أتشجع وأتناول قطعة صغيرة من شريحة لحم الخنزير مع الفقاعات. ماريوتشا وتومّاسينو يفهمان من تعبير وجهي أنها من الأشياء اللذيذة. يتذوقانها أيضاً ولا يتوقفان عن الأكل بعد ذلك. نأكل كل شيء حتى الجبن الطري وذاك المغطّى بالعفن الأخضر، وفي النهاية الجبن المَلِح والقاسي الذي يلدغ الفم.

"ألا يوجد لديهم موتزاريلّا؟" يستعلم تومّاسينو.

"الموتزاريلّا اذهب وكُلْها في موندراغوني"، تمازحه مادّالينا.

ثم تأتي شابة شيوعية مع عربة مليئة بأكواب تحتوي رغوةً بيضاء.

"ريكوتّا، ريكوتّا!" تقول ماريوتشا فوراً.

"الثلج، الثلج!" يضيف تومّاسينو.

آخذ معلقة صغيرة وأضع كرة من الرغوة البيضاء في فمي. إنها باردة جداً وطعمها مثل الحليب والسكر.

"إنها ريكوتّا بالسكّر!" تصرّ ماريوتشا.

"إنه جليد مبشور مع الحليب!" يقول تومّاسينو.

ماريوتشا تأكل ببطء شديد، وفي النهاية، تترك قليلاً في الكوب.

"ماذا جرى، ألم تعجبك البوظة؟" تقول مادالينا.

"ليس كثيراً..."، تردّ ماريوتشا. لكننا جميعاً ندرك أنها كذبة.

"في هذه الحال، نعطي ما تتركينه لتوماسينو وأميريغو...".

"كلا!" تصرخ ماريوتشا وتنهمر دموعها، "في الحقيقة أردت الاحتفاظ بشيء منها لإخوتي عندما أعود إلى المنزل. أردت أن أخفيها في جيبي".

"لكن البوظة لا يمكن الاحتفاظ بها. إنها تذوب"، تقول مادالينا.

"إذا ذابت كيف سأتمكن من تحقيق التضامن؟"

عند ذلك تخرج مادالينا من حقيبتها خمس حبات سكاكر أو ستاً: "هاكِ، هذه مناسبة للتضامن أكثر، يمكنك الاحتفاظ بها لإخوتك".

تأخذ ماريوتشا حبات السكاكر كما لو كانت ألماساً وتدسّها في جيبها. ثم تأكل آخر ملعقة من البوظة.

11

الفتيات الشيوعيات يجلسننا في صفّ واحد على مقاعد طويلة، ثم يعبرن مع سجل أسود. يقرأن الأرقام التي نحملها على قمصاننا، يسألن عن الاسم والكنية ويكتبنهما في السجل. "أنيكياريكو ماريا؟" تقول إحداهن لماريوتشا التي تومئ بالإيجاب. تعلّق دبّوساً أحمر على صدرها، ثم تتجه إلى تومّاسينو: "سابوريتو تومّاسو؟" "حاضرا!" يجيب وينهض واقفاً. تربط الفتاة حذاءه. تمنحه شارةً أيضاً وتغادر. "أنا اسمي سبيرانتسا" أناديها. تلتفت وتبحث عن رقمي في سجلّها وتكتب شيئاً بجانبه. "والدبّوس؟" أسأل وهي تبتعد. "لم أعد أملك المزيد منها، لكن ستأتي الآن رفيقة أخرى، لا تقلق".

أنتظر، وأنتظر، لكن لا أحد يأتي وأبدأ القلق. في هذه الأثناء، تدخل عائلات إيطاليا العليا. لا يمكن لأحد اختيار أبنائه، تقول أمّي أنطونييتا دائماً عندما أضايقها. ولكن هنا كل شيء مختلف. البعض أتوا جميعاً مع أولادهم. والبعض الآخر بمفردهم، ذكوراً وإناثاً. الأزواج دون أطفال يبدون منفعلين كأنهم أتوا للحصول على ابن حقيقي.

أناس إيطاليا العليا أطول وأضخم منّا، ووجوههم بيضاء متوردة، أعتقد لأنهم تناولوا الكثير من لحم الخنزير المبقّع. ربما أنا أيضاً، مع مرور الوقت، سأصبح هكذا. وعندما يعيدونني إلى منزلي طويلاً وضخماً، ستقول أمي أنطونييتا حتماً: "العشب الضار ينمو"، لأن الإطراء ليس من شيمها.

تعود الفتاة، مع السجلّ الأسود وزوجين شماليين، وتقف أمام طفلة تجلس بعيداً منّي ثلاثة أمكنة، بشعر طويل وعيون زرقاء. تُؤخذ فوراً. لم يقترب أحد مني بعد، ربما لأن رأسي لا يزال كالبطيخة. الزوجان الشماليان يصطحبان الطفلة الشقراء بيدها ويذهبون معاً.

بعد ذلك تقترب الفتاة من امرأة مكتنزة ذات شعر أحمر. تتجولان وتتجولان وتتوقفان أمام طفلتين صغيرتين بضفائر كستنائية، موجودتين في الصف المقابل لصفي تماماً. أظنّ أنهما شقيقتان فهما متشابهتان. في الحقيقة، تمسك السيدة الحمراء بكلتيهما، كلّ واحدةٍ بيد، وتأخذهما.

أنا أتشبث بماريوتشا وتومّاسينو: "دعنا نتظاهر بأننا إخوة، هكذا يأخذوننا معاً"، أقول. "آميريه، هؤلاء من الشمال وليسوا عمياناً. هل تعتقد أنهم

لا يرون أنك أحمر وأنا أسمر وماريوتشا شعرها قصير جداً وأصفر كالقش؟ أخبرني الآن كيف يمكن أن نكون إخوة؟".

توماسينو على حق. لم أعد أفهم شيئاً أبداً. الأولاد الآخرون يغادرون مع آبائهم الجدد ونحن بعكسهم باقون هنا. لا نروق لأحد: الأسود الداكن، والأحمر الماكر، والمخلوقة ذات الشعر القصير. الغرفة التي تفرغ رويداً رويداً تصبح أكبر وأكثر برودة. كل ضجيج، حتى لو كان ضئيلاً، يبدو بقوّة الرعد. أتحرك على المقعد وتفلت مني ضرطة. أودّ لو أختفي خجلاً. أنا وماريوتشا وتوماسينو لم تعد لدينا الشجاعة للتلفّظ بكلمة. لذلك نتبادل الإشارات. توماسينو يسحب سبابته والإبهام من قبضته بشكل المسدس، ثم يحرك معصمه أولاً إلى اليمين ثم اليسار. "لا يوجد مكان لنا". ماريوتشا ترفع وتخفض يدها المضمومة على شكل كأس. "لكن ما الذي جعلنا نأتي إلى هنا؟" أرفع كتفيّ وأدفع يديّ خارجاً: "وما أدراني؟" عندذاك يرفع توماسينو حاجبيه ويدير راحة كفّه نحوي: "لكن أنت ألم تكن نوبل؟" أجل، أجل، كنت نوبل في زقاقنا، ولكن هنا في الشمال لم أعد أحداً، أود أن أقول، ولكن لا توجد إيماءات

ولذلك استنشق الهواء من أنفي وأزفره من فمي، مثلما يفعل كابا إيفيرّو مع دخان السيجارة.

مادّالينا تنظر إلينا من بعيد، وتبدأ أيضاً لغة الإيماءات. تدفع الهواء بيدها المفتوحة: "انتظروا، انتظروا، سيحين دوركم أيضاً". أنا أستغرق في التفكير في وجه أمّي حين سيرجعونني بعد أن لم يأخذني أحد، "عرّفتهم بنفسك أيضاً في إيطاليا العليا؟" ستقول لي، لأن العزاء ليس من شيمها.

أخيراً يقترب زوجان برفقة واحدة من الفتيات ويتوقفون. هي ترتدي منديلاً مربوطاً بشعرها الذي يبدو من تحته أسود حالكاً مثل شعر أمّي. ليست طويلة ولا بدينة وبشرتها سمراء. تمعن النظر فينا نحن الثلاثة. أنا أقوّم ظهري وأمسّد شعر رأسي. تبقي السيدة معطفها مفتوحاً وتحته فستان بأزهار حمراء. "أمي لديها فستان توأم لفستانك، لكنها تستعمله في المناسبات فقط"، أحاول تملّقها. هي لا تفهم وتستدير برأسها فجأة نحو الفتاة، مثل الدجاجة التي امتلكتها باكيوكيا مرّة. "الفستان..."، أكرّر، لكن أقلّ ثقة من السابق. تتأبط الفتاة ذراعها وتقول لها شيئاً بصوت خافت ثمّ تصحبها نحو مجموعة أخرى من الأطفال.

توماسينو وماريوتشا يحدّقان فيّ، ولكن لا أملك الشجاعة لأرفع ناظري عن رباط حذائي البني.

قبل السفر كنت أظنّ أنّني بحذاء جديد يمكنني الذهاب حيثما أشاء. بدلاً من ذلك حذائي ضيق وأنا لا أزال هنا. لا أحد يريدني.

تنظر مادالينا إلينا من الجانب الآخر من الصالة، ثم تدنو من شابتين وتشير إلينا. تذهب الشابتان عبر الغرفة وتتحدثان إلى هذا وذاك. هكذا يصل في النهاية زوجان شابان في مقتبل العمر مع رجل ذي شارب أشهب. الزوج والزوجة يبتسمان لماريوتشا. الزوجة الشابة الشقراء تمد يدها وتداعب شعر ماريوتشا القصير جداً ويبدو عليها الحزن كأنّها كانت السبب في جزّ شعرها. تنظر إلى زوجها وتجلس القرفصاء أمام ماريوتشا. "هل تريدين المجيء إلى منزلنا؟" ماريوتشا لا تعرف ماذا تقول. أنا ألكزها بمرفقي، لأنها إن لم تتحدث، فسيظن هؤلاء أنها بكماء، إضافة إلى كونها بلا شعر، وعندئذ لن يأخذها أحد. تومئ برأسها عندئذ.

"ما اسمك؟" تسأل الزوجة، وتضع يديها على كتفيها.

"ماريا"، تجيب ماريوتشا لتبدو إيطالية أكثر، وتخفي يديها خلف ظهرها.

"ماريا، يا له من اسم جميل! خذي يا ماريا، هذه لك!" وتضع أمامها علبة من الألمنيوم تحوي بسكويتاً وسكاكر وسواراً من الخرز.

تبقي ماريوتشا يديها خلف ظهرها ولا تتكلّم. تشعر السيدة بخيبة أمل. "ألا تحبّين السكاكر، ماريا؟ خذيها، إنها لك...".

تتشجع ماريا وتقول: "لا أستطيع سيدتي. أخبروني أنني إن أخرجت يدي، فسيقطعها أولئك، وعندئذ كيف يمكنني مساعدة أبي الإسكافيّ؟"

تتبادل السيدة وزوجها النظرات. ثم تمسك يدي ماريوتشا المشبوكتين خلف ظهرها وتضغطهما بين يديها. "يجب ألا تخافي يا ابنتي، يداك الجميلتان هاتان في أمان".

بمجرد أن تسمع كلمة "يا ابنتي"، تمدّ ماريوتشا يدها وتأخذ العلبة.

"شكراً"، تقول، "لكن لماذا هذه الهدايا؟ إنه ليس عيد اسمي؟"

يضيّق الاثنان عيونهما ويرفعان حاجبيهما. في رأيي هما لم يفهما ما قالته. لحسن الحظ، تقترب مادّالينا وتوضح أن ماريوتشا معتادة تلقي الهدايا في يوم عيد اسمها فقط.

ماريوتشا كتلةً من الإحراج. تحشر يدها مجدداً في يد السيدة الشابة خشية أن تغيّر رأيها وتتركها هنا.

لكنها لم تغيّر رأيها. بالعكس، كانت تشعر بسعادة غامرة. "سترين أنني سأقدّم إليك الكثير من الهدايا. سأنسيكِ حتى موعد عيد اسمك، يا ابنتي".

أنا لا أفهم هذا الشيء عن حلول عيد الاسم، ولا حتى ماريوتشا التي بغية الأمان ما زالت في الواقع متشبثة بيد السيدة اللطيفة. في رأيي هي تذكّرها بالمرحومة أمها، السلام لروحها. من يدري؟ ما حدث أنها قالت "باي باي" وذهبت معها. وبقينا، أنا وتومّاسينو، وحدنا في الغرفة الكبيرة.

السيد ذو الشارب الأشهب، الذي كان قد وصل مع الزوجين الشابين، يدنو من تومّاسينو ويمدّ يده نحوه: "أنا ليبيرو، تسرني معرفتك"، يقول كأنه يريد السخرية منه. "أنا أيضاً حرّ..." [11]، يجيب تومّاسينو. يخرج يده ويصافحه. ذو الشارب لا يفهم لكنه يواصل على كلّ حال: "هل يرغب هذا الفتى الأسمر أن يأتي معي؟"

11 ليبيرو Libero اسم شائع يعني حرّ بالإيطالية.

"هل هناك الكثير من العمل؟" يستعلم تومّاسينو.

"أبداً. لديّ سيارتي الخاصة. هنا في الخارج. الطريق برمّته سيستغرق نصف ساعة".

"سيارة؟ هل تعملون سائقاً؟"

"لكن هيّا! هذا الفتى يحب المزاح، لقد فهمت ذلك فوراً. إنه يتمتع بحسّ الفكاهة. تعالَ معي، جينا تنتظرنا مع طبق يتصاعد منه البخار على الطاولة". تومّاسينو، عندما يسمع كلمات "طبق"، "طاولة"، "بخار"، لا يتردّد لحظة، ينطلق إلى الخارج مثل الحنكليس.

"وداعاً آميريةِ، حظاً سعيداً".

"أراك عن قريب، تومّاسينو، اعتنِ بنفسك...".

12

لقد ذهب توماسينو أيضاً ووجدت نفسي وحيداً على المقعد الخشبي بالحذاء الضيق والحزن يتسبب في انقباض بطني.

أضغط بأصابعي على عينيّ لإيقاف الدموع. لمّا كنت مع جميع الأولاد في القطار، كان ثمّة من يضحك ومن يبكي ومن يركض. كنت أشعر أنني قويّ مثل أبي الأميركي. حين كانت ماريوتشا وتوماسينو يموتان من الخوف كنت أتقمّص دور القويّ. كنت أتكلّم وأمزح. كنت لا أزال نوبل. لكنني الآن أشعر بما شعرت به في ذلك اليوم عندما كنت آكل كعكة تارالّو إنتسونيا بالفلفل في ميرجيلّينا. فجأة شعرت بألم في فمي ووجدت سناً في يدي. هرعت إلى أمّي أنطونييتّا، لكنها كانت لا تزال في الداخل مع كابا إيفيزو ولا يمكنها الإصغاء إليّ، وعندئذ قصدتُ زاندراليونا التي أجلستني وحضّرت الماء مع القرص الفوّار والليمون الذي يطهّر كل شيء، وشرحت لي أن الأسنان، في لحظة معينة، تسقط واحدة تلو الأخرى، تماماً كما نبتت، ثم تعود وتنمو من جديد.

هذه هي. أشعر الآن كأنني سنّ سقط من مكانه. مكاني، حيث كنت قبل، بقي ثقباً فارغاً، ولا يزال السنّ الجديد غير مرئي.

أبحث بعيني عن السيدة ذات الفستان بالورود الحمراء، فربما تكون قد غيّرت رأيها في هذه الأثناء وعادت لتأخذني. لعلّها أرادت أن ترى كل الأطفال أولاً ثم تختار بعد ذلك. كما تقول زاندراليونا دائماً عندما نذهب لشراء الفاكهة: "لا تتوقف أبداً عند أوّل دكّان!" وبالفعل، كنا نمرّ على جميع بائعي الخضار في الحي للتأكد مَنْ منهم لديه بضاعة طازجة. كانت زاندراليونا تقترب من قفص البِطّيخ، تتفحّص، تشمّ، ثم تضغط بسبابتها وإبهامها على القشرة للتأكد هل البطيخة غير ناضجة. ربّما يتبعون الإجراء نفسه مع الأولاد هنا. يريدون فحصنا للتأكد هل نحن أصحاء من الداخل أو مرضى.

في هذه الأثناء، كانت السيدة ذات الفستان بالورود الحمراء وزوجها قد جالا في جميع أنحاء الغرفة مع الشابة التي تحمل السجلّ الأسود. يبدو أنهم يبحثون عن شخص ما. أسوّي جلستي مباشرةً على الكرسي من جديد، لكن هذه المرّة أكتم نفسي ولا أنبس بكلمة. أنظر إليها. لا تشبه أمي. بدت لي كذلك فقط لأنها أيضاً لا تبتسم.

أظنّهما متجهان نحو المخرج، ربّما عدلا عن رأيهما ولم يعثرا على الفاكهة الجيّدة. لكن الشابة التي تحمل السجل الأسود تقودهما، بدلاً من ذلك، نحو زاوية قصيّة وتقف أمام الأشقر الدَقِم. كنت أظنّ أنني بقيت وحدي هنا. لم أكن ألحظه قبل. من بعيد، ألمح الشابّة تدنو منه لتقرأ الرقم على قميصه. هو لا ينظر حتى إلى وجهها. إنّه يحدّق في أظفاره التي عادت سوداء كما كانت قبل الاستحمام. زوج السيدة السمراء يقول له شيئاً وهو لا يجيب. يحرّك رأسه فقط إلى الأعلى والأسفل. يبدو كأنه يسدي معروفاً إليهم. ثم ينهض، وقبل أن يتبعهم نحو المخرج، يلتفت نحوي ويضحك بلؤم، كأنه يقول: "على أي حال، لقد أخذوني حتى لو لم أخبرهم اسمي، ولم يأخذوك".

يا للصفقة الرائعة التي أنجزوها! لو كانت زاندراليونا هنا، لحصلت على تلك البطيخة الجميلة... لكن، والحق يقال، لقد كان مصيباً. أنا من تمّ تجاهلي فقط.

مادّالينا في الجانب الآخر من الغرفة تتحدث مع سيدة ترتدي تنورة رمادية وقميصاً أبيض ومعطفاً. لا بدّ أنّها من ستعيد الأطفال المتبقين، لأنها تحمل دبّوساً مع علم الشيوعيين على

صدرها، وملامحها صارمة جداً. شعرها أشقر، لكن ليس كشعر زاندراليونا، بل الأصفر الأكثر رهافة. مادّالينا تلمس كتفها وتتحدث بصوت خافت. السيدة تصغي ولا تتحرك، حتى أنها لا تلتفت عندما تشير مادّالينا نحوي. ثم تخفض رأسها مرات عدة، كأنها تقول: "أجل، أجل، حسناً، سوف أعتني به". تدنوان منّي. أنا أرتب سترتي وأنهض واقفاً.

"اسمي دِرنا"، تقول.

"أميريغو سبيرانتسا" أردّ وأمدّ يدي كما رأيت توماسينو يفعل مع الرجل ذي الشارب الأشهب. هي تشدّ على يدي، لكن برفق.

السيدة لا تحب الكلام، ما يعني أنها على عجلة من أمرها لتعيدني إلى المنزل. مادّالينا تقبّل جبيني وتودّعني: "انتبه آميريه، أتركك في أيدٍ أمينة".

"دعنا نذهب يا بني، فالوقت متأخر، وإلّا سينتهي بنا الأمر إلى فقدان الحافلة"، تقول السيدة، ثم تمسكني من ذراعي وتسحبني خلفها. نخرج بسرعة من الغرفة، أنا وهي، مثل لصّين يفرّان قبل أن يقبض عليهما الحرّاس. نسير جنباً إلى جنب بالخطوات نفسها، لا سريعة ولا بطيئة.

ونخرج من المحطّة إلى ساحة كبيرة من الطوب الأحمر مليئة بالأشجار.

"أين نحن؟" أسأل وأنا في حيرة من أمري.

"هذه بولونيا. إنها مدينة جميلة، لكن يجب علينا الذهاب إلى المنزل".

"هل ستأخذينني إلى البيت، سيدتي؟" أسألها.

"بالطبع، يا بني".

"لكن أليس علينا أن نأخذ القطار؟"

"الحافلة أسرع".

"فلنذهب" أقول.

في موقف الحافلة، أبدأ أرتجف. "هل تشعر بالبرد؟" تقول. أنا أشعر بقشعريرة في جميع أنحاء جسدي، لكن لا أعرف هل هي بسبب البرد أم الخوف. تفتح السيدة معطفها، توسّعه وتلفّني فيه. "مع هذا الصقيع وهذه الرطوبة يرسلونهم إلينا دون معاطف، يا إله الخير...". لا أقول شيئاً عن المعاطف التي رُميت من النوافذ، ولا عن الأمهات اللواتي ألبسنها لأولادهنّ الآخرين.

أفكّر في أيّ تعبير سيكتسي وجه أمي حين تراني أعود ثانية كالمنبوذ من السوق. أدسّ يديّ في جيوب السترة وأنتبه إلى أن التفاحة التي أعطتني إياها عند المغادرة لا تزال هناك. أخرجها. لكن لا أستطيع أكلها لأن معدتي منقبضة.

”تذكرة كاملة وأخرى مخفَضة“، تقول السيدة لقاطع التذاكر عندما تصل الحافلة. نصعد على متنها ونجلس متجاورين. الحذاء الجديد يؤلمني كأنني أنتعله منذ عام لا يوم واحد فقط. تنطلق الحافلة وقد حلَ الظلام وعيناي مسبلتان من الإرهاق. أخلع حذائي خفية قبل أن أغفو، وأرميه تحت المقعد، ما نفعه الآن؟ حافياً غادرت، وحافياً أعود.

الجزء الثاني

13

عندما أفتح عينيَ، تصدمني العتمة. أمدّ قدميَ لألصقهما بساقي أمي. أبحث عن خيط الضوء الذي ينسل دوماً في الصباح عبر الأبجورات نصف المغلقة، لكن لا شيء. أجلس في منتصف السرير الفارغ والسواد يخيّم على كلّ شيء. أنهض. الأرض شديدة البرودة. أمدّ ذراعيَ بحثاً عن الباب. أرتطم بمقدّمة حافة ما، فأجلس على الأرض ضاغطاً يديَ على ركبتي لأطرد الألم. "ماما، ماما"، أصرخ. لا أحد يجيب. ثمّة صمت لا يشبه صمت زقاقي. "ماما"، أقول من جديد ولكن بصوت منخفض. الظلام يلفّني من كل ناحية ولست متأكداً هل كنت نائماً أو أحلم. قلبي يخفق بسرعة ولا أتذكر أي شيء. كنت في الحافلة مع السيدة الشقراء التي كان عليها أن تعيدني إلى منزلي. يجب أن أكون غفوت واستيقظت في هذا السرير المجهول.

أسمع جلبةً في الخارج. تقترب أكثر. يُفتح الباب، يدخل ضوء خافت. ليست أمي أنطونييتا بل هي، تلك السيدة. "هل رأيت كابوساً؟" بدت

أقلّ شيوعية دون التنورة الرمادية والقميص الأبيض.

"لا أعرف. لا أتذكّر". "أتريد كوباً من الماء؟ أنا ذاهبة إلى المطبخ...". لا أجيب. هي تشبك ذراعيها على صدرها، تفرك كتفيها من البرد وتخرج. "سيدتي"، أناديها. "لكن هل جلبتموني إلى روسيا؟" هي تفرد ذراعيها وتجعل صوتها خشناً.

"إلى روسيا، يا للولد المسكين! لكن ماذا حكوا لكم هناك؟ وأيّ كوابيس؟ هذه قصص لا يجب إغفالها!"

أظن أنني أغضبتها، حتى لو لم أرَ وجهها في الظلام. تقترب السيدة منّي وتلمس خدّي بيدها. إنها باردة قليلاً.

"أنت في مودينا، لا روسيا، بين أشخاص يحبونك، لقد وجدت بيتاً. ثِقْ بي".

هذا ليس بيتي. ثم إنّ أمي تقول إنه لا يجب الوثوق بأي شخص، أفكّر، ولا أقول شيئاً.

"سأحضر إليك الماء"، تقول.

"سيدتي..."، أتمتم وهي على وشك أن تختفي في العتمة.

"نعم يا بني. لكن يجب أن تناديني دِرنا، لقد أخبرتك ذلك...".

"لا تذهبي. أنا خائف...".
"سأترك الباب مفتوحاً فيدخل الضوء"، ثم تختفي.
أعود وحدي في الغرفة من جديد. هي مظلمة وسيّان إن فتحت عينيَ أو أغمضتهما. بعد لحظات تعود السيدة مع الماء. أشرب ببطء برشفات صغيرة جداً كونها شديدة البرودة.
"اشرب بهدوء، يا بني. أتحسب أننا سمّمنا الآبار. هل قالوا لك هذا أيضاً؟" تقول بانزعاج. "لا، لا، أرجوك"، أجيب حالاً لئلا أغضبها، "آسف، إنه ذنب أمّي التي تقول لي دائماً: اشرب ببطء لكيلا يغمى عليك!"
تبدو السيدة آسفة. ربما تظن أنها تركت انطباعاً سيئاً. "آسفة يا بني"، تقول بصوت أكثر نعومة، "لكن معي لستَ بأفضل حال، فأنا حقّاً لا أفهم الأطفال إطلاقاً. ليس لديّ أولاد. روزا قريبتي لديها ثلاثة، هي جيّدة في هذا".
"لا تقلقوا سيدتي، لم يحدث شيء. أمي لديها اثنان، ورغم ذلك، فالأولاد ليسوا من مهاراتها".
"آه، إذاً، لديك أخ؟"
"لا سيدتي، أنا ابن وحيد".
السيدة لا تقول شيئاً. ربما لأنها لا تزال مستاءة بسبب الماء المسموم.

"غداً صباحاً أعرّفك على أبناء روزا. الأطفال يجب أن يبقوا مع الأطفال لا مع 'السيدات'، كما تقول".

أشعر بالخجل لأنني لم أنجح بعد بمناداتها باسمها.

"ستحبهم. هم في مثل سنّك تقريباً. لكن كم عمرك؟ لم أسألك حتى... أترى أيّ استقبال لطيف هيأت لك؟"

السيدة تعتذر مني، فيما يجب عليّ الاعتذار منها لبقائي هنا في بيتها، في سريرها، أوقظها ليلة بعد ليلة. "سأكون في الثامنة الشهر المقبل"، أجيب، "على أي حال، أنا لا أخاف من العتمة. مرّة بقيت محبوساً في الكنيسة مع الهياكل العظمية الحيّة!"

"أنت طفل شجاع، طوبى لك. لا تخاف من أي شيء".

"للحقيقة هناك شيء واحد".

"أن آخذك إلى روسيا؟"

"لا، سيدتي. أنا لم أصدّق أبداً قصّة روسيا...".

"أنا كنت في روسيا حقاً، مع رفاق الحزب".

"أنا لم أسافر أبداً مع رفاقي، إنها المرة الأولى. وهذا هو السبب في أنني خائف".

"إنه أمر طبيعي. كلّ هذه الأخبار...".

"لا سيدتي. الحقيقة أنني لم أعتد النوم بمفردي. في بيتنا هناك سرير واحد، لي ولأمّي ولقهوة كابا إيفيزو، قبل أن يعتقله الحرّاس. ولكن لا تخبروا أحداً بذلك قبل أن يصل الخبر إلى أمّي. إنّه سرّ".

تجلس قربي. عطرها مختلف عن عطر أمي. إنه أكثر عذوبة. "سأخبرك سرّاً أيضاً. عندما طلب العمدة إليّ أن آخذ طفلاً رفضت. كنت خائفة".

"تخافين من الأطفال؟"

"لا أعرف كيف أرعاهم. لديّ معرفة بالسياسة، أعرف العمل، والقليل من اللاتينية. أمّا عن الأطفال، فلا أعرف شيئاً"، تقول ونظرها معلّق في نقطة في الحائط، مثلما تفعل أمّي دوماً حين تتحدث بمفردها، "بمرور السنين أصبحت فظّة بعض الشيء".

"لكنك أخذتني بعد ذلك".

"ذهبت إلى المحطة للمساعدة والتحقق من أن كل شيء يسير على ما يرام. لكن الرفيقة كريسكولو أخبرتني بوجود مشكلة مع الزوجين اللذين تم اختيارهما لاستضافتك. الزوجة الحامل أنجبت قبل الأوان، ولم يحضر أحد لاصطحابك".

"لهذا بقيت وحدي!"

"عندما رأيتك وحيداً على ذلك المقعد، مع هذا الشعر الأحمر الجميل وكلّ هذا النمش على وجهك الصغير، قررت اصطحابك معي. لا أعرف هل هي فكرة جيدة. ربما كنت تفضّل عائلة حقيقية؟"

"لا أعرف. لم أحصل حتى الآن، من الأشياء المفضلة، سوى على أمّي".

تداعب يدي. أصابعها باردة ومتشققة قليلاً. إنّها تقريباً لا تبتسم، لكنّها رغبت في أن تصحبني معها.

"ظننتُ أنّني بقيت الأخير لأنّ أحداً لم يردني".

"لا، يا بني، كل شيء كان منظّماً جيداً. عملنا أسابيع من أجل ذلك. لكل طفل منزل".

"إذاً، لم يكونوا ينتقوننا وفق ذوقهم؟"

"بالتأكيد لا. لم يكن سوق خضار".

أخجل لأنني فكّرت في هذا تحديداً.

"الآن عليّ أن أنام. لديّ عمل غداً. سأبقى جوارك لبعض الوقت. هل يروقك هذا؟"

تستلقي السيدة. لا أعرف هل هذا جيد، لكنني أفسح لها مكاناً على الوسادة. شعرها يلامس وجهي، ناعمٌ كالقطن.

"هل أغني لك تهويدة؟" التهويدات تشعرني بالانقباض في بطني، لكنّني لا أخبرها بذلك لكيلا أغضبها مرة أخرى. "نعم"، أقول بعينين

مغمضتين وقدمي ملتصقة بساقها، وأتمنى ألّا تكون عن ذاك الطفل والرجل الأسود الذي يحتفظ به لعام، وإلا لن أقاوم البكاء، فيحملونني غداً على متن القطار ويعيدوني إلى البيت. السيدة تفكّر قليلاً ثم تبدأ غناء الأغنية التي سمعتها عندما وصلنا إلى المحطة، حيث يرددون كلّ لحظتين: "بيللا تشاو، تشاو، تشاو".

عندما تنتهي أصمت لبعض الوقت ثم أسأل: "سيدتي، تزعجكِ الأقدام الباردة على ساقيك؟"

"أبداً يا بني".

وأخيراً، شيئاً فشيئاً أغفو.

14

”آميرية، أميريغو، استيقظ، أخوك لويجي على وشك الوصول. انهض بسرعة من السرير، إنّه مكانه“، بعينين مغمضتين أسألها، ”وماذا عني؟ أين أنام؟“ ”أنتَ؟ ابقَ الآن في الأعلى، لدى السيدة...“.

أفتح عينيّ وقد حلّ الصباح. من النافذة مقابل السرير، تُرى حقول بنيّة، وأغصان الأشجار العارية من البرد، مع أربع ورقات متيبسة في قمّتها. لا منازل أخرى. لا أحد يمرّ. ولا يُسمع أي صوت.

السيدة في المطبخ عند نهاية الممر. أراقبها من الخلف تعدّ الطعام وتستمع للمذياع الذي رأيته فقط في بيوت السيدات اللواتي كنّ في بعض الأحيان يمنحنني الألبسة المستعملة. على الطاولة كوب من الحليب، خبز، مرطبان من مربّى أحمر، زبدة، قطعة كبيرة من الجبن. من يدري هل وجد تومَاسينو كل هذه النِعَم في بيت الرجل ذي الشارب. ثمّ: سكين وشوكة وملعقة وفنجان وصحون متشابهة، كلّها باللون نفسه.

من جديد هي ترتدي القميص الأبيض والتنورة الرمادية. لم ترني بعد. أرغب في مناداتها لكنني

محرج. لا تبدو كما كانت أمس. من المذياع، تُسمع كلماتٌ يقولها رجل يتحدث بسرعة: أطفال، ضيافة، قطار، أمراض، الحزب الشيوعي، الجنوب، بؤس... إنهم يتحدثون عنّي. تتوقف السيدة عن تقطيع الخبز لتصغي، وتزفر كل الهواء دفعة واحدة، كما كان يفعل كابا إيفيرّو لكن دون حلقات الدخان، ثم تعاود تقطيع الخبز.

بعد لحظات تستدير وترتسم الدهشة على وجهها: "آه، أنت هنا؟" "لقد دخلت للتوّ". "لم أسمعك. هل أنت جائع؟ لقد حضّرت شيئاً، لا أعرف هل تحبه". "أنا أحب كلّ شيء"، أجيب. نأكل معاً بصمت. في الليل فقط تحكي السيدة كثيراً، في النهار لا. لكنني معتاد هذا، أمّي أنطونييتا أيضاً لا تحب الثرثرة خاصة في الصباح الباكر.

عندما أنتهي، تقول السيدة إن عليها الذهاب إلى العمل وإنها ستأخذني إلى منزل قريبتها روزا، تلك التي لديها أولاد، ثم تأتي لاصطحابي عندما تنتهي. أنا أوافق، ولكن يعود بطني إلى الانقباض حزناً. أمّي أنطونييتا أعطتني لمادالينا، مادالينا سلّمتني للسيدة دِرنا، دِرنا ترسلني إلى بيت ابنة عمها روزا التي لا أعرف لمن ستسلمني. كما في تهويدة الرجل الأسود.

أعود مع السيدة إلى الغرفة حيث نمت. من النافذة، لم يعد بالإمكان رؤية السماء ولا الحقول ولا الأشجار. أحاول تنظيف الزجاج بيدي دون جدوى. الزجاج ليس متسخاً؛ إنه الجو في الخارج حيث غشاوة من الدخان تحجب كلّ شيء. أجلس على حافة السرير. "هل تحتاج مساعدتي لارتداء ملابسك؟" تسأل. لا أرى ملابسي التي وصلت بها. لكن تفاحة أمّي أنطونييتا التي كانت في جيبي موجودة على طاولة المكتب. "سأرتديها بنفسي، شكراً"، أجيب.

تخرج السيدة الملابس من خزانة خشبية داكنة. كنزات صوفية، سراويل وقمصان، كانت للابن الأكبر لروزا والآن هي لي. "تبدو جديدة لي"، أقول. يوجد فوق الطاولة قلم وبعض الدفاتر. تقول إنّ عليّ الذهاب إلى المدرسة. "مرة أخرى؟ لقد ارتدت المدرسة من قبل!" أشكو. "عليك أن تذهب مرة أخرى. كلّ يوم، لا أحسب أنك تعرف كل شيء!" "هذا صحيح، لا أحد يولد متعلماً"، أجيب، ونضحك معاً للمرّة الأولى.

أنظر إلى المرآة بالملابس الجديدة وأرى شخصاً يشبهني لكنه ليس أنا. السيدة تلبسني المعطف والقبعة وتقول: "انتظر"، وتذهب إلى الغرفة الأخرى. تعود حاملة بيدها دبوساً أحمر مع الدائرة

الصفراء والمطرقة، يشبه ذاك الذي تضعه على صدرها. تجلس قربي وتغرس الدبوس فوق المعطف. إنه التصميم نفسه الذي رأيته على رايات الشيوعيين في مبنى شارع مَدِينا. هذا يعني أنهم جعلوني شيوعياً أيضاً.

من يدري هل الشاب الأشقر حلّ مسألة الجنوب تلك. يخطر على بالي بين حين وآخر. "هل نحن مستعدون؟" تسأل وتلمس النمش على وجهي برؤوس أصابعها. "نعم سيدتي... أقصد... أريد أن أقول... دِرنا". يفصح وجهها عن تعبير يشبه لو أنَّها رأت رقم اليانصيب الرابح مطابقاً لأرقام بطاقتها الخمس.

هكذا نمضي، يداً بيد. خطواتها ليست بسرعة خطوات أمي أنطونييتّا. هي لا تتركني في الخلف. أو أنني أمشي بسرعة أكبر خشية أن أبقى وحدي في هذا الجو الرمادي.

15

”إنهم يدخنون كثيراً هنا! لا يمكنك حتى رؤية الطريق“.

”هذا ليس دخاناً، إنه الضباب“، تقول، ”هل يخيفك؟“

”لا. أنا أحب الأشياء التي تكون مخفيّة في البداية ثمّ تظهر فجأة بعد ذلك“.

”هذا منزل قريبتي روزا. حين يكون الطقس جميلاً تستطيع رؤيته من نافذتك، لكنه يختفي مع الضباب“.

”أنا أيضاً أرغب في الاختفاء أحياناً، لكن نحن في الجنوب لا ضباب لدينا بعد“.

دِرنا تقرع جرساً بجانبه لوحة صغيرة.

”ماذا مكتوب فيها؟“ أسأل، ”بنفينوتي“[12] تجيب هي.

12 Benvenuti، عبارة ترحيب وهي أيضاً كنية شائعة في إيطاليا.

”هل كتبوها من أجلنا؟“ ”بالطبع لا، إنه اسم عائلة صهري“ وتوشك أن تضحك.

يفتح لنا الباب صبي ذو شعر كستنائي يصل إلى كتفيه، عيناه فاتحتان جداً، مع فراغ صغير في منتصف أسنانه الأمامية. يعانق دِرنا ويقبلها،

ويفعل الشيء نفسه معي. "أنت الطفل الذي جاء بالقطار؟ أنا لم أسافر بالقطار أبداً. كيف هو؟"

"ضيِّق"، أقول.

"هذه السترة ليست لك. كان يرتديها أخي في الشتاء الماضي"، يقول طفل آخر وصل راكضاً من آخر الممر. إنه طويل مثلي وعيناه سوداوان.

"لي، ولك... ماذا يعني ذلك؟ إنها لمن يحتاجها"، يوبّخه رجل طويل ونحيل بشارب أحمر وعينين زرقاوين. "روزا، هل تربين لي طفلاً فاشياً؟"

"طريقة لطيفة للترحيب بهذا المسكين الذي عانى ما يكفيه!" تقول الزوجة. هي تحمل طفلاً صغيراً بين ذراعيها، وتشير لي أن أتبعها إلى غرفة المعيشة.

"نحن لم نتعارف بعد. أنا روزا، قريبة دِرنا. الظريف ذو الشارب هو زوجي ألتشيدِه، وهؤلاء هم أولادنا: ريفو عمره عشر سنوات، لوتسيو سيكمل السابعة، ناريو الذي لم يكمل سنته الأولى بعد".

أنا لا أفهم أسماء الأطفال، عليّ أن أكررها ثلاث مرات. عندنا الناس يُسمَّون: جوزيبّي، سلفاتور، ميمّو، أنّونتسياتا، لينوتشا. ثم هناك الألقاب: زاندراليونا، باكيوكيا، كابايانكا، نازو إيكانِه... حتى

أنّ أحداً لا يعود يذكر الأسماء الحقيقية. أنا، مثلاً، لو سئلت عن اسم وكنية كابا إيفيزو، لن أعرف بمَ أجيب. هنا، في إيطاليا العليا، الوضع مختلف. يقول الأب إن تلك الأسماء هو من اخترعها وهي ليست ضمن أسماء القديسين في التقويم لأنه حتى لا يؤمن بهم. يعترف بالتقويم لكن ليس بالربّ. يقول إنه عندما يناديهم معاً يشكّلون كلمة: ريفو–لوتسيو–ناريو[13]. عندئذ يحدّق بي وينتظر. أفهم أنه ينتظر ردّ فعلي، ثم ينفجر ضاحكاً بمفرده فيهتزّ شارباه. في زقاقي، لا أعرف أحداً يملك شاربين، باستثناء باكيوكيا، وهي أنثى، فلا تحتسب. أبدأ عندئذ أيضاً الضحك لإرضائه، لكن بشكل مصطنع، فأنا لم أفهم النكتة.

13 Rivo–Luzio–Nario، أي rivoluzionario، مناضل ثوري.

درنا تودّعنا وتذهب إلى العمل. تقول إنها ستعود لتأخذني في وقت لاحق. زوج روزا عليه أن يغادر أيضاً. ثمّة أناس أثرياء في بيت له أهميته ينتظرونه مع أولادهم الذين يرتادون المعهد الموسيقي ليضبط لهم أوتار البيانو. "أنا أيضاً حين كنت في بيتي كنت أذهب إلى المعهد الموسيقي".

ألتشيدة ينظر إليّ بشاربين جدّيين. "وأي آلة تعزف؟" أشعر باحمرار وجهي وسخونته. "لا، لا

أعزف على أية آلة، دون ألتشيدِة. كنت أذهب إلى المعهد الموسيقي وأنتظر في الخارج لسماع الموسيقا المنسابة. كنت أنتظر صديقة لي تدعى كارولينا، هي تعزف على الكمان وتقول إنني أملك أذناً موسيقية". "لكن هل تعرف النوتات؟" يسأل وهو يمسّد شاربيه. "أجل". "السبع؟" "نعم"، أجيب، وأكرّها له كما علمتني كارولينا. يبدو سعيداً ويعد أنه سيصحبني أحياناً إلى متجر البيانو. "ويمكنني لمس المفاتيح؟" أسأله. "لم يظهر أيٌ من أولادي بعد شغفاً بالموسيقا"، يقول، "لحسن الحظ أنك أتيت. أليس كذلك يا روزا؟"

وجه لوتسيو يتخذ ملامح شريرة، كما لو كان يقول: "من أين جاءنا هذا الآن".

"ثم إذا أصبحت مساعداً جيداً سأعطيك مصروف الجيب أيضاً!"

"أنا أحصل عليه منذ عام، في الواقع" يقول ريفو ويُظهر الفجوة بين الأسنان البيضاء، "لأنني أعمل في الإسطبل. أسقي الأبقار".

"ورائحتك مثل روث البقر"، يسخر منه أخوه الصغير.

"نحن جميعاً نعمل. كل واحد يقوم بما عليه"، يقول الأب.

"دون ألتشيدة، أنا كنت أذهب لجمع الملابس البالية مع صديقي توماسينو، لكن سأكون أكثر سعادة في العمل مع آلات البيانو. على الأقل، بهذا، لن يتساقط الشعر من قمّة الرأس".

يمسّد شعره المائل للاحمرار ويمدّ إليّ يده.

"اتفقنا إذاً. لقد حظيت بمساعد. ولكن... عليك التوقف عن مخاطبتي دون، لأنني لست خورياً!"

لوتسيو يضحك بوقاحة.

"كما تشاؤون"، أقول، "ولكن كيف عليّ مخاطبتكم؟"

"يمكنك أن تناديني بابّو"، يجيب باقتضاب شديد.

لوتسيو يكفّ عن الضحك، وأنا كذلك.

"إلى اللقاء مساءً بابَو"، ريفو يرافق ألتشيدهْ ويمنحه قبلة. لوتسيو يخرج من جيبه كلّة[14] يدحرجها في الممر ويبدأ اللعب. أنا ألوّح بيدي مودعاً وأبقى صامتاً. لا أجازف بمناداته بابَو، تبدو لي كأنها دعابة. كان في زقاقنا رجل طويل وبدين، وكلما صادفناه، أنا وتومّاسينو، نتبعه ونصيح خلفه: "بابَازونِهْ، بابَازو، أنت بحق بابَا!"[15] ألتشيدهْ ليس بابَازونهْ، كيف يمكنني مناداته أبي وهو ليس والدي حتى؟

14 كرة زجاجية صغيرة متعددة الألوان يلعب بها الأطفال.

15 Babà نوع من الحلوى النابوليتانية، ويشار بالكلمة نفسها إلى الأشخاص المتصفين بالطيبة والسذاجة.

روزا عليها الذهاب إلى الحقل لتجني الخضار. ريفو يأخذ الدلو ليسقي الأبقار. يقول إنهم يملكون بستاناً وبعض الحيوانات، وإن عدد الدجاجات قليل لكنها تضع الكثير من البيض، وإنّه يتعلم حلب البقرات، لكن الأمر يتطلب الرقّة. ريفو يعرف الكثير من الأمور ويريد أن يشرحها كلّها لي. الماء، السماد، الحليب الذي يخرج من البقرات، الجبن الذي يُصنع من الحليب الذي تنتجه البقرات. الحيوانات ليست لهم فقط، إنهم

يبقونها مع تلك العائدة إلى أسر أخرى، وهم جميعاً يعملون معاً. ما يحصلون عليه يستهلكون بعضه ويبيعون الباقي في السوق. أردت أن أخبرهم أنني أيضاً كنتُ أذهب إلى السوق مع توماسينو لبيع الجرذان، ولكن ريفو لا يصغي إليَ، يتحدّث بصورة متواصلة وهو يرتدي سترته وينتعل حذاءه استعداداً للذهاب إلى العمل مع الحيوانات. يسألني هل أرغب في مرافقته إلى الحقل لرؤيتها. لا أقول شيئاً، لا "نعم"، ولا "لا". باكيوكيا كانت محقّة، جاؤوا بنا إلى هنا للعمل.

"ريفو، أنت تقلق رأسه بالثرثرة. دعه يرتاح قليلاً، عليه أن يعتاد، لقد وصل للتوّ. انظر، يا أميريغو، هذا الصبي مثل الزئبق".

"مثل ماذا؟"

"الزئبق. أي أنه لا يهدأ ولا يسكت".

"آه، فهمت، كما تقول أمي دائماً: لقد ابتلاه الله".

ينفجر ريفو بالضحك وأنا من ورائه. لوتسيو لا يبتسم بل يواصل اللعب بالكلّة. تأخذ روزا أحذية متسخة يغطيها التراب، وتفتح الباب. وقبل أن تغادر تقول: "لوتسيو، نادني إن استيقظ أخوك". تخرج إلى الحقل، ثم تعود مجدداً: "أهدِ كلّةً من كللك إلى صديقنا الجديد لتلعبوا معاً".

ما إن بقينا وحدنا، حتى أخفى لوتسيو الكلّة في جيبه ومضى لشأنه. أحاول العثور عليه دون جدوى. إما أنه اختبأ وإما أنه صار غير مرئي رغم غياب الضباب داخل المنزل. الغرف كبيرة، وهناك عوارض خشبية في سقف المطبخ يتدلى منها السلامي وأفخاذ كاملة من لحم الخنزير المملّح، مثل تلك التي لدى اللحام في شارع فوريا. إنها الغرفة الأكثر دفئاً، لأنهم أشعلوا الموقد، لهذا تركت روزا المهد مع الطفل النائم هنا. أسمع قرقعة الكلّة تتدحرج على الأرض في نقطة بعيدة من المنزل. مرة، مرتين، ثلاثاً... أبدأ العدّ على أصابعي، إن عددت العشرة عشر مرات، فسيحدث شيء جميل، سيعود الأخ الآخر، ذاك الذي يثرثر كثيراً، ويصحبني لرؤية الحيوانات. لكن الوقت يمضي والنار تذوي في الموقد ثم تنطفئ ولم يعد يُسمع صوت الكلّة. أطلّ من النافذة لأرى هل يعود أحد، لكن الضباب لا يزال في الخارج.

"لوتسيو"، أحاول مناداته لكنه لا يسمعني، أو أنه لا يريد أن يجيب. في زاوية شبه مخفيّة من زوايا المطبخ ثمّة سلّم أخرجه وأسنده على الجدار. لم أصعد سلّماً أبداً. تقول باكيوكيا إن السلّم يجلب سوء الحظ إذا مررت من تحته. أضع إحدى قدميّ في البداية لأختبر متانته، ثم القدم

الأخرى. كلما صعدتُ أكثر، شعرت أنني أقوى وأكبر وأنسى أنهم تركوني وحدي. أصعد حتى القمّة لأني أريد ملامسة السقف، وحين أمدّ إصبعي أخيراً أشعر بدفء وخشونة العوارض الخشبية. السلامي المعلّق يلامس وجهي ورائحته تنفذ إلى أنفي فيسيل لعابي. هناك أيضاً لحم الخنزير الوردي مع البقع، كالذي قدّموه إلينا في المحطة. مَنْ رأى كلّ خيرات الله هذه! أحكّ القشرة بظفري قليلاً إلى أن أصل إلى اللحم الطري. أدفع إصبعي وأخرج قليلاً منه وأضعه في فمي. أوغل إصبعي ثانية وأخرج قليلاً من اللحم مرة أخرى. عندما يصبح الثقب عميقاً جداً لاستخراج المزيد أصنع ثقباً آخر، ثم آخر.

"حرامي!" أسمع صراخاً خلفي، "لقد أتيت لتسرق أشياءنا".

ألتفت بسرعة فأفقد توازني وأنزلق عن السلم فأسقط أرضاً. كانت المسافة قصيرة لكنني أصبت في ظهري. يستيقظ الطفل في المهد ويبدأ البكاء. ينظر إليّ لوتسيو ثم يرفع عينيه للتحقق من الثقوب الموجودة في المرتديلا ويخفضهما ثانية نحوي. يلمسني بهدوء بمقدمة حذائه، كأنه يلمس حشرة للتأكد هل لا تزال على قيد الحياة. أنا لا أتحرك، أقول: "آه"، وهو يهرب. ناريو يواصل

الصراخ، أخشى أن تعود روزا الآن وتظنّ أنني فعلت له شيئاً.

"لوتسيو"، مستلقياً على الأرض أنادي من جديد، "أنا لم أكن أريد المجيء إلى هنا. أمي هي من أرسلتني، من أجل مصلحتي، تظاهرتُ بالإعاقة، ولكن في النتيجة، غادرت...".

لا يجيب. أسمع من جديد دحرجة الكلّة على البلاط. الصوت قريب وهذا يعني أنه في الغرفة المجاورة. "أردتُ أن أتذوّق فقط. ما الذي يهمّك؟ لديك كلّ شيء: الحيوانات في الإسطبل، السلامي في السقف، والد مع شاربين، الكنزات الصوفية في الخزائن، إخوتك. حتى الصور الفوتوغرافية داخل المنزل".

لا جواب. أنهض وأجلس على البلاط، ظهري يؤلمني قليلاً. أقترب من المهد وأهزّه كما رأيت إحدى صديقات زاندراليونا تفعل مع ابنها الرضيع. هكذا، يتوقف ناريو، رويداً رويداً، عن البكاء، ويغفو مجدداً.

دحرجة الكلّة تقترب. أخيراً أراها تدخل من باب المطبخ. الكلّة أولاً ثم لوتسيو.

"من ذاك الرجل الأصلع في الصورة؟ هل هو عرّاب معموديتك؟"

”إنه الرفيق لينين“، يقول دون أن ينظر إلى وجهي.

”أهو صديق والدك؟“ أسأله.

”صديق الجميع. يقول أبي إنه علّمنا الشيوعية“.

”لا أحد يولد متعلّماً“، أختتم. ثم نلوذ بالصمت مرة أخرى. أصبحت النار فحماً وبدأ الجو يبرد قليلاً.

لوتسيو يقترب من الموقد، يأخذ قطعة كبيرة من كومة الحطب ويلقيها فيه. بعد لحظة يعود اللهب أقوى من السابق. نحن، في الأسفل، ليس لدينا موقد، هناك المَنْقَل، لكنه ليس بالجمال نفسه، لأن الجمر يبقى ثابتاً دائماً. أرغب أيضاً أن أعرف كيف يجري إشعال النار من جديد.

”لديّ صديقة اسمها باكيوكيا، هي أيضاً تحتفظ بصورة في بيتها، ليست صورة خطيبها، السلام على روحه، بل الملك أبو الشوارب، لقد أحضرته إلى التظاهرة لمنعنا السفر بالقطار... ربما كانت على حقّ“.

لوتسيو لا يتفوه بكلمة ويوشك أن يغادر ثانية.

”لن أبقى هنا إلى الأبد طبعاً!“ أصرخ، فيتوقف.

”لقد أخبرونا أننا سنبقى هنا خلال الشتاء فقط. وهكذا ستذهب إلى متجر أجهزة البيانو مع

الدون ألتشيدِة، وأنا سيعيدونني إلى بيتي، ويعود الجميع كما كانوا، بمشيئة الربّ".

أمد يدي كما رأيت الكبار يفعلون عندما يعقدون صفقة ما. لوتسيو لا يشدّ عليها، يدحرج الكلَة بركلة من قدمه نحوي، يضع السلَم خلف الخزائن، ويذهب إلى الغرفة الأخرى. تبقى الكلَة على البلاط. لا أفهم هل تركها عن قصد أو نسيها. لكنني أدسّها في جيب سروالي وأظلّ أحملق في اللهب المتراقص في الموقد.

بما أنَّ أحداً لم يعد، خرجت وتوجّهت إلى الحقل. حين رآني ريفو ركض نحوي وأخذني من يدي. أنا كنت خجلاً أفكّر في ثقب المارتديلا، لكن تبعته إلى الإسطبل. "البقرة طيبة"، يقول، "أمّا الثور، فمن الأفضل الابتعاد عنه حين تنتابه الربع ساعة". أنظر إلى وجه الثور وأفهم مباشرة أن مزاجه سيئ، يشبه إلى حدّ ما مزاج أمّي أنطونييتّا التي هي جميلة وعزيزة، لكن لا قديس تقبل شفاعته حين يدوس أحد على قدمها.

لم أشاهد من قبل مثل هذه الحيوانات الضخمة ولا الصغيرة، باستثناء تشيتشو–فورماجّو. عندئذ أروي قصته لريفو، ليعرف أنه كان لديّ أشياء قبل المجيء إلى هنا. كان قطّ الزقاق، ضخماً ورماديّ اللون، كان يأوي إلى Basso زاندراليونا التي لم تكن تحرمه قطعة خبز قديمة والقليل من الحليب. أمي أنطونييتّا، عندما تراه، فكانت تناديه "الغدّار أكّال الخبز" وتطرده بالركل. لا تروق لها القطط. قررنا، أنا وتومّاسينو، أنَّ القطّ ملكنا وأردنا تدريبه. كنا قد رأينا مرّة عجوزاً في شارع ريتّيفيليو لديه قرد مروّض. كان العجوز يطلب

إليه الجلوس فيجلس. يطلب إليه النهوض فينهض. يطلب الرقص فيرقص. كان الناس يصفقون ويتركون النقود المعدنية داخل قبعته. صاحب القرد العجوز كان يربح الكثير من المال خاصة قرب منازل الأغنياء. ثم عندما ينتهي العرض يأخذ القرد ويغادر.

في اليوم التالي، كنت تجده في زاوية شارع آخر. كنا، أنا وتوماسينو، نبحث عنه عبر كل الطرق، أولاً لأننا لم نرَ في حياتنا أبداً قرداً حيّاً، وثانياً لنتعلّم حيل الرجل العجوز. لكن في يوم من الأيام غادر العجوز وما عدنا نرى القرد بعد ذلك. فكّرنا أن ندرب تشيتشو–فورماجّو لنصبح أغنياء بدورنا. إنما القطّ لم يشأ الإذعان لنا ولو من بعيد. كان يفعل ما يرغب فيه فقط. لم تكن أمي أنطونييتّا مخطئة، ولكن القطّ كان قد صار ملكنا. كنا نداعبه وهو يتمرّغ بسيقاننا. عندما يرانا نظهر في نهاية الزقاق، كان يهرع إلينا وهو يهزّ ذيله.

لكن بعد ذلك اختفى تشيتشو–فورماجّو أيضاً. بحثنا عنه في أنحاء الزقاق دون جدوى. ظننتُ أنه ذهب مع الرجل العجوز صاحب القرد للعيش في رخاء. باكيوكيا قالت إن الناس عند الجوع يأكلون حتى القطط. أنا لم أصدق ذلك أبداً. لكن

الحقيقة هي أن تشيتشو-فورماجّو كان قد أصبح جميلاً ومعافى بفضل خبز زاندراليونا وحليبها. وربما خطرت في بال أحدهم فكرة التهامه.

ريفو لا يمنحني الفرصة لأنهي قصتي، ويقول إن القطّ، في رأيه، يعود عاجلاً أو آجلاً، وإنها حيوانات مجبولة على هذه الشاكلة، تختفي بين حين وآخر لكنها دوماً تتذكّر طريق العودة إلى المنزل. "أنا أحب الكلاب أكثر"، يقول. "وأنت؟" "القطّ، لأنه مثلي، أنا أيضاً في النهاية سأعود إلى البيت".

ريفو يدنو من البقرة. "هيا، اهدئي"، يقول، ولا يكاد يلمسها في منتصف قرنيها. هي لا تحرك ذيلها وأنا أظن أنه من المستحيل ترويضها. ثم يلتفت نحوي. "المسها!"

أمدّ ذراعي وألمسها بأطراف أصابعي. وبرها ليس ناعماً مثل تشيتشو-فورماجّو، ورائحة نَفَسها عن قرب أسوأ من رائحة نَفَس باكيوكيا. أجرِّب مرة أخرى بيدي كاملةً. عيونها لامعة وتبقي فمها منخفضاً نحو الأسفل، مثل فم أمّي حين خرجنا من مبنى الشيوعيين في ذلك اليوم وأرادت أن تشتري لي البيتزا المقلية.

لا أرغب في ارتداء مريول كالإناث، ولا حتى الشريطة، لأنني أشعر بالخجل. لكن دِرنا تبدو سعيدةً فلا أقول شيئاً. تبدو كأنها تعدّني لحفلة، بعكس ما كان ينتظرني هناك من ضرب ورائحة عرق وجداول مطلوب مني رسمها على الدفتر.

"لكن أنا بالفعل أعرف الأرقام"، أحاول القول، "اعتماداً على أصابعي يمكنني عدّ العشرة عشر مرّات".

"يجب أن تتعلم الأحرف، الحساب، الجغرافيا".

"لا أحبّ الأحرف. أمي لم تتعلمها أبداً، ما نفعها؟"

"لكيلا يخدعك من يعرفونها. هيّا"، تمسكني من يدي ونخرج. ليس ثمّة ضباب هذا الصباح وتمكن رؤية ريفو ولوتسيو قادمين من المنزل المقابل. هما أيضاً بالقمصان السوداء البادية من تحت السترة، وحقيبة كتف مشابهة لحقيبتي. يركض ريفو نحوي ويخبرني أن البقرة حبلى، وقريباً سيولد العجل. يبقى لوتسيو في المؤخرة يركل حصاة على طوال الطريق.

"ولكن هل يوجد مكان لي في هذه المدرسة الجديدة؟"

"لا توجد مقاعد فارغة في صفّي"، يقول لوتسيو محدقاً في الأرض دائماً.

"تحدثْت أمس إلى المدير"، تقول دِرنا، "ستبقى في الصف مع لوتسيو. صحيح أنك أكبر منه بسنة واحدة، لكنك متأخر قليلاً. يجب أن تكون مسروراً لأنك ستبقى ضمن العائلة حتى عندما تكون في المدرسة".

لوتسيو يركل الحصاة مرة أخرى ويمشي للحاق بها. دِرنا تودّعنا لأنّ عليها الذهاب إلى اجتماع نقابي. "أوصيك يا بني، كن مشرّفاً!" تتابع السير من الجهة الأخرى، ثم تتوقف وتناديني: "أميريغو، انتظر! يا لي من حمقاء، لقد نسيت وجبتك الخفيفة". أتذكر تفاحة أمي التي لا تزال على طاولة المكتب. تركض دِرنا نحوي وتُخرج من الحقيبة قطعة قماش تنبعث منها رائحة فطيرة بالليمون. أضعها في حقيبتي وأتابع المشي مع ريفو.

"يجب أن نختار الاسم"، يقول، "ماذا تود أن تسميه؟" أفكّر في اسم لويجي، مثل أخي الذي أصيب بالربو القصبي، لكن لا أتمكن من قوله لأن لوتسيو يلتفت ويصرخ: "إنه دوري هذه المرة، أنا

سأختار اسم العجل، عجل لكل واحد. هذا عجلي".

يطارده ريفو ويسرق حصاه ويركلها بقوة حتى باب المدرسة. أحاول الركض لكن المريلة تلتف حول ساقي فأبقى في المؤخرة.

في هذه المدرسة المعلّم رجل واسمه السيد فيراري. إنه شاب لا شارب لديه، ويلثغ بحرف الراء. يقول للآخرين إنني أحد أطفال القطار وإن عليهم الترحيب بي وجعلي أشعر كأنني في بيتي. أفكّر أنني لم أكن أملك شيئاً في بيتي ولذا الأفضل أن يرحبوا بي كأنني في بيتهم.

يجلس لوتسيو في الصف الأمامي جوارَ طفل مكتنز ذي شعر أشقر متموّج، والمكان الوحيد الشاغر هو في المؤخرة، حيث يجلس طوال القامة. أجلس هناك وأنتظر مرور الوقت، لكن الوقت بطيء جداً. السيد فيراري يقول: "أخرجوا دفاتركم" وهم يفعلون ما يقوله. في هذا الصف لا حاجة إلى الصفعات فجميعهم مروّضون مثل قرد العجوز في شارع فوريا. في لحظة معينة، يقرع الجرس، أفكر: "أشكر السيدة العذراء، لقد انتهت". أرتدي السترة وأتجه نحو الباب. ينفجر الآخرون بالضحك. أنا لا أفهم، لكن أعود إلى

مكاني. المعلم فيراري يقول إن الاستراحة قد حلّت ويمكننا تناول الوجبة الخفيفة.

ينهض الأطفال ويتحادثون في مجموعات. أتذكر فطيرة الليمون داخل قطعة القماش. أجلس وحدي في المقعد الأخير وأبدأ أكلها ببطء شديد لتمضية الوقت. في مدرسة الصفعات، لم يكن هناك استراحة، ولا فطيرة بطعم الليمون. ورنين الجرس كان يعني شيئاً واحداً: نهاية الصفعات.

يقول السيد فيراري إن الاستراحة الترفيهية انتهت فيجلس الأطفال. "الآن سنعيد جدول الرقم اثنين. بنفينوتي، تعال إلى هنا".

ينهض لوتسيو، يأخذ قطعة من الطباشير، يكتب الأرقام ثم يبقى محدّقاً إلى السبورة مثل سمكة مقدّدة. "بنفينوتي، عد إلى مكانك" يأمره المعلم بشيء من الانزعاج، لكن دون الضرب. "من يستطيع أن يقول لي كم يساوي 2×7؟" لا أحد يتنفّس. يقول لوتسيو بعد ذلك: "أستاذ، اسأل سبيرانتسا".

"سبيرانتسا جديد"، يجيب المعلم، "لقد وصل للتو، لندعه يتأقلم".

"أستاذ، ليشعر كأنه في منزله!" أحدهم يطلق ضحكة مكتومة، وآخرون يلتفتون إليّ.

المعلّم يبتسم لي وهو متردّد قليلاً. من الواضح أنه من أولئك الذين لم يضربوا أحداً أبداً. "سبيرانتسا، هل تعرف كم يساوي 2×7؟"

أشعر بكل العيون مصوّبة نحوي وصوتي يدوي في الغرفة: "يساوي أربعة عشر، أستاذ".

لوتسيو ينظر إلي بالوجه نفسه عندما فاجأني وإصبعي داخل المرتديلا، كأنني سرقت شيئاً ما. الأستاذ فيراري يبدو مندهشاً لكنه مسرور أيضاً. "برافو، سبيرانتسا، هل سبق ودرست جدول الرقم اثنين، عندما كنت في مدينتك؟"

"لا، أستاذ"، أجبت، "في مدينتي، كنت أعدّ الأحذية التي تأتي دائماً أزواجاً أزواجاً".

عندما يرنّ جرس النهاية، يكون علينا المغادرة. يطلب المعلّم أن نمسك أيدي بعضنا بعضاً حتى باب الخروج. أنا أبقى وحدي في المؤخرة. أحد الأطفال الذين كانوا يجلسون في المقعد الأمامي يدنو مني ويأخذ بيدي.

"Am chiem Uliano"[16]، يقول، وأنا أهزّ رأسي، نعم نعم، وأبقى صامتاً، فلا بأس مع جدول الرقم اثنين، لكن اللغات الأجنبية ليست من اختصاصي.

16 أنا اسمي أوليانو باللهجة المحلية لمدينة مودينا.

19

اللحم المقدّد ما زال معلّقاً في المطبخ، لكن المرتديلا التي تحمل آثار أصابعي اختفت. حتى الآن لم يقولوا لي شيئاً. لو أن أمّي أنطونييتا كانت موجودة، لطاردتني بعصا الغسيل عبر كل الزقاق. هنا، بالعكس، لا يفرضون العقوبات، لكنّ الأمر أسوأ لأنك لا تستطيع معرفة كيف ستنتهي الأمور. حلمتُ الليلة بطرقٍ على الباب، وأنّ الحرّاس هم من جاؤوا لأخذي، ووضعوني في السجن مع كابا إيفيزو الذي كان يردّد: "أنا سجنت بسبب القهوة وأنت بسبب المرتديلا، أرأيت، لا فرق؟" وأنا كنت أقول في الحلم: "لا، لا، لست مثلك!" لكن عندما استيقظت لم أكن مقتنعاً تماماً.

أعود من المدرسة وأسمع الدون ألتشيدة يصرخ: "لا أحد ينام، لا أحد ينااام". هو غالباً ما يغني مقاطع من الأوبرا الشهيرة، لكن هذه المرة أظنّه غاضباً مني.

أحاول ألّا أكون مرئياً له لكنه يكتشفني على أي حال: "أنت، أين تذهب؟ أليس لديك ما تخبرني به؟"

أدسّ يدي في جيبي فأعثر على كلّة لوتسيو. أدوّرها بين أصابعي ولا أجيب.

"علمت شيئاً عنك، لكن أريدك أن تخبرني إياه".

"دون ألتشيدِة، إذا اعترفت، لن تعاقبني؟"

"أنا؟ وماذا عساي أن أفعل لك، يا بني؟"

"ولا حتى تستدعي الشرطة؟"

"الشرطة؟ لم يُقبض على أحد لنيله علامة جيدة في المدرسة".

أخرج يديّ من جيوبي وأتنهد: "آه، تحدثتم مع الأستاذ فيراري؟"

"أخبرني أنك جيد مع الأرقام وتحاول تعلّم الحروف أيضاً".

"أحبّ الأرقام أكثر لأنها لا تنتهي أبداً".

"ربما لهذا السبب لديك شغف بالموسيقا. للعزف على آلة موسيقية عليك أن تكون جيداً في العدّ". عندما يتكلم الدون ألتشيدِة، لا أفهم أبداً هل هو جديّ أو يهزأ مني. يدنو من الخوان، يأخذ قطعة مرتديلا ويقصّ شريحتين منها.

"أنتم لستم غاضبين مني؟"

"نعم، قليلاً. لأنك تواصل مخاطبتي بأنتم ولا تدعونني بابّو".

يقطع شرائح من الخبز ويضع المرتديلا بينها، يغلّف السندويشات بالمناديل. "واحدة لك، وواحدة لي. لنمضِ!"

يعبق المتجر برائحة الخشب والغراء. هناك الآلات، بعضها مكتملٌ والآخر مفكّك بانتظار جمعه. "ماذا عليّ أن أفعل؟" أسأله. "اجلس وانظر"، يجيب ويبدأ العمل. يقصّ، يدقّ المسامير، يحفّ، ويشرح لي ما يفعل في الآن نفسه. أنا أصغي، أراقب، والوقت يمضي بسرعة بخلاف الحال في المدرسة. ألتشيدة يتكلّم قليلاً وهو يعمل. يقرص وتراً، يضغط على مفتاح ويُظهر لي الفرق بين الأصوات. "أتسمع؟" يقول.

يخرج من جيب سترته قضيباً معدنياً بقطبين طويلين ويضربه على البيانو ثمّ يضعه على الهيكل الخشبي فيسمع صوت السفن عندما تغادر، ولكن من بعيد.

"أنا أيضاً أعرف العزف على هذه الآلة، إنه أمر سهل".

"تدعى 'المُنشد'، تصدر نوتة واحدة فقط، لكنها تستخدم لضبط كل الآلات الموسيقية. هيّا جرّبها بنفسك".

بمجرد أن أضع المُنشد على البيانو أشعر برعشة تسري من أصابعي إلى ذراعي وتصعد إلى

رقبتي، رعشة شبيهة بما شعرت به مرّة عندما أردت فك المصباح على كومودينة أمّي وأصبت بصدمة كهربائية. "تستحق ذلك. لو أنك كسرته، لأكملث عليك معه"، قالت أمّي آنذاك. لكنّ هذه الصدمة جميلة، وفيها شيء من السعادة.

يحين وقت الوجبة الخفيفة وأدرك أنني لست حتى جائعاً. هو يصبّ لنفسه كأساً من النبيذ الأحمر. نجلس إلى طاولة صغيرة ونأكل الواحد مقابل الآخر، مثل رجلين. يقول إنه لم يتعلم هذه المهنة من أبيه بل تعلّم كلّ شيء بنفسه. والده كان فلاحاً. هو يحب الأرض لكنه يحب الموسيقا أكثر. لديه أذن موسيقية. أنا لا أعرف مهنة أبي، لكنني أقرر أنني سأهتم أيضاً بالموسيقا عندما أكبر.

يجلبون إليه الآلات الموسيقية من المدن القريبة ويتركونها لديه. يجلس إلى المنضدة ورويداً رويداً يعيدها جديدة. من الممتع أن أكون في المحل مع ألتشيدة. أشعر أنني آلة منسيّة أيضاً وأنه سيعيد تأهيلي قبل أن يتركني أعود من حيث أتيت.

"انظر"، يقول، "هذا هو الغيتار، هذا الترومبون، هذا الفلوت، هذا البوق، هذه الكلارينت. أيٍّ منها تريد أن تجرّب؟"

"هل يوجد كمان؟"، أسأله لأن صديقتي كارولينا التي تدرس في المعهد الموسيقي تعزف تلك الآلة.

"الكمان معقّد"، يقول، "اجلس هنا". يضعني على مقعد أمام البيانو، يجعلني أضغط على المفاتيح فتخرج النوتات السبع التي أحفظها. أجرّب من جديد، ومرّةً أخرى. أبدأ خلط النوتات، تماماً مثل الأرقام، فتصبح الأصوات لا نهائية.

أتصور نفسي مدرس موسيقا مثل أولئك الذين رأيتهم داخل المسرح عندما تسللنا، أنا وكارولينا، إلى الداخل أثناء البروفات. الدون ألتشيدة يصفّق لي. أنهض وأقوم بانحناءة، وفي تلك اللحظة بالذات، تدخل سيدة ترتدي معطفاً من الفراء.

"صباح الخير، سيدة رينالدي".

"صباح الخير، سيد بنفينوتي، اليوم ابنك هنا ليساعدك؟ إنه يشبهك كثيراً". أنا والتشيدة نتبادل النظرات محرجين بعض الشيء لأن لكلينا شعراً أحمرَ. "أرأيت لمَ عليك مخاطبتي بابُو؟ السيدة رينالدي تقول هذا أيضاً"، وبينما يتجه نحو المستودع، يضيف: "ليس ابني. سيبقى معنا لوقت. ولكن بالنسبة إلي وإلى روزا نعدّه واحداً من أبنائنا".

نبقى، أنا والسيدة رينالدي، وحدنا. "روزا لديها أقارب في ساسوولو، إن لم أكن مخطئة، هل أتيت من هناك؟"

"لا، لقد جئت من القطار. قطار الأطفال". يعود ألتشيدِهِ مع الكمان ويضعه على منضدة العمل. أنا أفكّر في كارولينا ورؤوس أصابعها المتصلبة من الأوتار. "لقد غيّرتها جميعاً"، يشرح للسيدة رينالدي.

السيدة رينالدي ترتدي النظارات. تقلّب الكمان إلى الأعلى وللأسفل. تلمس الأوتار، تقرصها للتأكّد أنّ العمل أنجز كما يجب أو هناك خدعة ما. أخيراً تقتنع، وتشكر ألتشيدِهِ. ثم تخفض النظارات على أنفها وتحدّق إليّ. تتفحّصني كما فعلت مع الآلة الموسيقية، لتفهم هل ثمّة خدعة ما. "يا للصغار المساكين! لقد جعلوهم يأتون إلى هنا"، تقول، "كل تلك الساعات من السفر والتعب. ثمّ سيكون عليهم، عند انتهاء هذه العطلة الجميلة، أن يعودوا إلى بؤسهم. ألم يكن من الأجدى لو أنهم أعطوا هذه الأموال لعائلاتهم بدلاً من جلبهم إلى هنا؟"

ألتشيدِهِ يضع يديه على كتفيّ. هي تقدم إليّ قطعة نقود معدنية بوجه يكسوه الحزن. ألتشيدِهِ يضغط بقوة ولا يتكلّم. "لكن في جميع الأحوال هذا أفضل من لا شيء، أليس كذلك؟" تقول

السيدة رينالدي، "على الأقل لديك الفرصة لتتعلم مهنة. ماذا تحب أن تعمل عندما تكبر؟ إصلاح الآلات الموسيقية، أنت أيضاً؟"

يدا ألتشيدة تضغطان على كتفيَ كأنه يريد أن يسمّرني بالأرض، وأنا أفكّر أن تلك اليدين مثلما هما ماهرتان في تصليح الآلات الموسيقية يمكنهما أن تكونا ثقيلتين أيضاً لإبقائي هناك ولا تتركانني أذهب. في هذه الأثناء، تأخذ السيدة الكمان، وتوشك على المغادرة.

"لا"، أقول، "لا أريد إصلاح الآلات الموسيقية عندما أكبر".

ألتشيدة لا يحرّك حتى إصبعاً واحداً بل ينحني من جهةٍ يستطيع منها النظر إليّ أفضل، كأنّها المرّة الأولى.

"آه، لا؟" تقول السيدة بدهشة، "وماذا تريد أن تفعل؟"

"أريد أن أعزف عليها، وهكذا سيدفعون النقود لرؤيتي".

أعيد إليها قطعة النقود المعدنية. السيدة لا تقول شيئاً. وتغادر. أخيراً أشعر أنني نوبل من جديد، كما كنت داخل زقاقي.

روزا تعدّ الكعكة بالكريما الصفراء وكذلك البيتزا الريفية بالجبن والسلامي. تقول إنها تصنع الأشياء نفسها للأبناء الآخرين. "وأنت، كيف اعتدت الاحتفال بعيد الميلاد؟"

في العام الماضي، كنت مصاباً بالحمّى. اضطر الطبيب أن يأتي إلى البيت. كانت زاندراليونا هناك أيضاً. وجه أمّي أنطونييتّا كان شاحباً جداً، لكنها لم تكن تبكي. أمّي أنطونييتّا لا تبكي أبداً. نظرت إلى صورة أخي الأكبر، لويجي، فوق العمود، وأغلقت عينيها. الطبيب ارتسمت على وجهه ملامح مثل تلك التي تكسو وجه شخصٍ خبّأ اللقمة الأخيرة من المعكرونة الجنويّة ثمّ فوجئ بأنّ شخصاً آخر قد أكلها. "إنه يحتاج إلى دواء"، قال. انتظرت أمي إلى أن غادر ثم وضعت يدها في صدرها، حيث تحتفظ بالصورة المعجزة للقديس أنطونيو عدو الشيطان، وأخرجت منديلاً مع فواتير مطوية داخله.

"لقد تلقيت هدية لطيفة العام الماضي"، أقول.

تبتسم روزا: "وهذا العام الذي تقضيه معنا، ما الهدية التي ترغب أن تتلقاها؟"

"كلّ شيء جيد. يكفي أنها ليست هدية العام الماضي نفسها".

تغلق روزا البيتزا الريفية بطبقة من العجين وتدهنها بقليل من الزيت بأصابعها. تنطلق من الراديو موسيقا مرحة، تتحرك هي في المطبخ مثل راقصة رأيتها ذات مرة في حفلة للأميركيين. "سندخلها إلى الفرن حين تحضر دِرنا، حتى نأكلها ساخنة"، تقول. "ساعدني الآن في ترتيب الطاولة، هذا الصباح أنت فارِسي". تأخذني من يدي ونبدأ الرقص وسط المطبخ.

ينظر إلينا ناريو من المقعد المرتفع ويصفق بيديه، لكنه يخطئ الإيقاع دائماً. هي تستدير وأنا أتعثر بقدميها. تضحك، فيتحول لوني إلى الأحمر. "في صباي، كنت أذهب مع ألتشيدِه إلى قاعات الرقص، الآن أرقص في المطبخ فقط". أنا لم أكن معتاداً الرقص مع أمي، ولا حتى في المطبخ.

عندما تعود دِرنا من العمل تقول إن لديها مفاجأة لي. أنا أريد أن أعرف ما هي لكنها تقول: "كلّ شيء في أوانه". في هذه الأثناء، تأخذ روزا البيتزا الريفية وتخرج إلى الفناء. أتبعها لمساعدتها لكوني فارسها اليوم. الفرن خلف الإسطبل. لم أره مفتوحاً أبداً. أطلّ برأسي داخله، إنه هائل.

أتذكّر الصورة التي كانت باكيوكيا تريها للأمهات لإقناعهنّ بمنعنا من المغادرة. أشعر بالوهن في ساقي وأهرب داخل الإسطبل. روزا تركض ورائي وتجدني مختبئاً بالقرب من البقرة التي يجب أن تلد. لا أملك الشجاعة للنظر إليها.

"ما الأمر؟ هل أنت منفعل بسبب حفلتك؟"

أدير رأسي إلى الجانب الآخر دون أن أرفع نظري عن الأرض. "ماذا حدث؟ يمكنك إخباري. هل أساؤوا إليك في المدرسة؟"

أنفاس البقرة تسخّن رقبتي، ولا أتكلم.

"هل سخروا منك ثانية؟"

حدث هذا في الأيام الأولى. بينيتو فانديلّي، طفل آخر من المقاعد الخلفية، كان يدعوني "نابولي"، وعندما أقترب منه يغطي أنفه كأنه يشم رائحة سمك فاسد. أوليانو، من المقعد الأوّل، الذي يجلس الآن بجانبي، قال إنه عليّ ألّا أكترث لما يفعله بينيتو لأنه أيضاً تعرّض للسخرية بداية العام وصار سلوكه سيئاً بعد ذلك.

خلال الظهيرة، في المتجر، عندما كنا نلفّ البيانو الذي علينا تسليمه، أخبرني التشيدِه أنه لا يوجد أطفال سيئون. هي مجرد أحكام مسبقة، كأنّ شيئاً يخطر لك قبل أن تفكّر فيه لأن شخصاً ما وضعه في رأسك ورسخ هناك. قال إنه نوع من

أنواع الجهل، وإنَّ على الجميع، وليس رفاقي فقط في المدرسة، الحرص على ألّا نفكر في أحكام مسبقة.

في اليوم التالي، عندما دعاني بينيتو "نابولي"، اقترب منه أوليانو وقال له: "اخرس، أنت الذي تحمل اسماً فاشياً!" لم يجب بينيتو وذهب ليجلس في المقعد الأخير. أنا فكّرت أنه ليس المذنب لكونهم منحوه الاسم الخطأ، وأنّ الأخيار أيضاً لديهم أحكام مسبقة. مثلي الآن، حين رأيت فرن روزا الهائل، ورغم أنهم يجيدون معاملتي دائماً، فإنّني صدّقت ما قالته باكيوكيا عن الشيوعيين الذين يطبخون الأطفال ليأكلوهم، وجئت لأختبئ وراء البقرة الحبلى، ووسّخت حذائي بروثها أيضاً، تحديداً اليوم، في عيد ميلادي.

"عذراً، روزا"، أخرج من مخبئي، "لقد كنت منفعلاً. في الحقيقة، لم أحصل على أيّ حفلة قطّ، وكذلك لم أحصل على أيّ هدية، باستثناء علبة الخياطة القديمة التي أعطتني إياها أمّي أنطونييتا. أنا لست معتاداً أن أكون سعيداً".

تمسكني روزا من ذراعي. تفوح من يديها رائحة العجين بالخميرة. أشعر بحرارة أنفاس البقرة الحبلى ورائي وحرارة روزا التي تجتاح

صدري. شعرها ناعم أيضاً كالقطن لكنه داكن اللون مثل عينيها. لا أعرف لماذا، ولكن فجأة لم يعد بإمكاني إخفاؤه. أعترف لها: "أنا لصّ المرتديلا".

تداعب روزا جبهتي، وتمرر أصابعها على عيني، كأنها تمسح الدموع. "لا يوجد لصوص في منزلنا". تمسكني من يدي وتعيدني إلى الداخل.

21

يأتي ألتشيده أيضاً رفقة ريفو ولوتسيو. يغني بمرح بصوته الجهوري: "لنرشف من الأقداح السعادة..."[17]. يحمل معه علبة ملفوفة بورق ملوّن مع شريطة في الأعلى. "أطيب التمنيات يا بني، وعقبال المئة!" يقول، ويصفّق الجميع ما عدا لوتسيو. أنا أظلّ متسمّراً كالسمك المقدَد، وهم يصيحون: "افتحها، افتحها!" لكنني لا أريد أن أخرّب الورق. مؤكّد أنها تحتوي على بندقية خشبية مثل تلك التي رأيتها في واجهة متجر الألعاب.

17 "Libiamo, libiamo nei lieti caliciii" مقطع من أوبرا **لا ترافياتا** لجوزيبي فيردي.

أزيل الخيط. أفتح العلبة ببطء وفمي فاغر. إنه كمان. كمان حقيقي!

"هذا صنعته بيديّ خصيصاً لك. إنه ثلاثة أرباع"، يقول ألتشيدِهْ، "لقد اشتغلت عليه في كل الأمسيات منذ اليوم الذي أتت فيه السيدة رينالدي".

"لكنّني لا أستطيع العزف عليه".

"أحد زبائني مدرّس موسيقا، اسمه سيرافيني. سيعطيك بعض الدروس"، يقول ألتشيدِهْ، "كيف

كانت تلك العبارة التي تكررها؟ لا أحد يولد متعلماً!" ويضحك من تحت شاربيه.

يدنو ريفو. يأخذه مني ويبدأ بفرك القوس على الأوتار مُحدثاً ضوضاء قوية. ولكن ألتشيدة يوبخه: "إنه ليس لعبة، عليك أن تعامله بعناية. احتفظ به دائماً معك، أميريغو، إنه كمانك".

حقيقةً يوجد داخل الحافظة شريط مكتوب عليه اسمي، أميريغو سبيرانتسا. أبقى ذاهلاً، لم أمتلك أبداً غرضاً يخصني فقط.

"أنا تلقيت دراجة هوائية في عيد ميلادي"، يقول لوتسيو وهو ينظر خارج النافذة، "لا أسمح لأحد أن يلمسها. إنها لي".

أمرّر أصابعي على خشب الكمان اللامع. أضغط على الأوتار المشدودة وأتابع الخيوط الحريرية للقوس.

"هل أنت مسرور يا بني؟"

أنا مسرور جداً، حتى أنني أعجز عن الكلام.

"نعم بابَو"، أقول أخيراً. ألتشيدة يفتح ذراعيه ويضمّني إلى صدره. تفوح منه رائحة كولونيا ما بعد الحلاقة وقليلامن غراء الخشب. إنها المرة الأولى التي يعانقني فيها أب.

"متى سنأكل الكعكة؟" يسأل ريفو وهو يشدّ ألتشيدة من ذراعه.

"أميريغو لا يحب الكعك، إنه يحب المرتديلا فقط..."، يقول لوتسيو ويشير بإصبعه نحو السقف. روزا تنظر إليه زاجرة فيكفّ عن الكلام.

"هناك مفاجأة أخرى أولاً" تتدخل دِرنا، وتخرج من جيبها مغلّفاً أصفر فاتح اللون. "إنه لك، رسالة من أمك".

"إذاً لم تنسني!" لقد كتبنا لها مرات عدّة منذ وصلت إلى هنا لكنها لم تخبرني أي شيء أبداً. تفضّ دِرنا المغلّف. تجلس على الأريكة وعبر صوتها تخرج كلمات أمّي، فتبدو لي مجتمعةً كأنني أعود إلى الزقاق من جديد. لا أعرف هل أحبّ ذلك أم لا.

تقول أمّي إنها سعت للحصول على خدمة من مادّالينا كريسكولو التي كتبت لها الرسالة وقرأت رسائلي التي وصلتها. تقول إنها لم تردّ فوراً لأنها كانت مشغولة، وإن الحياة كما هي في الزقاق. حلّ الشتاء بارداً، ولحسن الحظ أنني في إيطاليا العليا، حيث يبقونني دافئاً ويكسونني ويطعمونني. تقول إن زاندراليونا تبعث لي تحياتها وإنّ علبة كنوزي في مأمن حيث احتفظنا بها، وإن باكيوكيا لم تسأل عني أبداً، لكن يبدو أنها تكابد المرّ لكون الأمهات اللواتي تركن أولادهن يسافرون يخبرن الجميع أشياء جميلة فحسب،

ومع مرور الوقت قد يصبحن شيوعيات من الامتنان. تقول إن كابا إيفيرّو عاد طليقاً بفضل بعض معارفه، لكنها لم تعد تعمل معه، وإنه أزال أيضاً كشك الملابس المستعملة من السوق.

كتبنا لها، أنا ودِرنا، هل بإمكانها المجيء في عيد الميلاد، وهي تجيب بـ"لا"، وإنّه لا احتمال لذلك في هذه الأيّام بالتحديد. تقول إنّ هذه الأيّام ستمضي سريعاً على أيّ حال، وإنّني مهما صلتُ وجلت، فسأعود من جديد إلى بيتنا وبين قدميها كالعادة. تخبرني أنّني ولدتُ في مثل هذه الأيّام قبل ثماني سنوات، وتأمل أن تصلني الرسالة في موعد عيد ميلادي. تقول إنّه كان يوماً بارداً عندما أحسّت بالألم فأرسلت في طلب القابلة. لكنّني ولدتُ قبل مجيئها لأنني كنت متلهّفاً لإخراج رأسي من الكيس. لم تخبرني أمّي بهذه الواقعة من قبل، وأستغرب أنّها تتحدث في الرسالة أكثر ممّا تتحدث عن قرب.

في نهاية الرسالة، بعد تحيات ماذالينا، ثمة خربشة جلّها ملتوية. إنه اسمها، اسم أمّي أنطونييتّا. تقول إن ماذالينا تعلّمها كتابة توقيعها لتستطيع وضعه مكان الصليب. أتخيلّها جالسة على طاولة المطبخ والقلم بيدها، حيث تعرق وتنفخ بين حين وآخر وتستعين حتى باسم سيدة

القوس. أنا سعيد بوجود شيء على الورقة فعلته بيديها من أجلي. مثل كمان ألتشيدِة.

أسأل دِرنا هل بإمكاننا الردّ حالاً، وإلّا سأنسى ما أريد أن أقول لها، فتذهب لإحضار ورقة رسائل وقلم وتجلس إلى الطاولة. أنا أملي وهي تكتب، كما يفعل الأستاذ فيراري معنا في المدرسة. أقول لها إن اليوم هو عيد ميلادي وإن رسالتها كانت أجمل هدية لي. لا أخبرها عن الكمان، وإلّا ستغضب.

أقول إن روزا أعدّت لي الكثير من الأشياء الطيبة لكنها تبقى ملكة تحضير المعكرونة الجنويّة.

حتى هنا في إيطاليا العليا أصبح الجميع يعرفونني، من بائع الخضار الذي يسمّونه هنا الفاكهاني، إلى اللحام الذي يسمّونه جزّاراً، والخردجي الذي يدعونه هنا بائع لوازم الخياطة. وأخبرها أنه لا أثر هنا لكثير من المهن الموجودة عندنا، فلا بائع ماء مثلّج ولا بائع الكرشة والأمعاء المطبوخة. وبالفعل، لم تفهم دِرنا عندما سألت أين يبيعون المقادم والنخاعات، لأنني أحبها كثيراً. طلبت مني أن أكرّر ما قلت، وكررته مراراً دون فائدة. "Operimos" كانت تقول، وتفكّر أنها كلمة لاتينية. سألث ما اللاتينية، فأجابت أنها لغة

قديمة، فقلتُ ربّما، لأن "o pere o muss" طبق قديم جداً يتخلص في أكل أقدام الخنزير وخَطمه. عند ذلك فهمتُ وذهبنا إلى الجزّار، واتضح أن الكرشة كاملة توجد هنا أيضاً، في حين أن الأقدام والخَطم لا يأكلها البشر بل يطعمونها للحيوانات. هكذا انتهت الرسالة. أكتب اسمي في الأسفل، ملتوياً قليلاً لكيلا تشعر بالفرق، وتختتمها دِرنا بتحياتها.

آمل أن تصل قبل الليلة المقدسة. في العام الماضي، كنا بمفردنا، نحن الاثنين، ولكن عند منتصف الليل خرج كل من في الزقاق لتبادل التهاني. جاء كابا إيفيزو أيضاً مع زوجته التي كانت تضغط حقيبتها اليدوية الجديدة تحت ذراعها وتنظر إلى أمي كأنها سرقت منها شيئاً ما.

هنا في إيطاليا العليا عيد الميلاد مختلف: لا يبنون مغارة الميلاد، ينصبون شجرة مزيّنة بالأضواء والكرات الملونة المعلقة على الأغصان، مثل السلامي المعلّق على عوارض السقف الخشبية. يقولون إن بابا نويل يجب أن يصل لوضع الهدايا تحتها. لم يظهر هذا الرجل في منزلي أبداً، ربما لأنه لم يجد الشجرة. ريفو يقول إن هذا غير ممكن، لأنه يذهب إلى جميع الأطفال، وله لحية بيضاء ويرتدي ثوباً أحمر. عندئذ فكرت:

لعله يزور أبناء الشيوعيين فقط. الشخص الوحيد الذي جلب إلينا في بعض الأحيان شيئاً ما هو كابا إيفيرَو، لكن لا لحية له لا بيضاء ولا سوداء ولا حتى ملابس حمراء. كابا إيفيرَو بنيّ الشعر وعيناه زرقاوان، وعلى أي حال لن أدعوه أبداً بابّو، ولا حتى في ليلة عيد الميلاد.

تطوي دِرنا الورقة وتضعها في المغلّف. لكنّني أقول إنني أريد أن أرسل إليها هدية، وهكذا يمكن لأمي أنطونييتا أن تفتحها تحت شجرة الميلاد. هناك شجرة ليمون قبالة Basso زاندراليونا يمكنها استخدامها. تقول دِرنا إنّ بإمكاني أن أرسم لها شيئاً نرسله مع الرسالة. أنا لم أرسم أي شيء أبداً. "إنه أمر سهل"، تقول، "سأساعدك".

تجلسني على ركبتيها. تأخذ يدي بيدها ونبدأ بالقلم الرصاص. نرسم الوجوه، الأنوف، العيون ثم الشعر والملابس. يذهب ريفو ليحضر حافظة أقلام تلوينه. يقول إنّ الرسم سيكون أجمل بهذه الطريقة، فنملؤه بالوردي والأصفر والأزرق. شعر دِرنا الناعم كالقطن يدغدغ رقبتي فيما تروح أيدينا وتجيء على الورق. تظهر الوجوه على الصفحة. في النهاية، تبزغ أمي أنطونييتا بفستانها الجديد، مع أزهار صغيرة. لقد وضعتها في منزل زاندراليونا ليلة الميلاد، مع مادّالينا

كريسكولو وكابا إيفيرَو لكن دون زوجته. وفي Basso زاندراليونا، رسمتُ أيضاً تشيتشو–فورماجَو، لعلّه عاد وينتظرني هناك. وقرد العجوز المروَّض. هذا ما تبدو عليه مغارة بيت لحم.

على الورقة، بالحدّ الأدنى، ستكون أمّي أنطونييتّا مع صحبة جيدة ليلة عيد الميلاد.

لم يأتِ أوليانو إلى المدرسة لأنه يعاني من الحمّى. أسأل المعلّم هل أصيب مصادفة بالربو القصبيّ، مثل أخي لويجي. لكنه يجيب بالنفي: "إنه يعاني من النّكاف". أفكّر أنّ هذا من حسن حظي وإلا لعدتُ وحيداً من جديد. لوتسيو لا يزال في المقعد الأمامي، وبينيتو يجلس جواري. علاقتنا جيدة الآن. لقد توقف عن سدّ أنفه، وأنا أسمح له أحياناً بنسخ مسائل الحساب.

خلال الاستراحة يتحدث الجميع في مجموعات صغيرة. أنا وبينيتو نبقى في أماكننا، كل واحد يتلهّى بشؤونه الخاصة. السيد فيراري ينهض من وراء المكتب وينظر إليّ.

"سبيرانتسا، بنفينوتي، تعالا إلى هنا".

أنا ولوتسيو نتبادل النظرات لأوّل مرة منذ حادثة المرتديلا. "سبيرانتسا، لقد وصلت طفلة من مدينتك والمدير يريد أن ننظم لها استقبالاً لطيفاً، لنجعلها تشعر أنها في بيتها".

أنظر إلى بينيتو في المقعد المجاور، وأتمنى أن يستقبلوها بالترحيب نفسه الذي تلقيته عند وصولي.

مع معلمة الصف الخامس، خارج باب المدير، هناك أيضاً ريفو. يخبرني أن الطفلة الجديدة ستبقى في صفه لأنّها كانت ترتاد المدرسة قبل مجيئها إلى هنا، وهي في مثل عمره. يدعونا المدير: "تفضلوا"، فندخل. إنه رجل طويلٌ وأصلع، تماماً مثل الصورة الموجودة في بيت ألتشيدِة وروزا. أسأل المعلّم بصوت خفيض هل المدير أيضاً يحمل بالمصادفة لقب لينين، مثل ذاك الذي كان يعلّم الشيوعية. ينظر كأنّه يراه للمرة الأولى، ويضحك. ينهض المدير، يدور حول طاولة المكتب ويقدّم إلينا الطفلة الجديدة. اسمها روسّانا وهي ابنة أحد الرفاق المهمين. كان عليها الذهاب مع عائلة مانتسي، لكن بما أن السيدة طريحة الفراش بسبب التهاب رئوي، وريثما تشفى من مرضها، سيعتني بها الخوري مع مدبّرة منزله السيدة أدينولفي.

روسّانا أطول مني، وعيناها خضراوان، وضفائرها سوداء، وملامحها غاضبة. ربما لأنّ الأمر انتهى بها عند الخوري والسيدة أدينولفي بدلاً من عائلة. "هذا أميريغو"، يقول المعلّم وهو يدفعني قليلاً إلى الأمام. "إنه هنا منذ أكثر من شهر وتأقلم جيداً مع البيئة. وهؤلاء هم إخوته الجدد". يبتسم ريفو مظهراً الفجوات بين أسنانه.

عندما يسمع لوتسيو كلمة "إخوة" يتنهد، ثم يتأمل الطفلة جيداً ويصطبغ وجهه بالأحمر. لكنها لا تنظر إلينا، ولا تقول لا شكراً ولا مرحباً.

عند عودتنا إلى المنزل لا يقطع لوتسيو الطريق بمفرده، كعادته، بل يمشي جوار شقيقه ويوجه إليه الكثير من الأسئلة حول الطفلة ذات الضفائر. "قالت معلمتي إن روسَانا ستأتي هذا المساء لتناول العشاء مع العمّة دِرنا". يجيب ريفو: "سيكون هناك رئيس البلدية أيضاً الذي يرغب في التعرّف إلى أميريغو".

"ونحن لا؟ هذا ليس عدلاً!" يردّ لوتسيو.

"نحن ولدنا هنا ولسنا ضيوفاً!"

"وماذا يعني هذا؟ لا يريد التعرّف إلينا لأننا وُلدنا هنا؟" يرتبك ريفو، ثم تفترّ ابتسامته مع الفجوة في الوسط، ويقول: "ربما يمكننا الذهاب أيضاً لنقدّم أنفسنا إلى رئيس البلدية".

"حتماً"، يردّ لوتسيو بخبث، "لا يمكننا أن نترك ذاك بمفرده...".

الآنسة أدينولفي ترافق روسَانا لكنها تغادر فوراً لأنّ عليها أن تعدّ العشاء للخوري. تجلس الطفلة إلى طاولة المطبخ وتنظر إلى الأرض. ترتدي ثوباً أحمر مع حافاتٍ من المخمل الأسود، مختلفاً عن ذاك الذي كانت ترتديه هذا الصباح. أهرع إلى

غرفتي، أضيء النور وأطفئه ثلاث مرّات. من النافذة المقابلة، على الجانب الآخر من الطريق، يضاء النور وينطفئ ثلاث مرات. إنها الإشارة التي علّمني إياها ريفو.

عندما أعود إلى المطبخ تكون الطفلة مستمرةً بثباتها على وضعيتها السابقة كأنّها تمثال. "أتريدون اللعب معاً قليلاً قبل العشاء؟" تسأل دِرنا. هي لا تجيب، ربما تخشى أن يقطعوا لسانها مثلما كانت ماريوتشا قبل أن تجد أمها الجديدة الشقراء. يطرق الباب. تذهب دِرنا لتفتح فنبقى وحدنا.

"يجب أن تعلمي أن باكيوكيا أخبرتنا أشياء غبية فحسب"، وأريها لساني. لكنها لا تفهم. تظنّ أنني أسخر منها فتخرج لي لسانها.

"تعال ألفيو"، تقول دِرنا، "الأطفال في المطبخ". يحمل رئيس البلدية معه علبتين ملونتين، واحدة لي والأخرى لروسَانا.

"جئت أرحب بكما باسم المدينة كلّها"، يقول، ويقدم إلينا الهدايا. الطفلة لا تزال متسمِّرة ولا تكترث للهدية. آخذ علبتي وأؤجل فتحها بانتظار ريفو ولوتسيو اللذين سيصلان بعد دقيقة واحدة فقط.

أنا وريفيو نبدأ اللعب بالقطار الصغير الذي أحضره رئيس البلدية ألفيو، في حين أن لوتسيو يجلس جوار روسّانا ويتسمّر أيضاً. لعلها نقلت إليه مرضها.

عندما تصل أطباق التورتيلّيني إلى الطاولة نبدأ الأكل، كلّنا باستثناء الطفلة. رئيس البلدية له وجهٌ لطيف. "لم أكن أعرف أنك طباخة ممتازة أيضاً"، يقول لدِرنا.

"التورتيلّيني صنعتها أمّي"، يوضح لوتسيو ليتفاخر بنفسه.

"ودِرنا تجيد الطبخ"، أتدخل، "والأعمال النقابية أيضاً".

"أما أنا، فلا أجيد أي شيء، ولهذا جعلوني رئيساً للبلدية!" يقول رئيس البلدية مبتسماً.

"لا تصدقوه، يا أطفال. كان ألفيو مقاتلاً شجاعاً في قوات المقاومة، أرسلوه إلى السجن وإلى المنفى أيضاً!"

"ماذا يعني المنفى؟" أسأل.

"يعني أنهم أرسلوني بعيداً من منزلي لمدة طويلة، من مدينتي، من أحبائي الذين أودهم كثيراً، وكان ممنوعاً عليّ أن أعود".

"ألم تفهم؟ إلى المنفى، مثلي ومثلك"، إنه صوت روسّانا الذي لم يسمعه أحد من قبل.

"أنتم لستم في المنفى"، يجيب رئيس البلدية ألفيو، "أنتم بين أصدقاء يريدون مساعدتكم، بل بين رفاق، وهذا أعمق من الصداقة، لأنّ الصداقة أمر خاص بين شخصين ويمكن أن تنتهي، في حين أن الرفاق يكافحون معاً لأنّهم يؤمنون بالأشياء نفسها".

"أبي هو أحد رفاقكم، أنا لا. إحسانكم لا أحتاجه. لا أريده".

تضع دِرنا الملعقة ويكتسي وجهها بذاك الانطباع الذي يعلوه حين تعود متأخرة من النقابة بعد اجتماع لم يؤتِ ثماره. رئيس البلدية يشير لها بيده، ويجيب: "أرى أنك لم تتذوقيه بعد، طبق التورتيلّيني هذا. إنه بطعم الترحيب وليس الإحسان"، ويبتسم مجدداً. "أليس كذلك؟" يسألني. أومئ برأسي موافقاً، ولكن ما قالته روسَانا شوّش أفكاري كلّها. بدا لي طعام روزا هذا المساء يشي قليلاً بطعم الإحسان، وأخشى ألّا أستطيع إخراج هذا المذاق من فمي بعد الآن.

"الترحيب كان يجب أن يقوم به والداي في بيتي، وليس الغرباء"، روسَانا تتحدث كفتاة ناضجة قادرة على البوح بكل ما تفكّر فيه. والآن، بعدما سمعتُ هذه الأشياء منها، أشعر أنني أصدّقها بدوري. دِرنا ترفع الأطباق وتسمح لنا أن

ننهض. أنا وريفو ننهمك في اللعب بالقطار. وبينما دِرنا تنظف الطاولة، يزيل رئيس البلدية الورق عن العلبة التي أحضرها لروسَانا. يوجد داخلها دمية ماريونيت قماشية لها شكل كلب بعينين كبيرتين وحزينتين قليلاً. يدسّ رئيس البلدية ذراعه فيها ويبدأ إصدار أصوات مضحكة. الكلب يقفز، يتشقلب، يحرّك ذيله، وفي النهاية يضطجع على ساقي روسَانا. هي ترفع يدها ثم تضعها على رأس الكلب. لا تقول شيئاً، لكن دمعةً تسيل ببطء شديد على خدها الأيسر. يُخرج لوتسو، الذي بقي صامتاً ومتسمّراً حتى اللحظة، منديلاً من جيبه ويدسّه في يد روسَانا. تأخذه وتختفي الدمعة.

بعد بضعة أيام رأيت معلّمة ريفو، عبر الباب المفتوح، ونحن نجري عمليات الحساب بالدَور، وهي تركض وتتحدث بصوت مرتفع وتوشك على البكاء متوجّهةً نحو مكتب المدير لينين: "لقد طلبتْ الذهاب إلى الحمّام. بعد دقائق طلبتْ من رفيقتها في المقعد أن تذهب للتأكد هل شعرت بوعكة مفاجئة. أليس كذلك، يا جينيتّا؟"

الطفلة التي تبعت المعلمة حتى مكتب المدير تهزّ رأسها بالإيجاب، محرّكة ضفائرها الشقراء ومن أنفها يسيل المخاط ممتزجاً بدموعها. بعد ذلك بدأ المدير والمعلّمة والمستخدمون البحث داخل القاعات، في أمانة السرّ، في المستودع، في المكتبة، لكن بلا جدوى. لم يعثروا على روسّانا.

"يستحيل أن تغادر المدرسة دون أن يراها أحد؟" يصرخ المدير لينين بوجه أحمر وعيون شيطانية، تماماً مثل الصورة في منزل روزا. البواب يجيب أن الطفلة ربما استغلت غيابه مرّة واحدةً ذهب فيها إلى الحمّام.

"علينا إبلاغ أبويها"، يقول المعلّم فيراري.

المدير يتلفّت حائراً.

"لا"، يجيب بصوت خافت، "لن ننشر الخبر، أنا أتحمل مسؤولية ذلك. المدينة صغيرة وطفلة تمشي سيراً على الأقدام أين يمكنها أن تذهب؟ سنعثر عليها. لننتظر حتى المساء. وإن لم نعثر عليها...".

في طريقنا إلى المنزل، لم يكن ثمّة حديث سوى عن الطفلة الهاربة. السيد فيراري قال لنا ألّا نقلق وإن الكبار سيهتمون بالأمر. "دوماً يقرّر الكبار كل شيء"، يقول لوتسيو ونحن نمشي نحو المنزل، "لا يكترثون أبداً لما نريده. أنت أيضاً لم تكن تريد المجيء إلى هنا. لقد أرغموك".

أنا لا أعرف حقاً هل أجبرتني أمي، ولذا لا أقول شيئاً. أمشي صامتاً وأفكّر في روسَانا، في وجهها في المساء الذي أتت فيه إلى منزلنا بفم ملتوٍ نحو الأسفل وعينين متحجّرتين. يذهب ريفو ليسقي الدواب فأتبعه. البقرة الحبلى حزينة، تبدو لي مريضة. هي بدورها فمها ملتوٍ نحو الأسفل، لكنها لا تهرب، تبقى مكانها.

"دِرنا"، أقول قبل أن أذهب إلى النوم، "هل الجو بارد في الخارج؟" هي تفهم فوراً، فتأخذ يديّ وتعصرهما بقوة. "ربما وجدوها الآن. ألفيو ذو رأس صلب، لا يستسلم. كان مقاتلاً مع قوات

المقاومة في الجبال، هيهات أن يترك طفلة بضفائر تهرب".

مثل كلّ مساء، تترك كوباً من الماء على الكومودينة، تطفئ النور، وأنا أغمض عينيّ. لكنّني أعجز عن النوم. ثمّة ضوضاء تصدر عن رأسي: فم روسَانا الملتوي نحو الأسفل مثل فم تلك البقرة الحزينة، كلب الماريونيت، رئيس البلدية المقاتل مع قوات المقاومة، كلمات المعلّم فيراري، اللحم المقدّد المعلّق بالسقف، الرحلة بالقطار مع الأطفال الآخرين، الحافلة حيث نمت حافي القدمين. في النهاية، أفهم أن لوتسيو كان على صواب، الكبار لا يفقهون شيئاً عن الأطفال.

أدنو من النافذة. أتحقق هل لا يزالان مستيقظان. أضيء النور وأطفئه ثلاث مرات. لا شيء. أحاول ثلاث مرّات أخرى. أكرّر المحاولة. أعود إلى السرير. ربما كانا نائمين بالفعل. بعد لحظات تأتي الإشارة من العتمة، واحد، اثنان، ثلاثة. أرتدي ملابسي، الحذاء، السترة الثقيلة، القبعة... آخذ قطعة كبيرة وجميلة من جبن البارميزان من الخزانة، وأخرج من المنزل دون جلبة. أعبر الطريق وأنتظر في الفناء. الصمت مخيم على الأرجاء. البقرة الحبلى فقط تئنّ بين حين وآخر.

يتسلّل البرد من الأرض عبر حذائي. أرغب في العودة إلى دفء المنزل لكنّني أرى ضوءاً يقترب. إنه لوتسيو يحمل مصباحاً. "لم أوقظ ريفو"، يقول، "وإلا سيخبر أمي".

"ربما أعرف أين ذهبت روسَانا"، أكشف له، "هل يمكنك أن تقودني إلى محطة الحافلات؟"

"هيّا"، يقول ونمشي جنباً إلى جنب صامتين. الشوارع متشابهة لكنه يعرفها جيداً ولا يخاف، فيما يعتريني شيء من الخوف. أخرج يدي من جيبي وأبحث عن يده. لوتسيو يضغط يدي قليلاً، ثلاث مرات، مثل الإشارة السرية التي نتبادلها. نصل إلى موقف الحافلات بعدما مشينا نصف ساعة، وربما أكثر. آخر حافلة إلى بولونيا على وشك المغادرة، المحرك يشتغل والمصابيح الأمامية تنير مكتب التذاكر. نركض، أنا ولوتسيو، معاً لنرى من في الداخل. هناك ثلاثة رجال وامرأة، ليس بينهم روسَانا. كنت مخطئاً، أفكّر، لقد أتينا إلى هنا من أجل لا شيء. الوقت متأخر والسماء قاتمةٌ كالحة.

"هل نعود إلى المنزل؟" يسأل لوتسيو. الجو بارد. ندخل صالة الانتظار نبتغي بعض الدفء، نجلس على المقعد، فنراها أخيراً جالسةً في

إحدى الزوايا، جادة ونظرها مثبت في الأرض كالمعتاد.

أشير إلى لوتسيو أن يبقى صامتاً وأدنو منها بهدوء. ما إن تراني، تهبّ واقفةً كأنها ستهرب. لكنها تتريث. هي لا تعرف حتى أين ستذهب. أخرج من جيب معطفي قطعة جبن البارميزان وأقدمها إليها. تأخذها بصمت وتلتهمها بلقمتين. لم تأكل شيئاً منذ الصباح.

"أعرف أن الأمر غريب في البداية"، أقول لها، "أنا أفهمك...".

"لا يمكنك فهم شيء على الإطلاق"، تجيب بصوت فتاة بالغة، "أنا لست مثلك. لست مثل أي واحد منكم".

أشعر بالانزعاج، ماذا يعني ذلك؟ لوتسيو على المقعد المقابل ينتظر. تحاول روسانا أن تصلح ضفيرتها الشعثاء: "لم نفتقد أبداً أي شيء في منزلنا. هل تعرف أين أقطن؟ إذا أخبرتك، ربّما تضحك. في أحد أجمل شوارع المدينة. لقد أرغمني أبي لأنّ علينا أن نكون قدوة للآخرين كما قال. لمجرد ترك انطباع جيد لدى الآخرين فقط. توسلت أمي إليه لكنه لم يستجب. لماذا أنا تحديداً؟ ما علاقتي بالأمر؟ هذا ليس عدلاً!" تبكي وتشهق. إحدى ضفائرها تنحل والشريطة

الحمراء تنتهي على الأرض. يلاحظنا مدير المحطة، فيقترب منا: "أين آباؤكم يا أطفال؟" "بعيدون"، تقول روسَانا وهي تواصل البكاء، "بعيدون جداً".

أنا ولوتسيو نشرح له الأمر، فيقول: "سأتصل حالاً برئيس البلدية كوراسوري".

بعد وقت قصير يصل شخصياً. إنه هادئ كما في عشاء الليلة الماضية، ويبتسم: "يا له من حظ في هذه الأمسية! ثلاثة أطفال شجعان دفعةً واحدة. لكنكِ أخطأتِ كثيراً"، يقول موجهاً حديثه إلى روسَانا، "لا يجوز الهرب هكذا دون أن تتذوقي على الأقل التورتيلِّيني الذي تحضره روزا، ناهيك عن اللحم المقدّد...".

أراقب لوتسيو بطرف عيني لكنه لا يعلّق، ربما حتى لا يصغي إلى الحديث. ينحني لالتقاط الريبان الأحمر الذي سقط من روسَانا ويدسّه في جيبه.

لا أحد يجيب عندما نقرع الجرس. كل الأضواء مطفأة. ثم نسمع خواراً مخيفاً من الإسطبل. نركض ونجد روزا ويداها ملطختان بالدماء. تصرخ روسَانا وتهرب إلى الخارج. أنا أتوارى خلف رئيس البلدية بينما يهرع لوتسيو لملاقاة أمّه. بعد لحظات يسمع نحيباً آخر لكنّه خفيض مثل صرخة

طفل. تشير روزا لنا أن نقترب، وحتى روسّانا تعود إلى الداخل لترى ما حدث. البقرة مستلقية بطولها ووجهها ينمّ عمّن رأى الموت بعينيه. العجل الوليد ما زالت جفونه ملتصقة ويشكو من الجوع. تدنو روسّانا بيدين مرتعشتين. لكنها تبتسم بمجرد أن تراه، وتداعب رأسه: "كُل يا صغيري، أمك هنا بالقرب منك".

هو يشم رائحة البقرة، يلتصق بضرعها ويبدأ الرضاعة. يصل من مؤخرة الإسطبل أيضاً ريفو الذي كان قد ذهب لإحضار التبن. "بما أنكم تتجولون في الليل دوني، سأختار اسم العجل الجديد"، قال مبتسماً.

"هذا لا يجوز، إنه دوري، وعليَ أن أقرر"، يتمرد لوتسيو.

"هذا صحيح"، تتدخل روزا، "إنه دور لوتسيو، حتى لو أنه لا يزال مطالباً بالتوضيح لي ما الذي كان يفعله في الأرجاء مع رئيس البلدية في هذه الساعة".

ينظر لوتسيو إلى العجل، ثم إليّ، ثم إلى العجل مرة أخرى.

"لقد قررت. سأسميه أميريغو"، يقول ويخرج من الإسطبل.

أنا أبقى متسمّراً مكاني، وللحظة يبدو لي أن لا شيء حقيقيّ. في هذه الأثناء يجثم العجل الذي انتهى من الرضاعة تحت أمه ويغفو. له ساقان رفيعتان مثل الأغصان الطرية، الوبر قصير جداً ونحيل لدرجة يمكن معها عدّ أضلاعه حين يتنفّس. ويحمل اسمي.

عندما اجتمعنا في المطبخ جميعاً، أرادت روزا معرفة السبب الذي خرجنا من أجله في الظلام. "لقد ذهبا للبحث عن شيء كان قد ضاع"، قال رئيس البلدية ألفيو ناظراً إلى روسّانا، "كان عملاً بطولياً، يا روزا، لا يستوجب التوبيخ، بل يستحقان وساماً". أنا تخيلت وجه أمّي وهي تراني أعود بوسام مثل مادّالينا كريسكولو.

في اليوم التالي، طلبنا المدير لينين، أنا ولوتسيو، ووضع بالفعل وساماً على صدرنا مع شريط ثلاثي الألوان. أراد زملاء الصف أن يعرفوا السبب فروينا لهم القصة أضخم مما هي في الواقع. أثناء الاستراحة تأتي روسّانا لوداعنا، ضفائرها عادت مرتبة كما في السابق، وترتدي ثوباً سماويّاً جميلاً، ولأوّل مرة، أراها تبتسم وهي تقول إن أباها سيأتي ليأخذها إلى المنزل.

يُخرج لوتسيو الشريطة الحمراء التي فقدتها مساءَ مولد العجل، ويقدّمها إليها. "احتفظ بها

للذكرى"، تقول. فيضغط لوتسيو قبضته وتختفي الشريطة فيها.

المعلّم فيزّاري يطلب أن يجلس كل تلميذ في مكانه، وبما أن بينيتو يعاني من النكاف، رغب الجميع في أن يجلسوا في مقعده الشاغر جواري. "سأجلس هنا"، قال لوتسيو، "أنا أخوه"، ويأتي ليستقر معي في النسق الأخير.

24

بدأت العطلات ولم نرَ روسَانا بعد ذلك. في مطلع السنة الجديدة، ذهبنا للاستماع لحفل الجوقة في قاعة البلدية الكبيرة، وأخبرنا رئيس البلدية أن أباها كان قد أتى لاصطحابها قبل بضعة أيام من عيد الميلاد. لقد قالت روسَانا الحقيقة. إنها ليست مثلي. تركت بطاقة تهنئة لثلاثتنا، لكن لوتسيو لم يشأ أن يقرأها. لقد أضاعت فرصة لا تعوض، كما أعتقد، بفقدها احتفال "Befana del partigiana"[18] الذي نظَّمته دِرنا.

[18] احتفالية تقام تخليداً لذكرى المقاومين ضد النازية تزامناً مع عيد الغطاس.

الساحة الكبيرة، مع برج الأجراس الشاهق، مليئة بالأضواء وأجواء الاحتفالات. الرفيقات متنكرات بملابس العجائز، أنوفهن طويلة وأحذيتهن مهترئة. ريفو ولوتسيو يضحكان. أنا لا أضحك، لأنني اختبرت الأحذية المهترئة، إنها تؤلم ولا تدفع إلى الضحك. نتلقّى، نحن الأولاد جميعاً، القادمين من الجنوب ومن يعيشون هنا، كيساً من الحلوى ودمية خشبية.

ألتشيدة وروزا يشربان النبيذ الأحمر ويرقصان. أنا وريفو ولوتسيو نلعب مع رفاق المدرسة. ناريو

في العربة ورغم الموسيقا والأصوات، فإنه نائم بعدما تناول طعامه. عندما تبدأ السباقات، يصدف أن نكون في الفريق نفسه. وفي النهاية، نفوز بِشارَةٍ وثلاث ثمرات من البرتقال. لم أفز بأي شيء من قبل، حتى في سحب اليانصيب الذي تنظمه باكيوكيا في آخر السنة، لأن أمّي لم تكن تملك النقود لشراء البطاقة.

بعد ذلك حان دور الجوقة. عندما يصفّوننا في نسق واحد، يقف بجانبي طفل بشعر أجعد ممشط إلى الوراء بالجِل. للوهلة الأولى لم نتعرف إلى بعضنا بعضاً.

"آميريه، أهذا أنت؟ تبدو لي كأنك ممثل سينمائي!"

"خفّف تهريجك توماسية. يا لكميّة السلامي التي أكلتها؟ لقد أصبح كرشك شبيهاً بكرش باكيوكيا".

ألمح في الجانب الآخر من الساحة الرجل ذا الشارب الذي أخذه، مع زوجته بذراعيها الضخمتين وصدرها العارم. هناك أيضاً ولدان أكبر سناً يشبهان والدهما، ومع شاربين أيضاً. الأب يحيي توماسينو بيده من الأعلى بينما نغني ويبدو لي أنه أيضاً يشبهه الآن إلى حدّ ما. لوتسيو يقف على بعد صفين في الأمام وبين

حين وآخر يلتفت بدافع الفضول. هو يعرف الجميع تقريباً، وأنا لا.

لكن الآن بالعكس، أرى القزم الأسود أيضاً. الأشقر الدِّقِم الذي يبدو أنّ أسنانه نمت في هذه الأثناء.

والعديد من الآخرين الذين سافروا معي. لكن معظمهم الآن جميل وأنيق ويصعب التفريق بينهم وبين أولئك الذين يعيشون هنا في الشمال. أنا وتومّاسينو نتفق أنّ ماريوتشا يجب أن تكون هنا ونبدأ البحث عن طفلة شقراء وضامرة، بشعر قصير أسوة بالصيصان، لكننا لا نعثر عليها.

نجلس على مقعد بالقرب من السندويشات. تصب لنا إحدى الرفيقات المتنكرات بزي العجائز عصير البرتقال ونتفرج على أولئك الذين يمارسون لعبة المطاردة. يأتي لوتسيو أيضاً، حتى أن تومّاسينو، بعد لحظات، يخبره عن الجرذان المطلية، ولكن لحسن الحظ، أرى ماريوتشا في تلك اللحظة بالذات. الوالدان اللذان أخذاها في اليوم الأول يمسكان بيديها من الجانبين. لقد نما شعرها وأصبح مجعداً وجميلاً، مثل شعر السيدات في ملصقات الأفلام. الوجه مستدير، ترتدي فستاناً وردياً غامقاً وخدّاها باللون نفسه، وحزاماً مصنوعاً من الزهور المضفورة وتحمل

الزهور نفسها على رأسها أيضاً. لقد أصبحت ماريوتشا جميلة.

أنا وتومّاسينو نبقى صامتين. كلانا لا يمتلك الشجاعة لمناداتها لتتعرّف إلينا، لكنها، حالما ترانا، تتقدم وتعانقنا بحرارة. إنه مجرد عناق من ماريوتشا، لكنه يترك لديّ انطباعاً غريباً، ولدى تومّاسينو، على ما يبدو.

"إذاً، كيف الحال؟" أنا أتجمد مكاني. "ماما، بابا، هؤلاء هم رفاقي من الجنوب"، تقول للسيدة الشقراء ولزوجها، وأنا أفهم أن ماريوتشا لن تعود معنا لأنها وجدت عائلتها.

أنا أريد العودة إلى أمّي أنطونييتّا، لكن قبل ذلك عليّ الانتهاء من كلّ الأمور التي سأفعلها هنا. عليّ بناء المخبأ السرّي خلف الإسطبل مع ريفو ولوتسيو، ويجب أن أروّض العجل الجديد، وأن أتعلم جيداً العزف على الكمان مع المايسترو سيرافيني.

في البداية، ظننت حقاً أن هذا ليس من شأني. كانت أصابعي تؤلمني، وعوضاً عن الموسيقا كنت أصدر أصوات مواء القطط عندما تتشبث ببعضها بعضاً في الليل. كنت عبر نافذة متجر ألتشيدة أراقب الأطفال الآخرين الذين يلعبون بكرات الثلج فيما أمكث لساعات وساعات أكرّر في وجه

المايسترو: دو – وو – وو– وو. إلى أن توقف الكمان، في إحدى الأمسيات، بفضل تكرار التمرين، عن المواء وسمعت أخيراً بعض الموسيقا. لم أصدق أنني ابتدعت ذلك اللحن بيدي.

ثم، قبل أن أغادر، لا بد لي من مساعدة دِرنا لتنظيم الشيوعية، فهي تتعب بمفردها. إنها تعمل كثيراً طوال اليوم. وفي المساء، تأتي لتأخذني من عند روزا. نعود معاً. تبقى إلى جواري في السرير لبعض الوقت. نتحدث عن أمور اليوم. تقرأ لي قصة من كتاب مليء بالحيوانات، مقسّمين إلى أشرار وطيّبين: الثعلب، الذئب، الضفدع، الغراب.

في كل صفحتين أو ثلاث هناك شخصية ملوّنة. في بعض الأحيان، تضع دِرنا إصبعها تحت إحدى الكلمات. "الآن اقرأ أنت"، تقول لي. أو إذا كنا متعبين حقاً، تغني لي أغنية لتجعلني أغفو. وبما أنه بات مفهوماً أنها لا تعرف التهويدات، تغني لي أغنيات أخرى تعرفها، مثل تلك التي تقول: "العلم الأحمر سينتصر"، ثم في النهاية أصرخ: "تحيا دِرنا، روزا والحرّ – ي – ة!"

عندما تعلق الأمر بتنظيم احتفالية "Befana del partigiane"، كنا نجلس في المساء إلى طاولة المطبخ وكانت هي تطلب مشورتي: كيف

نزيّن الجوارب، ما الألعاب التي يجب تنظيمها، أي أغنيات يجب أن تعزفها الأوركسترا. لكن بعد الاجتماع الأخير بشأن الاحتفالية، جاءت دِرنا لتأخذني من بيت روزا بوجه قاتم. أنا وريفو ولوتسيو كنا نلهو بتجميع القطع الخشبية التي صنعها لنا ألتشيدِة.

عادة ما تمكث قليلاً للدردشة أو لتناول كأس من النبيذ الأحمر. إنما في ذلك المساء لم تخلع حتى معطفها، وصحبتني. في المنزل، كانت دِرنا صامتةً. ظننت أنه ذنبي بسبب نصائح غير صائبة أعطيتها لها فغضبت مني. ولكن عندما خلعت معطفها، لاحظت أن خدها أحمر، كأنها تعرضت كثيراً للشمس أو للبرد القارس. ثم جلسنا إلى الطاولة، وفجأة انخرطت بالبكاء.

لم أرها تبكي من قبل، ولذا بدأت أبكي أيضاً. بقينا هكذا مثل أحمقين إلى طاولة المطبخ نذرف الدموع فوق طبق حساء المعكرونة. لم تكن تريد التحدث عن السبب، كانت تقول إنه لا شيء. وذهبنا إلى النوم لكن دون قصص الحيوانات ولا الأغاني.

في اليوم التالي الذي كان السبت، بينما كنا، أنا ولوتسيو، نلعب الغميضة، سمعت دِرنا تتكلم مع روزا.

كانت تقول إن أحد الرفاق، وهو شخصية مهمّة، قد أتى لحضور الاجتماع. لم يكن لديه ما يقوله حول تنظيم الحفل، لأنها مع الأخريات أعددن كل شيء جيداً. ثم أراد المسؤول الكبير الحديث إليها بمفردها. شرحت له دِرنا ما كانت تفعله مع النقابات ومع الحملة الانتخابية. فألمح لها أنه من الأفضل لو تهتمّ بحفلات الأطفال والجمعيات الخيرية. كنت مختبئاً في المطبخ، بين الموقد وغرفة المؤونة، لأتجسس أفضل.

أخبرت دِرنا المسؤول الحزبي أن هناك نساء قاتلن جنباً إلى جنب مع الثوار وأنهن أطلقن النار بالبندقية ونلن الأوسمة أيضاً. تذكّرت وسام مادّالينا كريسكولو وجسر حي سانيتا الذي لم ينفجر بفضلها. فسألها ذاك هل هي أيضاً ترغب في وسام. ردّت دِرنا بأن الوسام يجب أن يمنح للكثير من النساء لوجودهن في الحزب، وعندئذ صفعها بقوة. لم تبكِ، كانت تقول لروزا. بقيت في مخبئي ألوذ بالصمت. أمّي أنطونييتا ما كانت لتقبل الصفعة دون أن تردّها الصاع صاعين. أما دِرنا، فبدأت الغناء، كما فعلت مادّالينا في ذلك اليوم في المحطة: "مع أننا نساء، فإننا لا نخاف...". بما أنها كانت إحدى التهويدات التي تغنيها لي في المساء قبل النوم، خرجت من

المخبأ للانضمام إليها، ولكن دِرنا وروزا صرختا وهما تضعان أيديهما على صدريهما خائفتين حين خرجت من خلف الموقد، وتوقفتا عن الغناء. لم أسمع بعد ذلك أي حديث عن المسؤول الكبير.

النساء المتنكرات بزي العجائز يضعننا في نسق واحد، كلّ على حدة، ويعصبن أعيننا بالمناديل. يجب علينا أن نصيب بعصا طويلة قِدراً من الفخار معلّقاً على عمود. من ينجح، يأكل الحلوى داخله. "إنها لعبة القِدر"، يوضح لنا لوتسيو، "هل تلعبونها في الجنوب؟" "تقريباً"، يجيب تومّاسينو. "ماذا تعني بذلك؟" يسأل لوتسيو. "بالعصا دون قِدر"، يجيب تومّاسينو.

عندما يحين دوري، أمسك العصا بكلتا يدي. تعصب دِرنا عيني. بينما أستعد للضرب، أتذكر يومي الأول. بقيت الأخير حتى ظهرت هي. بدت لي حينذاك كبيرة وقوية لكنها الآن تقلّصت. صحيح أنها تعرف أشياء كثيرة بما فيها القليل من اللاتينية، لكنها في أمور الحياة أكثر جهلاً من طفل. إن لم أكن أنا معها، فمن سيدافع عنها؟

هكذا تخيلت قرعة ذلك المسؤول الكبير وضربت بكل ما أوتيت من قوة فتحطّم القِدرُ مصدراً صوتاً شبيهاً بتكسّر الزجاج. جميع الأطفال

يهللون فرحاً ويعلو صراخهم فيما يغمر وجهي سيل من الحلوى.

لقد انقضى عيد الميلاد وعيد الغطاس كذلك. التفاحة التي أعطتني إياها أمي أثناء المغادرة بقيت طوال الوقت على طاولتي. كنت أرغب في الاحتفاظ بها للذكرى، لكن يوماً بعد آخر ذبلت وصارت قاتمة ولم يعد في وسعي أكلها.

”روزا“، أقول ذات يوم بعد عودتي من المدرسة، ”متى عليَ أن أغادر؟“

تتوقف روزا عن نزع حبات الفاصولياء من قشورها، وتصمت لحظة مستغرقة في التفكير. ”لماذا تسألني؟ ألست مرتاحاً عندنا هنا؟ هل اشتقت لأمك؟“

”لا، أجل، قليلاً...“، أقول، ”لكن أخشى ألّا أشتاق إليها بعد الآن“.

تعطيني روزا بعض القرون لتقشيرها. ”أترى كم حبة فاصولياء يوجد في كل قشرة؟ هناك متسع لعدد من الثمار، مثلما الحال في قلبك“.

تقلب قشرة الفاصولياء وتريني داخلها. ”عُدّها“، تطلب. أمرر إصبعي على كلَ حبَة. ”سبع“، أجيب. ”أرأيت؟“ تلامس أنفي بقشرة فارغة لتدغدغني، ”نحن جميعاً هنا. أنا والتشيدِهْ،

دِرنا، الأولاد وأمّك كذلك. في وسعك الاحتفاظ بنا جميعاً".

تسرني مساعدتها. أن أفتح القشرة القاسية الرطبة وأخرج كل الحبات البيضاء منها بإصبعي واحدة واحدة. أحبّ أيضاً الإيقاع الذي تحدثه حبات الفاصولياء عندما تتساقط في وعاء الحساء المصنوع من السيراميك، كما أحب رؤية القشور وهي تتراكم في زاوية الطاولة.

تدير روزا رأسها ناحية النافذة وتقول: "ستغادر عندما تصفرّ الحقول وتطول سنابل القمح".

أنظر فوراً إلى الخارج للتحقّق في أيّ مرحلة هي الحقول الآن. لا شيء بعد. الهواء بارد والحقل رمادي.

بعد أسبوع يحلّ الطقس الجيد. دِرنا، العائدة من العمل، تقول لي: "سنذهب جميعاً بالحافلة إلى بولونيا غداً".

أنظر من النافذة. لا توجد سنابل طويلة. "هل تبغون إعادتي؟ لم ينتهِ بناء المخبأ بعد...".

"وعندما يعزف على الكمان، عليكم أن تسدّوا آذانكم!" يسخر مني لوتسيو.

أرغب في أن أجيبه أنّ هذا غير صحيح لأن المايسترو سيرافيني يقول إنني أتعلم وإنني موهوب.

لكن أفكّر بعد ذلك أنه قال ذلك ليمنعني من العودة إلى المنزل فقط. لكن دِرنا تطمئننا وتقول إنّ اللحظة لم تحن بعد. علينا الذهاب إلى بولونيا لأن هناك مفاجأة.

في اليوم التالي، نترَجل من الحافلة مرتدين جميعاً ملابس المناسبات. نمشي باتجاه المبنى الذي فيه عهدوا بنا إلى عائلاتنا الجديدة. الطاولات مجهزة مرة أخرى عند المدخل وكذلك الفرقة الموسيقية. أتشبّث بِدرنا خوفاً من أن يأخذوني بعيداً، فكلّ شيء يبدو مماثلاً لذلك اليوم، كأنها رحلة العودة.

عندما يبدأ الموسيقيون العزف، تصعد دِرنا المنصة الخشبية وأجد نفسي وحيداً مرة أخرى. أودّ أن أخبرها أن تنزل وألّا تغني لأنها، وهو ما لم أصارحها به أبداً، تنشز قليلاً. لحسن الحظ، كانت ستتحدّث فقط. تقول إنه لدينا ضيف مهم. امرأة ذكية، تفكّر بحياد. وإنها دُعيت لتشهد شخصياً أحوال أطفال القطار. وإنها خاضت رحلة طويلة ومرهقة لتحمل الأخبار إلى أمّهات المدينة. تصدر عن الأوركسترا دقات الطبول وتظهر على المنصة سيدة قصيرة وضخمة كبارجة، ذات شعر معقود إلى الخلف وحزام ثلاثي الألوان على صدرها.

أكاد لا أصدّق. بين الحشد ألمح توماسينو في النسق الأول جوار الأب ذي الشارب. أشقّ طريقي إليه وأقول له: "لنهرب. لقد وجدتنا باكيوكيا!"

هو لا يسمعني لأن باكيوكيا أخذت الميكروفون وبدأت الصراخ عبره. تقول إنها سعيدة بالدعوة، وإنّ بعض الشكوك اعترتها في البداية حول حقيقة القطارات هذه، لكنها الآن هنا وترى أننا جميعاً أصحاء ونرتدي ملابس جيدة. وتشعر أنّها أيضاً شيوعية قليلاً، حتى لو بقيت مناصرة للملكية بدافع الولاء. ثم تبتسم بفمها الخالي من الأسنان وتبدأ التصفيق. تخفض باكيوكيا رأسها قليلاً وتنحني، مثل مغنية في عيد بييديغروتّا.

في هذه الأثناء، تنضم دِرنا إلينا وتقف جوار توماسينو.

"لكن كيف عثرت علينا؟" أسألها.

"نحن دعوناها ليفهم الجميع أنكم ما زلتم تحتفظون بأيديكم وأقدامكم ولم يُرسل أحد منك إلى روسيا".

"أي أنها لن تعيدنا معها؟" أسأل للاطمئنان. يلكزني توماسينو ويضع سبّابته فوق شفتيه.

"فعلت باكيوكيا خيراً بمجيئها!" تضحك، "هنا الشوارب ليست أمراً غريباً".

تتجول باكيوكيا في الصالة. رئيس البلدية يدعوها لتذوّق الأطباق المشهورة هنا. هي تأكل وتشرب وتتحدث بصورة متواصلة. أراها تدنو من كلّ طفل لمعرفة: الحي الذي جاء منه، من أمّه، من أبوه، كيف حاله، هل يرتاد المدرسة. وهكذا دواليك. إجابات الجميع تقريباً هي نفسها. لقد شعروا بالحنين في الأيام الأولى، لكنهم شيئاً فشيئاً تعوّدوا، وهم الآن يعيشون أفضل ممّا كانوا عليه في منازلهم. نذهب، أنا وتومّاسينو، إلى الأسفل ونسحبها من ثوبها. "دونا باكيوكيا، دونا باكيوكيا!" لا تعرفنا حالاً. لكنها تستدرك بعد ذلك وتظهر لنا لثتها. "دونا باكيوكيا، أرأيتم؟ هنا توجد الكر – ا – مة!" أقول لها.

تحاول معانقتي. "صغيري الجميل، كيف أصبحت كبيراً. أمك أنطونييتا لن تتعرف إليك حين تعود. تعال إلى هنا، أعطني قبلة". وأشعر بشفتها المشعرة على وجهي، فيما يتمكّن تومّاسينو من الفرار. أسألها عن أمي، عن زاندراليونا وأناس الزقاق. لقد ابتدعت الكثير من القصص كي لا نغادر، والآن، من يدري، ربّما أجد صورة لينين في منزلها مكان الملك أبي الشوارب عندما أعود.

في نهاية الحفل، يلتقطون صورة لنا. "ابتسموا"، يقول المصور. لكن باكيوكيا لا تبدو راضيةً بعد. "انتظروا!" تلتفت إلينا وتأمرنا أن نرفع أيدينا، "هكذا ستعجز ألسنة السوء عن الادعاء أنهم قطعوا أيديكم!"

عندما رأيت الصورة معروضة في مدرستنا، كنا هكذا، مع كل الأسنان والأصابع في الخارج.

26

وعدتني دِرنا أننا في أول يوم مشمس حقيقي سنذهب إلى هناك، وها هو ذاك اليوم. استيقظنا متأخرين، لأنه الأحد. فتحت عينيَ على ضوء أبيض يتسلل من أبجور النافذة راسماً خيوطاً على الملاءة. نظرت عبر النافذة لأرى الحقول وقد اكتست بالأصفر والسنابل تنمو، لكنها ليست طويلةً بعد.

في المطبخ، وجدت دِرنا حاضرةً بفستان جميل لم أره قبل أبداً. دائماً ترتدي القميص الأبيض مع التنورة الرمادية والسترة، حتى الأحد. قبل ذلك كانت ترتدي الأسود ثمَ أعلنت نهاية الحداد، وأنه ينبغي التطلع إلى الأمام. أنا رأيته في صورة تحتفظ فيها دوماً في حقيبتها ولا تسمح لأحد برؤيتها.

أمس فقط أرتني إيّاها. قالت إنه كان شجاعاً ورفيقاً حقيقياً. وأضافت أنه توفّي أثناء عملية ضد الفاشيين. ثم أغلقت المحفظة ولم تقل شيئاً آخر. مع ذلك، استغنت اليوم عن الألبسة الداكنة وأخرجت الثوب الفاتح.

كان الفتى في الصورة نحيفاً وذا وجه مرح. أخبرتني روزا أنني أشبهه. تقول إنّ عينيه كانتا زرقاوين أيضاً، وإنّ دِرنا تعرّفت إليه خلال اجتماع حزبي. كانت تلقي خطاباً على المنصة فيما كان روزا والتشيدة يجلسان مع الآخرين وينصتان إليها. وفي لحظة، دخل بعض الشبان ووقفوا قرب النافذة. التفتت دِرنا نحوهم ورأته فصمتت وعجزت عن الكلام للحظة قبل أن تستدرك نفسها وتواصل خطابها.

كان الشاب واقعاً في حبها ويريد الزواج بها بعد نهاية الحرب. لكنه كان يصغرها بسنتين، وأولئك الحزبيون يعارضون. تقول روزا إن الرفاق أحياناً يكونون أسوأ من نمّامات القرية. يتبجّحون بالحرية للثرثرة فقط، ثم يرفضون منحها، خاصة للإناث. عانت دِرنا من هذا الأمر.

عندما وقعت المصيبة، ارتدت الملابس القاتمة ولم تعد تتحدث إلى أحد. انهمكت في العمل وأقلعت عن الابتسام. "ثم أتيت"، قالت روزا، ثم قرصتني من خدي كما تفعل مع أولادها.

تضبط دِرنا الفستان الفاتح عند الوركين فتبدو صبيّة، وكذلك تضع قليلاً من أحمر الشفاه.

"جميعنا ذاهبون إلى البحر اليوم"، وتضع في السلّة شطائر الجبن واللحم المقدّد، وزجاجة من

الماء. لقد أعدّت لي أيضاً قميصاً أبيض بأكمام قصيرة، وزوجاً من السراويل الزرقاء القصيرة، وحذاءً بفتحات متعددة، وكلّها جديدة. لم أعد أحسب نقاط الأحذية لأنهم هنا جميعهم ينتعلون أحذية جديدة أو مستهلكة بعض الشيء، وليس ثمّة طفرات. ثمّ في حال بلغت المئة، لا أعرف ما الذي سأطلبه أكثر وأنا هنا لا ينقصني شيء. لذا تنتابني الرغبة في الركض. أركض في المطبخ، حول الطاولة، ثلاث مرات، أربع مرات. أخيراً أقع على دِرنا وأحضنها بقوة. هي تترنّح وقد فقدت توازنها فنتدحرج على الأريكة. لكنني لا أتركها، أدفن وجهي في بطنها وأتنفس رائحتها. دِرنا أيضاً لا تتركني، نبقى متعانقين على الأريكة، نضحك مثل أحمقين بملابسنا الربيعية.

عندما يقرع التشيدة الباب مع ريفو ولوتسيو، تأخذ دِرنا السلّة ونمشي جميعاً برفقة روزا، وطفلها الأصغر بين ذراعيها، نحو الحافلة التي ستحملنا إلى البحر. بصوتٍ واحد، نغنّي جميعاً أثناء الرحلة: تحيا دِرنا وروزا والحرّ – ي – ة.

على الشاطئ الشمس قويّة والهواء حار. البحر هادئ وأملس كأنّه ممَشط. ثمّة أطفال وصلوا قبلنا، كثيرون منهم كانوا معي في القطار. تومّاسينو، حالما رآني، تلقفني بكرات الرمل.

ماريوتشا ليست هنا. يقول توماسينو إن أبويها الجديدين يريدان الاحتفاظ بها إلى الأبد. "والأبُ الإسكافي؟" أسأله. يشمّر توماسينو سرواله ويخلع جواربه. يرفع عينيه نحو السماء ويقول إنهم سيسدون خدمة للأب الإسكافي إن أزاحوا الابنة عن كاهله. أنظر إلى دِرنا وروزا وألتشيدِة. من يدري، هل يرغبون أيضاً في إبقائي معهم إلى الأبد.

"أبي الذي هناك في الأعلى يقول إنّ بإمكاني العودة متى أشاء"، يخبرني توماسينو، "وإن الباب مفتوح دائماً. سيأتون لقضاء عطلة الصيف معنا في الجنوب. سيواصلون التفكير فيّ ومساعدتي بعد ذلك".

أخلع سروالي وأبقى بمايوه السباحة ذي الخطوط البيضاء والزرقاء الذي أحضرته لي دِرنا. ينفجر توماسينو ضاحكاً. "لكن ماذا تفعل؟ تبقى بالكلسون أمام الجميع؟"

"إنه لباس السباحة".

"لكنك قلت إن البحر عديم الفائدة؟"

"أتريد أن ترى؟"

أركض على الشاطئ وأتوغل في الماء. الرمل تحت قدميّ بارد وطريّ لكنني لا أتوقف. أتابع حتى تصل المياه إلى ركبتيّ. إنها شديدة البرودة،

لكنني لن أترك توماسينو يشمت. أريد أن أريه أنني مثل الشماليين. كانت دِرنا في شبابها سبّاحة ماهرة. شرحت لي كيفية السّباحة وأنا متأكد أنني أستطيع ذلك. توماسينو يناديني من الشاطئ: "أميرية، أين تذهب؟"

ألتفت لكنني لا أتراجع. أرى دِرنا تحت المظلة تتحدث مع بعض السيدات. "دِرنا، انظري إليّ"، أناديها، وبمجرد أن تستدير أغوص في الماء الذي يغطي وجهي. أحرّك يديّ ورجليّ بقوة، كما أخبرتني، وأخرج رأسي. بعد ذلك أشعر بالمذاق المالح يملأ فمي وأنفي، وينقصني النفس. أغوص ثانية ولا أستطيع إبقاء عيني مفتوحتين.

لم أكن أعتقد أن ماء البحر هكذا. يبدو خفيفاً لكن ما إن يغمر رأسك، حتى يصبح ثقيلاً ويدفعك إلى الأسفل. بينما أغطس، أتذكر كلمات دِرنا فأعاود تحريك يديّ وقدميّ وقد باتت متعبة. أتمكن من إخراج رأسي ثانية وأرى توماسينو يبكي بشعره الأجعد المنكوش، كما كان قبل حِلّ أبيه الشماليّ. دِرنا تركض على الرمل مع ثوبها الفاتح الذي يلتف على ساقيها. لا أرى وجهها لأنّ الماء يدخل إلى عيني ولم أعد أستطيع لمس القاع، لكنني واثق أنه بتعبير ذلك المساء نفسه، بعد الاجتماع مع المسؤول الكبير. لم أعد أحتمل،

أنا ذاهب إلى القاع. أفتح وأغمض عينيَ وأشعر بالملح يحرق حلقي. لا أتنفس.

ثمّ، ضغط على المعصمين. إنهما يدا دِرنا تمسكان بي، لا تتركاني، تعاركان ضد الماء.

تخفّ الوطأة على رأسي وتغدو مثل غشاوة على العينين. ذراعا دِرنا أقوى من البحر. تعيدني إلى السطح. ثم لا أرى شيئاً. وجه أمي أنطونييتا، ضحكات زاندراليونا، ومن جديد لا شيء.

أفتح عينيَ، دِرنا تضغط على صدري ومع كل ضغطة يخرج قليل من الماء المالح من فمي وأنفي. بعد ذلك تدفئني روزا بالمئزر الذي أحضرته لتستلقي تحت الشمس. ألتشيدِة يمرر زجاجة من الخلّ تحت أنفي. أرى ريفو ولوتسيو يقتربان صامتين، فيما يواصل تومّاسينو البكاء ولا يهدأ.

شعر دِرنا مبلّل وقد زال عن فمها أحمر الشفاه. عيناها صارتا رماديتين مثل البحر. "لا تتركيني"، أقول لها وأنا أضمّها بقوة.

"لن أتركك. سأكون بجانبك دوماً"، تجيب دِرنا. للمرّة الثانية نكون متعانقين في اليوم نفسه. لكن دون ضحك هذه المرّة.

الحقول صفراء، السنابل طويلة، لكن ليس ثمّة شمس هذا الصباح. ضباب خافت يخفي الطريق فيبدو الوصول مستحيلاً.

أعطتني روزا كيساً يحتوي على سندويشات، وفي الحقيبة، وضعت التورتيلّيني ومرطبانات مربّى الدراق والمشمش والبرقوق التي أعددتها بنفسها. قبل أن أغادر ذهبنا معاً إلى الفرن، ساعدتها بإخراج فطائر السلامي والجبن. لفّتها بورق الزبدة، ثم بمنشفة أطباق مخططة بالأبيض والأصفر. "هذا لك"، قالت. ثم أخذت الخبز إلى البيت. سيأكلونه مع طعام الغذاء من دوني.

كان ريفو ولوتسيو ينتظرانني خلف الإسطبل لنحفر أسماءنا أمام المخبأ الخشبي. كتب كلّ منّا اسمه. ثم أخذ ريفو السكين وأضاف في الأسفل بحروف كبيرة: **بنفينوتي**.

"هذا منزلنا"، قال. بدا لي غريباً رؤية اسمي جنباً إلى جنب مع كنيتهم، لكنني كنت سعيداً.

جاء ألتشيدِ لمناداتي: "هيا بني، وإلا سنفقد الحافلة".

اقترب ريفو ولوتسيو لوداعي. "انتظراني هنا"، قلتُ، وهرعت إلى الداخل عند دِرنا. عندما عدت، مددت يدي وقلت للوتسيو: "هذه لك"، كانت الكلّة التي أخذتها في اليوم الأول.

"احتفظ بها، أنا متأكد أنك ستعيدها إليّ عندما ترجع. أنت لست لصاً"، أجاب، ثم ابتسم وفرك عينيه بكمّ سترته.

في الحافلة ألتشيدِهْ صامت، وكذلك دِرنا التي خلعت ثوبها الفاتح من جديد بعد حادثة البحر، والابتسامة أيضاً. لرحلة اليوم، اختارت القميص الأبيض والتنورة الرمادية. خارج النافذة الجوّ رماديّ أيضاً. عبر الضباب يمكن رؤية بعض الأشجار التي نعبر جوارها فقط، والبيوت الداكنة. على الزجاج، يتساقط رذاذ المطر. نقطة نقطة في البداية، ثمّ يشتدّ بعض الشيء، وأخيراً تمطر. "بعد حرّ هذه الأيّام!" يعلّق ألتشيدِهْ.

منذ مغادرتنا كان صامتاً لم ينطق بكلمة. "المطر ضروري للمزروعات. أحياناً تبدو الأمور سيئة لكنّها جيّدة في الواقع. أليس كذلك دِرنا؟ صديقنا أميريغو يعود ليعانق أمه. علينا أن نكون سعيدين من أجله!" هي لا تجيب. لا أريد أن أراها حزينة. أخلع حذائي، كما في رحلة المجيء، وأهمس في أذنها: "هل نغني أغنية النساء؟"

دِرنا تبتسم بطريقة مصطنعة وتبدأ الغناء، لكن الأغنية تخرج حقيقية. بصوت منخفض بدايةً، ثم، عندما ننزل من الحافلة، بصوت أقوى وأقوى: "مع أننا نساء، فإننا لا نخاف، من أجل حبّ أولادنا، من أجل حبّ أولادنا. مع أننا نساء، فإننا لا نخاف، من أجل حبّ أولادنا، غَضبة نكون...". وفي كل مرة نقول فيها كلمة "أولادنا"، تضغط على يدي، كما حدث عندما أخرجتني من البحر. أنا وألتشيدِة نتبعها. نحن الثلاثة نغني بكل ما أوتينا من قوة، في الشارع، داخل المحطة، ممسكين بأيدي بعضنا بعضاً، نغني دون توقف أبداً حتى القطار.

القطار مليء بالأطفال، لكن أقل من رحلة المجيء. البعض بقي مع الآباء الجدد في الشمال، مثل ماريوتشا، والبعض عاد مسبقاً، مثل روسَانا، لأنها لم تصمد، من الحنين أو من الغضب. أرى توماسينو بين الحشد، شعره أملس من الجِل. لدى أبيه شاربان طويلان ومعقوفان إلى الأعلى. الأم ذات الصدر الشامخ أعطت لتوماسينو حقيبة مليئة بالمأكولات، كما فعلت روزا معي. يدخل ألتشيدِة إلى المقصورة ويرتّب الحقائب، بينما تمسك دِرنا بيدي من خارج النافذة.

لا نقول شيئاً. نواصل غناء أغنيتنا إلى أن ينطلق القطار وتفلت أصابع دِرنا من يدي. تبدأ بالتضاؤل، تصبح أصغر فأصغر إلى أن يغدو قميصها مجرّد نقطة بيضاء. بقيت وحدي وسط الآخرين.

"ما خطبك؟" يقول توماسينو، "هل تشعر بالفقد؟" لا أجيب. أستدير إلى الجانب الآخر وأتظاهر بالنوم.

"إنه أمر طبيعي"، يقول، "الآن أصبحنا مقسمَين إلى نصفين". لا يروق لي الكلام. يفتح توماسينو سترته ويريني التطريز الذي صنعته والدته الشمالية. يقول إنها خاطت النقود داخل البطانة ليعود إلى الشمال مرة أخرى إذا شعر برغبة في ذلك.

"تصبح على خير، توماسيهْ".

"تصبح على خير، آميريهْ".

أتأكد باستمرار من وجود الكمان في مكانه فوق رفّ القبعات حيث وضعه ألتشيدِه. أكرّر التمارين التي علّمني إيّاها المايسترو سيرافيني في ذهني لأستطيع تنفيذها في الجنوب. سأطلب إلى كارولينا أن تشرح لي أشياء إضافية. ربّما ترسلني أمّي، عندما تلحظ مهارتي، إلى المعهد الموسيقي أيضاً، وهكذا سيدعو ألتشيده

المايسترو سيرافيني إلى المتجر لسماع عزفي عندما أعود إلى مودينا. في هذه الأثناء، سيكون عجلي، أميريغو، قد نما وأصبح ثوراً فتياً، وسأساعد ريفو في إحضار الماء للحيوانات، وناريو سيكون قد تعلَّم المشي والكلام، ونذهب جميعاً لنحفر اسمه جوار أسمائنا عند المخبأ الخشبي.

لكنني تحسّست حافة السترة وشعرت أنه لا توجد خياطة سرّية ولا أي شيء آخر. لم تضع لي دِرنا نقوداً للسفر. وربما في غضون أسابيع، لن يتذكرني العِجْل. وهم أيضاً. في المساء، سيتحدثون عن أشياء أخرى حول طاولة المطبخ. عن الأطفال الجدد الذين وصلوا، عن البقرة التي ستكون حبلى مرة أخرى، وسوف يختارون اسم طفل آخر للعجل القادم.

كل ما امتلكته لم يعد لدي: كعكعة عيد ميلادي، العلامات العشر في الرياضيات من المعلم فيراري، الإشارات الضوئية عبر النافذة، رائحة البيانو، طعم الخبز الطازج، قمصان دِرنا البيضاء. أتناول الكمان من رفّ القبعات، أفتح العلبة، أمرِّر أصابعي على الأوتار وأقرأ اسمي على البطانة: أميريغو سبيرانتسا.

أفكّر في كارولينا وعندما سأريه لها، ومع هذه الفكرة أشعر بأن الحزن الذي يتسبب في انقباض بطني بات أقلَ وطأة. مع ابتعادي رويداً رويداً عن الحياة التي تركتها للتو واقترابي من الحياة السابقة، تتحول وجوه دِرنا وروزا والتشيدِة إلى وجوه أمّي وأنطونييتّا وباكيوكيا وزاندراليونا. توماسينو محقّ؛ نحن الآن منقسمون إلى نصفين.

الجزء الثالث

يدخل القطار إلى المحطة. أطلّ من النافذة باحثاً عن أمي أنطونييتّا، لكنها ليست هنا. رائحة الحشد تغزو أنفي أشبه برائحة إسطبل روزا لكن دون الأبقار.

حالما ننزل، يركض تومّاسينو للقاء عائلته القديمة. حتى أمس رأيته يحتضن الأب ذا الشارب والأم الشمالية، حتى أنه لا يحيّيني الآن ويختفي بين الناس، يداً بيد مع إخوته الحقيقيين ومع الدونا أرميدا، أمه الجنوبية. عندئذ أفكّر أن هذا ما سيحدث معي أيضاً، كل ما حدث في هذه الأشهر سيختفي بمجرد أن أرى أمّي أنطونييتّا. تنتابني الرغبة في صعود القطار مجدداً والعودة إلى هناك. ثم، من وراء رجل بدين يحمل حقيبتين بنيتين، ألمح أمي. إنها ترتدي الفستان الجميل مع الزهور وشعرها منسدل على الكتفين. هي لا تراني، لكنني أراها. تنظر حولها بعيون قلقة كالتي تكون لها عندما تروي قصة القصف حيث فقدت جدتي فيلومينا حياتها.

أركض بأقصى ما أستطيع وأحضنها من الخلف، أضغط أنفي على ظهرها وأشدّ ذراعيَ حول

وركيها. لكن أمي أنطونييتًا ربما تظن أنني لص وتضربني بكوعها على رأسي. عندما تستدير تصرخ: "تريد أن تميتني!" تنحني، تلمس رأسي، ذراعي، ساقيّ، كأنها تتحقق من أن كل أعضائي في مكانها. عيوننا في المستوى نفسه. تقرّب يدها إلى خدّي، كأنها تريد مداعبتي، وبدلاً عن ذلك، توضّب ياقة قميصي. في النهاية، تنهض، تضعني قربها لترى ارتفاع قامتي قياساً إلى طولها، وتقول: "لقد ازداد طولك. الأعشاب الضارة تنمو...".

طوال الطريق أمي تمشي صامتةً لا تطرح أيّ أسئلة، أنا أتكلّم فقط...

"عندما ولد العِجْل أطلقوا عليه اسمي"، أخبرها للتباهي، "بالفعل"، تقول، "لا يكفي حيوان واحد، الآن هناك اثنان يحملان الاسم نفسه"، وتصفعني على رقبتي، لكن برفق. أحاول من الأسفل أن أفهم هل تبتسم. يبدو أنها تفعل.

أواصل الحديث عن المنزل، الطعام، المدرسة، لكنها لا تصغي إليّ. مثل من يبصر مناماً وفي صباح اليوم التالي يرويه ولا أحد يبالي. لكن ما أرويه ليس حلماً. حقيبتي مليئة بالأشياء التي أهدوني إياها: كمان ألتشيدة داخل الحافظة والألبسة والأحذية الجديدة. إنها أشياء حقيقية.

نصل إلى زقاقنا. الجو شديد الحرّ، كل النسوة يحرّكن المراوح اليدوية لاستجلاب الهواء. تفتح أمي الباب وتضع الحقيبة على الأرض. أنا أبقى مع الكمان، لا أعرف أين أضعه. ليس لدي غرفة خاصة، لا أملك حتى سريراً. أنظر أسفل سرير أمي حيث كانت توضع أغراض كابا إيفيزو، فلا أجد شيئاً. أمي تقول: "لقد رحل كابا إيفيزو".

"هل أخذه الحراس مرة أخرى؟"

"لقد غادر مع زوجته وأولاده. إنهم يعيشون في منزل في أفراغولا. من الآن فصاعداً علينا تدبر أمورنا أنا وأنت فقط". تضع على الطاولة كوباً من الحليب والخبز البائت. "أتريد أن تأكل شيئاً ما؟ لا بدّ أنك جائع بعد الرحلة"، تقول. هذا ما كنت آكله كل يوم قبل السفر، ولكن يبدو لي الآن مرتّباً. تقلّصت الحياة مرة أخرى. أفتح الحقيبة وأخرج مرطبانات المربى، والجبن الطري، والجبن المتبّل، واللحم المقدّد والمرتديلا، وفطائر السلامي في المنشفة ذات الخطوط البيضاء والصفراء التي لا تزال تحمل رائحة مطبخ روزا، والمعكرونة الطازجة التي صنعتها صباح أمس. لقد ساعدتها في كسر البيض وعجنه مع الطحين الأبيض الذي كان يصل إلى المرفقين. يبدو لي كأنّ سنةً قد مرّت لا يوماً واحداً. أرتب كل

الأشياء كما لو كنّا في حفلة، وطاولتنا لا تتسع لها. أمي تلمس وتشم كلَّ شيء، كما تفعل في السوق للتحقّق من نضارة البضاعة. "انظروا إلى أين وصلنا، الأطفال باتوا يحضرون الطعام لأمّهاتهم".

أغمس خبز أمي في الحليب ثم أمدّ فوقه قليلاً من مربى روزا. "تذوقي، إنها مصنوعة من ثمار أشجارهم". تومئ برأسها رافضة: "كُلْ أنت، لا شهية لديّ"، وتخرج الملابس والدفاتر والكتب المدرسية، وقلم الحبر وقلم الرصاص. "كنت نوبل قبل السفر. لقد صنعوا منك في الشمال أستاذ موسيقا أيضاً" وتشير إلى الكمان.

تفتح الحافظة وتصل إلى أنفي رائحة الخشب والغراء في ورشة ألتشيدِة. "لقد صنعه أبي الذي في الشمال. اسمي مكتوب على البطانة، أترين؟"

"أنا لا أعرف القراءة"، تجيب.

"أتريدين سماعي كيف أعزف؟"

تحدّق أمّي في الفراغ: "اسمعني جيداً. أنت لديك أب واحد وقد سافر ليكسب ثروة. عندما يعود ثرياً أنت من سيجلب الهدايا للآخرين ولن نحتاج التسوّل من أحد".

تنزع الكمان من يدي وتنظر إليه كوحش غريب يمكن أن يعضّها بين لحظة وأخرى. "حتى ذاك الوقت سنتدبر أمورنا بأنفسنا. لقد كلّمت

الإسكافي مجدداً، سيضمك إلى ورشته. في البداية، تتعلم المهنة، ثمّ عندما تتقنها سيمنحك بعض النقود...".

أفكّر أنني أحلم بحياتي السابقة، وعندما أفتح عينيَ في هذه اللحظة، سأستيقظ في سريري في بيت دِرنا، مع الخطوط التي يرسمها الضوء على الملاءة. لكن لا. إنّه الواقع.

"يقول السيد فيراري إنني ماهر في الرياضيات..."

"وسيدك هذا يقول أيضاً إنه سيرسل إلينا النقود لنحصل على قوتنا؟" تؤنبني، "هل أوضحت للمعلم أن أمك لا تسرق، وأننا هنا أناس شرفاء؟"

تتجول في أنحاء الغرفة مزيلة كل الأشياء التي أحضرتها. الألبسة، الدفاتر، الأطعمة المتنوعة. ولا أستطيع حتى رؤية أين انتهت.

"أنت لا تحتاج هذا الآن"، تقول. يختفي الكمان والحافظة التي تحمل اسمي على بطانتها تحت السرير. ألوذ بالصمت وأدسّ يدي في جيبي وألعب بكلَة لوتسيو. ذاك ما تبقى لي.

”دونا أنطونييتّا، صباح الخير!“ يُفتح الباب وتدخل زاندراليونا بابتسامتها العريضة. ”هل في وسعي اصطحاب هذا الصغير معي لبعض الوقت؟ أريد أن أرى هل لا يزال يتذكّر كيف تُحضّر عجّة البصل أم نسي ذلك“.

”لقد أصبتِ، يبدو أنه نسي أمّه أيضاً هناك في الأعلى. لم يمنحني حتى ابتسامة منذ وضع قدميه هنا. كل ما يهمّه الآن الكمان وعمليات الحساب“.

”ماذا تقولين دونا أنطونييتّا؟ إنها نزوات طفولية وتمضي. لا يمكن للمرء أن ينسى أمّه؟“ تقول وتغمزني، ”تعال معي وأنا سأتولى ترميم ذاكرتك مع قليل من الماء والإيدروليتينا“.

كل شيء على حاله في Basso خاصّتها. ”هل ما زال صندوقي مع الكنوز في مكانه؟“ وأشير إلى البلاطة حيث دفنته. ”لم يلمسه أحد“، تجيب زاندراليونا وهي تسكب مسحوق الإيدروليتينا في الماء لتجعله فوّاراً.

نبقى صامتين بعض الوقت. هذا ليس سيئاً.

"أمي ما عادت تحبّني"، أقول بعد ذلك، "في البداية، جعلتني أذهب إلى الشمال والآن تقف ضدي. أريد العودة إلى حيث يفكّرون فيّ ويمنحونني الحنان".

"يا بني"، تردّ زاندراليونا وهي تفرم البصل، "أمّك أنطونييتا لم تمتلك أبداً من يمنحها الحنان لذا لا تهتم بمنحه للآخرين. لقد حملت همّك لسنوات، والآن أنت كبرت وعليك مساعدتها. الحياة سلبت أشياء كثيرة من الجميع، وسلبتها ابنها، مثلما سلبتني تيريزينيلّا".

لقد سمعت بهذه القصة في الزقاق، لكنها لم تخبرني بها أبداً، حتى الآن. "كيف حدث ذلك؟" أسألها.

"كانت في السادسة عشرة. هي ابنة أختي التي كان لديها أربع بنات أخريات. أتت تيريزا لتعيش معي. ربيتها كابنتي. كانت تيريزا جميلة وفطنة جداً. بعد الهدنة انضمت إلى صفوف قوات المقاومة، ووقعت في حب أحد المقاتلين. كانت تروح وتجيء لنقل المعلومات، وأثناء إحدى العمليات استولت على مسدس جندي ألماني ميت. كانت تقول إنه وهو ميت لم يبدُ حتى ألمانياً، بل لم يبدُ ميتاً. لقد بدا أشقر ومذعوراً فقط. لم أخبر أحداً باحتفاظها بالمسدس وإلا

لانتزعه الرجال منها. أنا فقط كنت أعرف حقيقة المسدس. عندما وقع الهجوم على مزرعة بالياروني في السابع والعشرين من سبتمبر 1943، كانت تيريزينيلا قد غادرت المنزل الصباح الباكر. بمجرد أن لاحظت ذلك، بدأت أبحث عنها في أنحاء المدينة، وأخيراً علمت بوجود متاريس في أعلى تل ديل فيميرو. حين وصلت إلى هناك كانت تفوح رائحة البارود المحترق. بحثت عن تيريزينيلا لكن السماء اصطبغت بلون الدخان الرمادي وانعدمت الرؤية. ثم كانت اللحظة. نظرت إلى الأعلى فوجدتها والمسدس في يدها تطلق النار من خلف مخبأ مع الرجال. مع كل طلقة كان جسدها يرتعش لكنها لم تتوقف. صرخت: انزلي، انزلي من الأعلى. نظرت إليّ تيريزا وابتسمت، لكنها لم تنزل. بقيت هناك وسط الرجال تطلق النار وترتعش. ثم وصلت الطلقة الأخيرة. الأقوى. تيريزا لم تشعر بها أبداً، بقيت هامدة. بعد يومين غادر الألمان. وتحرّرت المدينة من تلقاء نفسها. إنما تيريزا لم تعرف ذلك أبداً".

انتهى البصل إلى قطع صغيرة جداً على لوح التقطيع وعيون زاندراليونا مليئة بالدموع.

أخذت غطاء المائدة ذو المربعات الخضراء، والمناديل. لم يعد يسمع بيننا سوى صوت

الأطباق وأدوات المائدة والكؤوس.

عندما عدت إلى البيت وفتحت الباب، هبّت أمي أنطونييتا، التي كانت غافية، من نومها. "آه، هذا أنت! تعال إلى هنا، تعال واستلقِ قليلاً بجواري...".

أستلقي على السرير. إنها الثالثة بعد الظهر، أمي في ثوب النوم. عيونها متعبة، لكنها جميلة دائماً، أكثر جمالاً من قبل. الشعر الحالك السواد أصبح طويلاً ولامعاً وفمها دائماً وردي غامق، حتى لو لم تستخدم أحمر الشفاه الذي لم تحصل عليه أبداً. أفكر في دِرنا وشعرها الأشقر اللدن.

تسند أمي رأسها على الوسادة، ثم تمدّ يدها وتمرّرها من خلال شعري. أنا أرقد بجانبها وأشمّ رائحتها من جديد، وأذكر أنني افتقدتها. أغفو وأحلم بدِرنا. رحلتنا إلى البحر، الرمل الذي يلتصق بالساقين، الماء الذي يبدو خفيفاً في البداية ثمّ يثقل فجأة ويجرني إلى الأسفل. أنظر نحو الشاطئ، لقد اختفوا جميعاً: ألتشيدِة، ريفو، لوتسيو، توماسينو.

بقيت دِرنا فقط. أنا على وشك الغرق وهي تحيّيني بيدها. النجدة، أنا أغرق، تعالي وأنقذيني! تنظر إليّ بشعرها الأشقر المبعثر. لا أستطيع أن أفهم هل تبتسم أو تبكي. لكنها في النهاية تستدير

وترحل أيضاً. أستيقظ في بحر من العرق. أمّي
أنطونييتا لا تزال نائمة.

لم نعد نمشي أمّي أنطونييتًا في المقدمة وأنا أتبعها. أمشي وحدي. أحياناً مع توماسينو.

لقد عادت الحياة إلى طبيعتها، حتى كأن شيئاً لم يعد كما كان قبل رحلة القطار. انقضى الصيف تقريباً لكن الطقس شديد الحرّ. صباحاً أذهب إلى ورشة الإسكافي، والد ماريوتشا. أنا بصدد تعلّم استخدام الغراء والمسامير... بعض المسامير الصغيرة جداً التي تستخدم لتثبيت النعال تترك آثاراً على أصابعي، في حين أن آثار الكمان اختفت. إخوة ماريوتشا يرمقونني بنظرات ازدراء. العمل بالفعل قليل وأنا أذهب لسرقته منهم. بين حين وآخر تصل رسالة من ماريوتشا مليئة بالكلمات البرّاقة والمعسولة. الأب الإسكافيّ حتماً لا يجيد القراءة. حتى أنه لم يفتح الرسائل الأولى، ثم سألني قراءتها. لقد سررت بذلك، لرغبتي في معرفة كيف تسير الأمور مع ماريوتشا وتذكّر الأشياء التي فعلتها أيضاً.

لكن في كل مرة كنت أفتح واحدة منها، كان صوت ماريوتشا يبتعد أكثر فأكثر. كانت تكتب لمجرد الكتابة، لم تعد الآن مهتمّة لأمرنا. عاد

الحزن يتسبب في انقباض بطني فتوقفت في النهاية متذرّعاً بأنّ عينيَ تؤلمانني من كثرة القراءة. ربّما كان هذا صحيحاً بعض الشيء.

عادت أمّي أنطونييّتا إلى الخياطة مجدداً وأخذت تنجز تصليحات صغيرة للسيدات في شارع روما وشارع ريتّيفيليو. حين تكون منهمكة بالعمل أذهب إلى Basso زاندراليونا. لكن الجو حارّ هناك أيضاً. عندئذ أخرج وأنادي توماسينو. نتجول في المدينة، ونبحث عن الظلّ في منتصف الأزقة، ونعود إلى كنيسة الأمير سانغرو، ونندس بين أكشاك السوق، ونمرّ من أمام المعهد الموسيقي.

هنا كنت قد تعرّفت إلى كارولينا، حيث جلست يوماً على الدرج أصغي إلى الموسيقا. جاء أحد الحراس وطردني. ظنّ أنني أريد سرقة الأدوات الموسيقية وبيعها للأميركيين. قال إن ناياً وكلارينت اختفيا بالفعل. كنت على وشك البكاء من الخجل. "أنا لست لصاً"، صرخت، وفي تلك اللحظة بالذات، خرجت من البوابة، ودون أن تعرفني، قالت للحارس إنني ابن عمها وأنتظرها. ذهب وهو يرمقني بنظرة فظّة قائلاً إنني على أي حال لا يمكنني البقاء هناك.

ابتسمت لي كارولينا: "والآن. ماذا تفعل هنا؟ أحقاً تسرق الأدوات الموسيقية؟"

"أبداً! أنا أستمع للمقطوعات الموسيقية وأعيد بنائها في رأسي".

بدأت تصحبني إلى المسرح الكبير، حيث تعرف البوّاب، أحد أقاربها الذي كان يسمح لها بدخول البروفات وحتى العروض. كنا نختبئ في البلكون رقم 1، كنت أشمّ رائحة البنفسج من عطرها بينما يضبط العازفون الآلات.

ثم، مع الظلام والصمت، كان قائد الأوركسترا يرسم دائرتين بذراعيه، كأنه يداعب الأوركسترا. عندئذ يبدأ كل واحد من تلقاء نفسه، لكن الموسيقا تصدح منسجمة.

عدت أذهب وأجلس في المكان نفسه بين حين وآخر، وفي الوقت المعتاد، لكنها لم تخرج أبداً.

في يوم، سألت إحدى رفيقاتها التي كنت أعرفها فقالت إنها لم تعد مواظبة على المعهد الموسيقي، لأن والدها أمسى متعطلاً عن العمل، وهي وإخوتها عليهم العمل بعد المدرسة. سألتها هل تعرف أين تسكن. ربما في فوريا، لكنها لم تكن متأكدة. هكذا، قطعنا، أنا وتومّاسينو، كل شارع فوريا ذهاباً وإياباً تحت شمس تحرق الرؤوس، لكن دون جدوى. فأقفلنا عائدين إلى البيت.

مررنا بـBasso باكيوكيا، رأينا أن صورة الملك أبي الشوارب لم تعد هناك ولا حتى صورة الرفيق لينين، وتذكّرنا اليوم الذي وجدناها فيه على المنصة الخشبية مع الشريط الثلاثي الألوان. دون أن نتشاور اتجهنا نحو المحطة عبر شارع ريتيفيليو. كنا نصمت لبعض الوقت، والبعض الآخر نحكي أشياء عن الشمال.

لقد أصبحنا مثل ترومبيتّا، أهبل الحرب الذي كان يفعلها في ساحة كاريتا. كان قد أصيب بشظية قنبلة في رأسه، وبعد عودته راح يروي القصص نفسها طوال اليوم، لكن أحداً لم يكن يريد الإصغاء إليه. كانوا يقولون: "كفى، لقد خسرنا الحرب، وأنت تريدنا الآن أن نخسر السلام أيضاً؟" كان الأمر سواء بالنسبة إلي وإلى تومّاسينو، لكن الحرب بالنسبة إلينا بدأت الآن. في البداية، كانوا يطرحون علينا أسئلة من قبيل: أين كنتم؟ ما اللغة التي تتحدثون بها هناك؟ ماذا يأكلون؟ هل الطقس بارد هناك؟

ثم، مع مرور الوقت، صاروا يسخرون منّا حين يروننا قادمين: "ها هما الشماليان". لذا بقينا نروي الذكريات بيننا فقط ونحن في طريقنا إلى المحطة.

لقد تعلمنا جميع المواعيد والمسارات. في كل مرة يغادر فيها القطار إلى بولونيا، أراقب أولئك الذين يستقلونه، مع الحقائب المكتنزة والوجوه المتعبة قليلاً. أتذكر المعاطف التي ألقيت من النوافذ، التفاحة في جيب البنطال وأمّي أنطونييتا التي تتلاشى على الرصيف. أفكّر عندما كنا في المقصورة، أنا، تومّاسينو، ماريوتشا، الأشقر الدَقِم، القزم شديد السواد، أولئك الذين كانوا خائفين من الذهاب إلى روسيا، وأولئك الذين كانوا لا يعرفون حتى ماذا كانوا يفعلون في القطار.

"هل والدك صاحب الشنب يكتب لك دوماً؟" أسأل تومّاسينو آملاً أن يجيب بالنفي. أنا لم تصلني رسالة واحدة. أخبرتني دِرنا أنها ستبعث إليّ رسالة كل أسبوع. لكن أكثر من ثلاثة أشهر مضت دون أن تصلني رسالة واحدة.

"دائماً"، يجيب تومّاسينو بسعادة، "يرسل إلينا الطرود كذلك. الزيت، النبيذ، السلامي. الأشياء التي يصنعونها هم. والصور الفوتوغرافية للجميع. ألم يصلك شيء بعد؟"

أتجاهل السؤال ولا أجيب.

"تذهب أمّي إلى منزل مادّالينا كل أسبوعين لاستلام الرسائل والطرود، لا يضيّعونها علينا

أبداً...".

"تومّاسيهٔ. فلنصعد هذا القطار. الآن، الآن. هذا الذي يغادر الآن. نصل إلى بولونيا، ثم نستقل الحافلة إلى مودينا ونعود كما كنا من قبل!"

لا يفهم تومّاسينو هل أنا جادّ أو أنني أهذر.

"هيا، فلنذهب..."، يقول، "نستدين ليرتين من باكيوكيا ونشتري سفولياتيلّا نتقاسمها مناصفةً". يستدير ويذهب نحو باب الخروج. أنا أبقى قليلاً لمشاهدة القطار حتى أسمع صفيره.

31

أمشي وحدي في شارع ريثيفيليو. أنظر إلى الأحذية. إنها جميعاً بالية أو ممزقة أو مثقوبة أو معاد تنعيلها. منذ إقامتي في دكان الإسكافيّ أراها كل يوم، أحذية الناس. تلك البالية في المقدمة، ذات الكِعاب التالفة، ذات الأربطة المقطوعة، وتلك التي تغيّر شكلها تحت أقدام الذين انتعلوها. كل زوج من الأحذية جوّالٌ مسكين، كل ثقب عثرةٌ، كل شقّ سقوط. إنها لم تعد لعبة.

قدماي تؤلمانني. لقد اشتراه لي ألتشيدِهْ جديداً خلنج، لكنه يضايقني الآن خلف الكعب. لا يزال جيداً غير أنّ قدماي نمتا ولم يعد صالحاً لهما. في منتصف الشارع، ركّبوا الأضواء لعيد بيديغروتّا. مجموعة من الصبية بالطبول والبوتيبوو[19] يمشون ورائي، وهم يغنون الأغاني المشاركة في سباق هذا العام. على الجانب الآخر من الرصيف خمس صبايا أو ست يرتدين زي الفلاحات بدأن الغناء معهم. يبدأ هؤلاء إرسال القبلات، الصبايا يضحكن ويستدرن إلى الجهة الأخرى متظاهرات بقلة الاكتراث. هناك أيضاً الأكشاك لبيع التارالّي

والترمس، والبنات بالثياب الأنيقة يمشين بين عائلاتهم.

19 أداة موسيقية نابوليتانية تقليدية.

رويداً رويداً أدنو من شارع ريتيفيليو وأرى المزيد من الناس، شيء شبيه بذاك الصباح الذي أحضرتني فيه أمّي أنطونييتّا إلى المحطة. الحشد يدفعني من كلّ ناحية كأني حيوان بريّ.

في الطريق من بيت دِرنا إلى بيت روزا، في الأعلى، لم يكن هناك الكثير من الناس. لم أعد معتاداً هذا. إنه يثيرني الآن. العديد من الوجوه تغطيها مساحيق التجميل أو الأقنعة. أركض حتى الزاوية التي تتقاطع مع شارع مِتزوكانّوني وأصعد نحو ساحة سان دومينيكو ماجّوري، بعيداً من الفوضى.

بعد مسير طويل، ودون إدراك، أجد نفسي أمام المعهد الموسيقي. كماني لا يزال تحت السرير لم تمسّه يداي منذ ذلك اليوم. التمارين تتسبّب في الصداع لأمّي أنطونييتّا.

الموسيقا تنساب من النوافذ المفتوحة بسبب الحرّ. الهواء ساكن والتنفس عسير. أجلس على الدرج وأغمض عينيّ. أسمع صوتاً ينادبني من بعيد: "أميريغو! أميريغو، هل هذا أنت؟"

إنّها كارولينا تعبر الشارع بسرعة فتجتاحني سريعاً رائحة البنفسج. لا تحمل معها حافظة الكمان. "ما عدت تأتي لتنتظرني بعد الدروس. كنت قلقة...".

تنظر إليّ كأنني شبح عائد من الحياة الآخرة، وربّما كنت كذلك.

"ذهبتُ إلى مكان بعيد"، أقول لها. هي أيضاً نمت، وتبدو شابّة كبيرة تقريباً.

"مكان جميل؟"

"علّموني أيضاً العزف على الكمان. كان في وسعي اختيار آلة أتعلمها، وأنا... فكّرت فيك".

تدير رأسها إلى الجانب الآخر. ربما لم يعد يروقها أن تكون صديقتي، أفكّر. لكن لا، إنها حزينة فحسب. "كماني يقبع الآن في بنك الرهونات. فقد أبي عمله ونحن أربعة أشقاء علينا جميعاً أن نعمل. لو كنت مكانك، لاخترت البقاء في ذاك المكان الجميل".

"يمكنك العزف على كماني مقابل أن تعطيني دروساً. ما رأيك؟" يصلني عطرها في البداية، ثم قبلة على وجنتي.

نتجه نحو منزلي. بين أوان وآخر تهبّ نسمات متباعدة أشمّ معها رائحة البنفسج فأشعر بانقباض في بطني. "هل عاودت الذهاب إلى المسرح بعد

ذلك؟" هذا ما استطعت أن أقوله لها طوال الطريق.

"أحياناً. لكنه لم يكن بالإثارة نفسها. اعتقدت أنك لن تعود ثانية".

ثمّة زحام أكثر في شارع توليدو. الجميع يتجهون إلى ساحة بليبيشيتو لرؤية الكنيسة المزدانة بالأضواء والعربات الجاهزة للاستعراض. أخبرتني باكيوكيا أن الأمطار أتلفت عدداً منها، ولم يبقَ غير أربع. واحدة ممّا صمدت تدعى "شمال-جنوب"، بناها عمّال شركة "ألفا" بطلب من لجنة إنقاذ الأطفال، للاحتفاء برحلاتنا في القطارات.

بدا شارع روما أضيق من زُقاقٍ لكثرة الناس. أمسك بيد كارولينا خشية أن أفقدها وأبدأ صعود شوارع الحيّ. عند وصولونا إلى Basso ينتابني بعض الخجل من أن أجعلها تدخل. أفتح الباب. أمّي ليست هنا. تدخل كارولينا بعدي، تنظر حولها ولا تقول شيئاً. أنا لا أعرف كيف منزلها. أردت أن أخبرها أنه كانت لي غرفتي الخاصة عند دِرنا، وكانت الحقول تُرى من النافذة. لكن أبقى صامتاً وأنحني قرب السرير.

أتمدّد على الأرض وأشعر بانتعاش البرودة في جسدي كلّه بعد الحرّ الشديد. أمدّ ذراعي الاثنتين.

لا شيء. أخرج من تحت السرير، أضيء النور وأنظر ثانية. كماني غير موجود، لا أثر لأي شيء.

"ربما أمي غيرت مكانه"، أقول محرجاً، "لكيلا يتلف". ثم أنحني ثانية بجانب السرير".

"تأخَّر الوقت"، تقول كارولينا، "عليَ أن أذهب. يمكنك أن تريني إياه في المرة المقبلة".

أفكّر في اللحظة التي وضع فيها الطرد الملوَن بين يديَ. برائحة الخشب والغراء التي اجتاحت أنفي عندما فتحته. إنَها لا تشبه رائحة دكان الإسكافيَ في بيتزوفالكوني. متجر البيانو ودكان الإسكافيَ ليسا الشيء نفسه. ثمَ أتذكر رسالة أمي أنطونييتا التي انتظرتها طويلاً، وكيف أخرجتها دِرنا، وقالت إنها طلبت إلى مادالينا أن تكتبها. كلمات تومّاسينو، الرسائل والطرود التي تصلهم مرتين في الشهر. أجفّف دموعي وأهرع خارجاً إلى الزقاق.

تعيش مادَالينا في أطراف البالَونيتو في سانتا لوتشيا. هناك خمسة أطفال، أو ستة، يطاردون بعضهم بعضاً في منتصف الشارع. كنت مثلهم أيضاً قبل أن أصعد القطار. "هل تعرفون أين يقع منزل فتاة تدعى مادَالينا؟" أسأل أضخمهم.

"مَنْ؟ الشيوعية؟" يقترب مني ويحملق فيّ بنظرة شرِّيرة. أتسمَّر مكاني وقبل أن أدرك ما يحدث يكون ممسكاً بخناقي. طفل آخر صغير، مع بقعة حمراء في وجهه، يكمن خلفي. يمسك الجسيم بقميصي ويدفعني فيرميني أرضاً. أحاول النهوض، لكن الخمسة يحاصرونني. "أنت أحد أولئك الذين صعدوا القطار؟" يسأل الجسيم. لا أجيب. "كل يوم يأتي واحد منهم. يستلمون الرسائل منها ويعودون إلى البيت محمَلين بطرود الطعام. لقد وجدوا طريق الذهب!" "ونحن نربض هنا عن قصد". يتدخل القزم ذو البقعة الحمراء في الوجه. ويصمت حين ينظر إليه الجسيم. "هذا الطريق ملكنا. من يمر من هنا عليه أن يعطينا شيئاً. وهذا ينطبق عليك أيضاً" يقول

الجسيم ويركلني مجدداً، فيما أحاول النهوض، فيرميني أرضاً.

"هل فهمت، أم لا؟"

"لم يرسلوا إليّ شيئاً"، أجيب، وكان هذا حقيقياً.

"سنرى الآن عندما تخرج"، يهدد الجسيم، ويشير لي أن أنهض، "اذهب. اذهب إلى الشيوعية، نحن باقون هنا".

أصعد الدرجات بسرعة وأطرق حيث أقرأ اسم كريسكولو. تدنو خطوات مادّالينا ويظهر وجهها من خلف الباب. أدلف حالاً إلى الداخل خائفاً أن يكونوا قد لحقوا بي. هي لا تقول شيئاً. تنظر إليّ وتبتسم.

"أنا أميريغو"، أقول.

"ذاك الذي بقي في الآخر. أعرف ذلك. اجلس"، تقول.

أجلس على أريكة بمسندين باليين. لكن ما الذي جعلني آتي إلى هنا؟ إنّها لا تتذكّرني، وعندما أنزل إلى الزقاق سيضربني أولئك أيضاً. تذهب مادّالينا إلى الغرفة الأخرى وتعود مع حزمة من البطاقات. الرسائل لا تزال داخل المغلّفات والطوابع فوقها. "هاك، إنها جميع الرسائل".

أنظر إليها بصمت. "لقد انتظرتك ثلاثة أشهر، هل كنت مشغولاً؟"

"انتظرتني؟ أنا، لماذا؟" لم أعد أفهم شيئاً.

"رداً واحداً على الأقل مراعاة لقواعد الآداب. هؤلاء الأشخاص اعتنوا بك، وعاملوك كواحد من أبنائهم، والآن يواصلون الكتابة إليك. أخبرتني أمك أنك ستأتي لاستلام الرسائل، ثم بدلاً من ذلك مضى عيد القديس، ومضى الاحتفال، وليس هناك من يهتم".

تعطيني حزمة الرسائل. في الداخل، توجد كلّ كلمات دِرنا وروزا والإخوة الشماليون والتشيدِة. تنفجر في رأسي أصواتهم ووجوههم وروائحهم، وكل شيء. أهبّ واقفاً فتسقط الأوراق على الأرض.

"لقد أرسلوا إليك طروداً من الطعام أيضاً، لكن أحداً لم يأتِ لاستلامها، فوزعتها على المحتاجين. كان أمراً مؤسفاً!"

لا أقوى على الكلام، أجلس على الأرض، أتناول مغلَفاً يحمل اسم دِرنا مع حروف صغيرة وطويلة تعرف هي كيف تكتبها، أضغط عليه بقوة فيتمزّق أحد جوانبه. ثم أنهض وأدسه في جيبي.

تدنو مادّالينا تحاول مداعبتي لكنني أحيد برأسي. لم أعد المخلوق الذي صعد القطار صباح

ذلك اليوم من نوفمبر.

"لم تخبرك"، فهمت ماذالينا أخيراً. إذا بقيت هنا وقتاً أطول، سأبدأ البكاء، وليس لديّ الرغبة في ذلك. "لا بأس، إنه أمر بسيط"، تقول، "كل شيء يمكن إصلاحه. فلنأخذ ورقة وقلماً ونجيبهم، هل هذا جيد؟"

"أمي سيئة"، أقول وأهرب خارجاً.

أترك الرسائل هناك. لا أريد قراءتها بعد الآن. ليست هناك إجابة. ربما هذا أفضل. الأفضل أن ينسوني وأنساهم، وأن يغيروا اسم العجل أميريغو. لقد أحسنتِ الفعل يا أمي. ماذا يعنيني منهم؟ البيانو، الكمان، الإسطبل، عيد Befana" "del partigiana، المعكرونة الطازجة بالدقيق والبيض، المدير لينين، الإشارات المتفق عليها من النافذة، المعلم فيراري، القلم الأحمر والقلم الأزرق، الدبوس الأحمر على المعطف، الحروف في المساحة الصغيرة والأخرى في المساحات الكبيرة بين سطور الدفتر. كل هذه الأشياء لا يمكن أن تكون داخل مغلّف ورقي مع طابع فوقه.

عندما أنزل إلى أسفل المبنى، أعرض يديّ لأولئك الخمسة، الستة، الذين ينتظرونني: "إنها فارغة، كما ترون. أعود كما أتيت. أنا مثلكم، أنا مأزوم أكثر منكم".

33

في المنزل، أجد أمي قد أعدّت لي معكرونة بالزيتون الأسود والقبّار الذي كان يروقني كثيراً قبل أن أغادر. أرمي نفسي على السرير. "ما بك؟ ألست جائعاً؟" لا أخبرها بموضوع الرسائل. لست غاضباً منها، لكنني فقدت شهيتي، حتى لو أنني لم آكل منذ الصباح. تجلس جواري على السرير، كما كانت تفعل دِرنا كل مساء. "هل أنت بخير؟" تسأل وتضع يدها على جبيني. "ليس لديك حمّى، لكنك شاحب قليلاً"، وتنظر إلى صورة أخي الكبير لويجي فوق العمود الصغير، "لقد أصبحت نحيفاً جداً. لنذهب ونجلس إلى المائدة. ها هو صحنك، تعال".

"أين كماني؟" أسألها دون أن أتحرّك من السرير.

لا تجيب. وبعد لحظة تقول: "تعال، وإلا سيبرد".

لا أتحرّك. "أريد أن أعرف أين كماني"، ويرتعش صوتي.

"الكمان لا يجلب الطعام. الكمان لأولئك الذين يملكون قوتهم".

"لقد كان لي، أين هو؟" أصرخ هذه المرة. "إنه حيث يجب أن يكون"، تجيب بصوت هادئ رغم أنني صرخت. ثم تنهض عن الطاولة، تعبر الغرفة وتجلس جواري مجدداً. "لقد اشتريت بنقود الكمان الطعام، وحذاء جديداً لك، لأن قدميك تنموان كالأعشاب الضارّة، ووضعت بعض النقود جانباً تحسباً لأي طارئ. نحن تحت سماء عارية"، تقول وتنظر مرة أخرى فوق العمود، إلى صورة هذا الطفل ذي الشعر الأسود الحالك مثلها. ثم تفعل ما لم تفعله من قبل. تدنو أكثر وتضمّني بكلتا ذراعيها. أحسّ برائحتها في وجهي، وفي أنفي، وفي عينيّ.

الجو حارّ، الحرّ شديد، والكثير من العذوبة. أغمض عينيّ وأكتم نفسي.

"عليك أن تصحو من هذا الحلم يا آميرية، حياتك هنا. أنت تتجول طوال اليوم مثل ولد مسطول. أفكارك دائماً في مكان آخر، ووجهك ذاهل. لكن كفى، هل تريد أن تمرض أيضاً؟" تحدّق فيّ بإمعان، "لقد فعلت ذلك من أجلك".

أحرّر نفسي من ذراعيها وأنهض من السرير. أنتِ تعرفين مصلحتي؟ لا أحد يعرفها. لا أحد يعرف هل من مصلحتي البقاء هناك في الأعلى مثلما فعلت ماريوتشا، وألّا أعود أبداً؟ أو ألّا أغادر

أصلاً وأبقى هنا في بيتي؟ أو هل مِنْ مصلحتي تعلّم الموسيقا والعزف داخل المسرح؟ كنت أريد قول كل هذه الأشياء، ولكن الشيء الوحيد خطر في بالي هو كماني، مع اسمي المكتوب في الحافظة، الذي لن أملكه بعد الآن. "أنت كاذبة..."، لم أتمكن من إنهاء الجملة لأنّ صفعةً قوية وصلت فأبقت لساني حبيساً بين أسناني وعاجزاً عن الكلام.

34

أخرج من البيت وأجتاز الشارع راكضاً. أعبر الأزقّة التي لا تكتسحها الحشود. أركض بحذاء ألتشيدهْ القديم الذي يضايقني من خلف عند الكعب. أتقدم دون النظر إلى الوراء. موسيقا الحفل تصل من ساحة بليبيشيتو. لقد حلّ الظلام وأضيئت الأنوار، ألفٌ من المصابيح الملونة تأخذ ألوانها شكل الجدران والنوافذ. إنها مدينة مصنوعة من النجوم وسط سماء قاتمة. أريد الضياع وسط الأزقة، لكنّني أحفظ هذه الشوارع عن ظهر قلب. خطوة خطوة، باباً باباً. أتبع الأضواء وأركض. ألِجُ زقاق فيغوريلّا في مونتيكالفاريو وأنعطف إلى شارع سبيرانتسيلّا فأجد نفسي في زقاق الملوك الثلاثة في توليدو، أمام كنسية سانتا ماريا فرنشيسكا، حيث الكرسي المعجزة للقديسة. لقد أتيت، أنا وتومّاسينو، إلى هنا مرات عدة لسماع القصص، لكنني لم أدخل الكنيسة أبداً.

القصص دائماً هي نفسها. كانت النساء يأتين من كل أنحاء المدينة وحتى من خارجها برفقة أمّهاتهنّ أو نساء أخريات من العائلة، أخت، زوجة

أخ، حماة، متوسّلات طفلاً لا يأتي. نساء فقيرات ونساء ثريّات، لا فرق. من يرزق بالكثير؟ ومن لا يرزق أبداً؟ كنت أفكّر. أمي أنطونييتا المتضوّرة جوعاً رُزقت بأخي لويجي ثم أنا أيضاً، وليس من أب. وتلك السيدات بالملابس الملونة والأحذية اللامعة، مع الزوج وكل شيء، ولا حتى ابن. لو كان ثمّة عدالة، كما تقول دائماً زاندراليونا، سيأتي الأطفال لمن يستحقونهم.

ثمّة رتل من النساء خارج كنيسة سانتا ماريا فرنشيسكا في هذه الساعة أيضاً. تقترب راهبة عجوز بوجه أبيض ضامر. يخيل إلي أنها تريد أن تطردني، لكنها تمسك يدي وتقودني إلى حجرة صغيرة تنبعث منها رائحة حساء ساخن. تجلسني إلى الطاولة حيث يوجد أطفال آخرون، وتقول: "كُلْ". لقد ظنتني واحداً من أطفال مقصف الأيتام. وأنا الليلة أشعر أنني مثلهم بلا أب ولا أم، ولذا أتناول الحساء والخبز والبندورة والتفاحة.

حالما ننتهي من تناول الطعام، تذهب الراهبة العجوز إلى الحجرة الأخرى وتستند على مقعد أمام الكرسي حيث يضعون النساء لتلقي نعمة طفل. تمسك بيد كل واحدة منهن وترسم علامة فوق البطن حيث سيولد الكائن.

النساء يصلين، يشكرن الراهبة ويغادرن. عندما أخرج من الكنيسة، يكون الظلام حالكاً أكثر، ولا أحد في الطرقات. القلّة الذين لا يزالون في الأرجاء يتجهون نحو ميرجيلّينا لمشاهدة الألعاب النارية وسماع الأغاني.

من يدري ما الذي تفعله دِرنا في هذه الساعة. تمشي بصمت في الشارع حيث تسمع أصوات الجداجد فقط. تعدّ المائدة لنفسها، أو أنها عادت للتو من لقاء مع عاملات المصنع وتوقفت لتناول العشاء عند روزا، مع أطباق ممتلئة وجميع الأنوار مضاءة. أدسّ يدي في جيبي وألمس رسالتها. أشعر بانقباض شديد في بطني فأنزل من الأزقة إلى شارع روما الذي صار مهجوراً الآن. الضوضاء تأتي من بعيد مشوّشة، صراخ، أغنيات، موسيقا نشاز كأنها صادرة عن آلات غير مدوزنة. الأمر يتطلب ألتشيدِة لدوزنتها. ثم انفجارٌ خلفي.

تخور ساقاي لأنني أتذكر أصوات القنابل المتساقطة من السماء حين كانت تنيرها نيران الحرب بدلاً من الأضواء. لم تكن انفجارات خلّبية، بل قنابل ترميها الطائرات. أركض بسرعة كبيرة، لكن الحذاء يؤلمني فأتوقف وأستدير وأراهم قادمين.

بدأت العربات استعراضها عبر المدينة، وكل الناس خلفها. إنها ضخمة ومتألقة في الظلام. أبقى مسحوراً وأنا أنظر إليها وهي تقترب وتغدو أكبر حجماً، مثل القاطرات التي تدخل المحطة. أول عربة أراها تكون قطاراً بالفعل مع قاطرة وعربات مليئة بأطفال يصرخون ويلوِّحون بأذرعتهم. إنها تلك التي بنتها اللجنة، الأطفال يبدون كأنهم نحن، لكنهم ليسوا نحن. القطار يبدو حقيقياً لكنه ليس حقيقياً. الأمر كله خيال وأنا لا أؤمن بالأكاذيب بعد الآن. لذلك، أنتقل إلى الجانب الآخر، أخلع حذائي وأركض باتجاه شارع ريتيفيليو.

35

في المحطة هناك القطار الحقيقي الذي سافرت فيه أوّل مرّة، لكن دون أطفال داخله. إنّه ساكن، لا أحد يركض أمامه. هناك بعض الصبية مع الحقائب، وبعض العائلات التي تسافر معاً، وأنا. تلاشت الموسيقا وأصوات المفرقعات. الناس الذين يغادرون في هذه الساعة لا يطيقون الاحتفال.

يعبر الرّصيف أحد مفتشي التذاكر. أسأله هل سيغادر القطار. يقول: "سيغادر طبعاً. لا أظنّك تحسب القطارات موجودة هنا لجمالها؟" ثمّ يسألني ماذا أفعل هنا. أجيبه أنّ عليّ السفر إلى بولونيا مع أمي وأبي وأخي الكبير لويجي لزيّارة عمّة لنا، وأنهم أرسلوني للتأكد هل هذا هو القطار الصحيح. يخلع ذاك قبعته ويجفف العرق بكمّ سترته. "كن حذراً"، يقول لي، "هناك أناس سيئون في المساء، سأصحبك إلى أمك".

ألمح سيدة في آخر الرصيف. "إنها هناك"، أقول وأتظاهر بالركض نحوها. عندما أتوقف، يتابع مفتش التذاكر سيره إلى الجانب الآخر.

أنتعل الحذاء من جديد حتى لو أنه سيزعجني. أدنو من السيدة التي هي ليست والدتي وأنتظر أن تُفتح الأبواب. نصعد معاً. تذهب هي للبحث عن مكان لها فيما لا أعرف أين أجلس خشية أن يكتشفني مفتش التذاكر الأول أو غيره ويرغمني على النزول.

السيدة معها طفلان، صبي وبنت أصغر منه قليلاً في العربة. الصبي لا يستطيع أن يبقي عينيه مفتوحتين فيغفو ويستريح رأسه على ساقيها. أجلس قبالتهم وألصق وجهي بالنافذة. الزجاج بارد وصقيل. أحبّ البرودة على الوجه. غداً، عندما أصل، أنا أيضاً سأنام جوار دِرنا التي ستروي لي قصة وتشرح لي شؤون العاملات. سنغني معاً، وستأخذني إلى البحر، لكن هذه المرة لن أذهب بعيداً. لن أضيّع نفسي في خضم الأمواج. هذه المرة لا.

تتناول الأم الجالسة قبالتي صنانير الحياكة من الحقيبة، ولفّة بعد لفّة تصنع غطاء من القطن الوردي وتضعه على أكتاف طفلها النائم. أتذكر عندما أهدتني أمي أنطونييتّا صندوق الخياطة القديم، ذاك الذي خبأته في منزل زاندراليونا. ربّما تبحثان في الأرض وفي البحر ولن تعثرا عليّ في

أي مكان. يصفّر ناظر المحطة، أهبّ واقفاً وأنظر إلى الخارج عبر النافذة.

"إلى أين تذهب وحيداً هكذا؟" تسأل السيدة ذات الطفلين، "تراك هربت من المنزل؟"

أودّ أن أعترف لها بالحقيقة، وأنزل من العربة وأعود إلى المنزل. لكن أين منزلي؟

يبدأ القطار التحرّك ببطء. لن أستعيد أبداً رسائل دِرنا، الحافظة واسمي داخلها لن أحصل عليها مجدداً أبداً. كما أني لن أحصل على كمان أبداً مرة أخرى. أمّا إن استطعت الوصول إلى الضفّة الأخرى، فربما يمكنني الحصول على واحد آخر.

أجلس من جديد وأحاول ابتكار كذبة.

أفكّر في مقصف الأيتام في كنيسة القديسة وأقول دفعةً واحدة: "ماتت أمّي".

يحترق لساني خجلاً لكنّني أواصل وأروي للسيدة أن عليّ الانضمام إلى عمّة لي تقطن في مودينا. في جيبي رسالة دِرنا، أريها لها.

"يا للمسكين، يا نعمة الله"، تقول وعيناها تطفحان بالدموع.

لقد صدّقت. ليست المرة الأولى التي أكذب فيها، لكن هذه الكذبة مختلفة. رويتها بطريقة جيدة حتى كدت أصدقها أيضاً. أخشى أن تصبح

حقيقة في ما بعد. تواصل السيدة تعزيتي. "كل شيء يمكن إصلاحه يا بني المسكين"، تقول، "كل شيء يمكن إصلاحه"، تأخذ وجهي بين يديها. أتحاشاها لشعوري بخدَّيَ يلتهبان خجلاً.

لكن الإجهاد يمسي بعد ذلك أشد وطأة من الحزن، فأمدّد ساقي في المكان الذي بقي فارغاً بجانبها. عيناي تتصلبان ويأتي النوم.

أحلم أنني وتومّاسينو نلعب الغميضة في كنيسة الأمير سانغرو. وأنا كنت أقف مكان أحد الهيكلين بعظامهما وأوردتهما البارزة لئلا يجدني. كنت أضحك خلسة وأفكر أن تومّاسينو سيموت من الرعب لرؤيتي وسط تلك المومياءات. يدخل تومّاسينو إلى الحجرة حيث أختبئ ولا يعثر علي. كنت قد أخفيت نفسي جيداً فعجز عن رؤيتي وبقي واقفاً هناك بين الهياكل العظمية والتماثيل التي تبدو كأنها حيّة. كان يصرخ لأخرج. أنا هنا، أنا هنا. لكن عبثاً.

أستيقظ على وقع صراخي. أنظر من النافذة، كلّ شيء غارق في العتمة. لا قمر ولا نجوم. الأم الجالسة أمامي تقول: "ماذا هناك؟ هل كل شيء على ما يرام؟ هل حلمت بأمر سيئ؟ تعال إلى هنا". أدنو منها. تزيح إحدى يديها من تحت رأس

ابنها الذي لا يستيقظ، تجفف عرقي وتمسد شعري.

"نم. لا تفكر في الأمر. إنه لا شيء. أنا بجانبك، هنا".

تفسح لي حيزاً صغيراً بجانبها على المقعد. لقد بتنا ثلاثة، هي، والابن بين ذراعيها، وأنا. تستأنف الحياكة ولفة بعد لفة تصل البطانية إلى كتفيَ أيضاً. آمل أن يصيبني النعاس الذي تبثه هي ويجعل ابنها نائماً طوال الوقت فأنام بجفون ثقيلة وبلا أي تفكير في الرأس. لكن لا جدوى.

الجزء الرابع

1994

كلّ شيء حدث أمس. أعددتِ المعكرونة الجنويّة لليوم التالي. غسلتِ لوح التقطيع والمغرفة والمقلاة، وصففتها فوق المصفاة لتجف. خلعتِ المَرْيَلة ووضعتها مطوية تماماً على كرسي المطبخ. ارتديتِ قميص النوم. فردتِ شعرك. لم تكوني تحبّين النوم بشعر معقود. بقي شعرك أسود تقريباً. استلقيتِ على السرير وأطفأتِ النور. بقيت الجنويّة "ترتاح" لليوم التالي. "الجنوية يجب أن ترتاح"، كنت تردّدين دائماً. ثم نمتِ وارتحتِ أيضاً.

اتصلوا بي هذا الصباح عند الفجر. عندما أجبت بعد الرنّة الثالثة وعلمت الخبر، أدركت أنني لسنوات عدة عشتُ مع هذا الخطر الداهم كلعنةٍ. لم أستطع البكاء. لقد فكّرت فقط، آه، ها قد تحققت اللعنة. قلت: "نعم، نعم، أفهم، حسناً، سآخذ أول طائرة وأسافر". الآن وقد رحلتِ وحيدة في الليل لن يخيفني رنينٌ بعد الآن.

أترجّل من الطائرة وأدخل نفقاً دافئاً. الحقيبة في يد، وفي الأخرى حافظة الكمان. حافلة شديد البطء ترميني أمام صالة القادمين. أمشي في

الممرّ حتى الباب الأوتوماتيكي. الباب ولا أحد ينتظرني. بينما أصل إلى المَخرج، تعلن مكبرات الصوت الرحلة إلى ميونيخ. خارج المطار، تقترب مني مجموعة من السياح الإسبان يطلبون معلومات. أتظاهر بقلة الفهم لكيلا أضطر إلى الاعتراف أنني أيضاً غريبٌ عن المدينة. أشعرَ بالحرّ، والحذاء يؤلمني. دوماً تتسبب الأحذية الجديدة في دمامل في كعبيَ. بمجرّد خروجي من البرودة المصطنعة للمطار، تلتصق سترة الكتّان الفاتحة بجسدي.

أبحث عن سيارة أجرة تحملني إلى ساحة بليبيشيتو. يحاول السائق أن يأخذ الأشياء من يديَ ليودعها صندوق السيارة. "الكمان لا"، أقول، "سأحتفظ به معي".

طوال الطريق أراقب عبر النافذة المباني والمحلات التجارية والشوارع، جميعها لا تخبرني بشيء. في المرات التي رجعت فيها إلى المدينة خلال سنوات، اكتفيت بالأشياء التي أتيت من أجلها، وبتبادل تحية سريعة معكِ. لم تطأ قدماي منزلك مرة أخرى. كنت تخجلين من خجلي منه. التقينا في شارع توليدو الذي كان شارع روما آنذاك، واعتدت اصطحابك لتناول الغذاء في الخارج. كنت أحجز طاولة قريبة من البحر. كنت

تحبين ذلك رغم خوفك من الماء. بالنسبة إليك، كان البحر قذراً ورطباً ومصدر رائحة كريهة. "لا فائدة ترجى من البحر"، كنت ترددين. في البداية، كان يأتي أغوسطينو أيضاً، حين كان فتى يصغي إليك. ثم، بعدما كبر، بدأ يختلق الأعذار. كان يقول: "لديّ ما أفعله". هذا أفضل، كنتُ أفكّر. كنت ترغبين لو كنّا، أنا وأخي، أكثر تعاضداً، لكن نتعاضد على ماذا؟ في سيارة الأجرة، أسند رأسي على ظهر المقعد وأغلق عينيَ. ثيابي ملتصقة بجسدي بسبب العرق، والدمامل في كعبيّ تنبض ألماً.

سائق سيارة الأجرة يرمقني عبر المرآة. "أنت مدرّس موسيقا؟" يسأل وهو يتقدم في طريق ضيق وطويل. "لا، أنا ممثل"، أكذب. ثم أتذكر الكمان فأضيف: "أؤدي دوراً في مسرحية من عازفي الكمان. أحضره معي لأتقمص الشخصيّة".

أترجّل في الساحة، وأمشي في الشارع المصفرّ من الشمس. عند التقاطع، أمام الطلعة القاسية المؤدية إلى زقاقكِ، أقف لأنتظر. لستُ جاهزاً، وربّما لن أكون كذلك أبداً. أخرج المنديل من جيبي. لا دموع في عينيّ. أمسح العرق عن جبيني وأعاود المسير.

أثناء صعودي إلى الزقاق تنخفض الحرارة بدلاً من أن ترتفع. تتراخى بفعل البرودة المنبعثة من أبواب Basso المفتوحة على الشارع. البيوت متماهية مع بعضها بعضاً وتوحّدها حبال الغسيل مع الغسيل المنشور ليجفّ، الذي يرخي ألسنة داكنة على الرصيف. دثار من الظلّ مفيد. يرمقني الناس بريبة كأجنبيّ. أسرع الخطا رغم قسوة المنحدر والألم في قدميّ. أتجنب نظرات الأشخاص الذين كنتِ تقابلينهم كل يوم، تحيينهم ويردون تحيتك. لا أريد أن أسمع كلماتهم. النغمات والضوضاء والأصوات تبقى عالقة في أذني، هكذا منذ كنت طفلاً، وتأبى أن تتلاشى. أناس الزقاق لم يكونوا يفعلون شيئاً سوى الغناء عندما يتكلمون. الموسيقا نفسها دوماً، لم تتغير أبداً. أدسّ يديّ في جيبيّ متجنّباً التماس مع تلك الأجساد. أتحقق من أن المحفظة والوثائق في مكانها. أخبروني عن سيّاح تعرضوا للضرب والسرقة على يد عصابات من الأطفال. وفي كلّ مرة فكّرت أنه كان يمكن أن أكون واحداً من

هؤلاء الأطفال الذين كبروا بسرعة في هذه المدينة التي لم تصل أبداً سنّ الرشد.

أمام باب بيتكِ أشعر بغصّة في حلقي وجليد في يديّ. ليس مجرد انفعال أن أكون هنا بعد سنوات طويلة، ولا ألم اليقين من أنك في تلك الغرفة مستلقية فوق السرير الذي كان لنا، مع الشعر السائب ولا يزال كلّه أسود تقريباً. بل الخوف. الخوف من الأوساخ، من الفقر والحاجة، الخوف من أن أكون دجالاً عاش حياة لم تكن له، واتخذ كنية لا تخصّه. بمرور السنين، تدرّب الخوف على أن ينكمش على نفسه في ركن من العقل، لكنه لم يتبدّد، وبقي مترصداً كما هو الآن أمام هذا الباب المغلق. ما كنت تخافين أي شيء. كنت تمشين دائماً برأس مرفوع. لا وجود للخوف، كنت تقولين لي، إنه مجرد وهم. كرّرت ذلك لنفسي أيضاً ولم أقتنع به البتّة.

قطّ رمادي سمين يخرج من الباب، يدنو مني ويشمّ حذائي. إنه تشيتشو–فورماجّو، أفكّر، قطّ الزقاق. كنت أقدم إليه الخبز الجاف وبعض الحليب وأنت تطردينه بطريقة فظّة. لكن الذاكرة مخادعة وهذا القطّ الغريب يجعّد فرائه، وينفخ بنزق، وينصرف. أضع يدي على المقبض، ولست

متأكداً الآن مما أتيت من أجله. لعلَ الأنسب أن أغادر.

كرة برتقالية تتدحرج في الشارع وتأتي ناحيتي متواثبة فوق الأحجار المفككة، تصيبني في ركبتي ثم تجنح بين عجلات دراجة نارية من نوع "سكوتر" متوقفة أمام باب Basso المقابل. يجري أحد الأطفال لصدّها، أشير له إلى المكان الذي اختبأت فيه الكرة. يقرفص لاسترجاعها. بنطاله الجينز ممزّق عند الركبتين، شريط الحذاء مفكوك، القميص كالح. يبتسم لي والكرة بيده ويواصل عَدْوه. يبدو سعيداً. ربّما كنت أيضاً سعيداً، لكن ذلك كان منذ وقت طويل جداً. بينما أراقبه وهو يختفي عند نهاية الشارع، يتمدّد النسيج القديم البالي من الذكريات، الذي سعيت حتى اللحظة إلى جعله متوائماً مع الحاضر، ويلتصق بي، متلبّساً إياي تماماً.

أرى نفسي أخرج من الزقاق بشعر أحمر وسن ناقص في الفم كان قد أخذه الفأر مقابل قشرة من الجبن، والركبتان مليئتان بالكدمات، والجلد المتقشر. كنا نمشي معاً، في أحد صباحات نوفمبر، مع بواكير البرد. أنتِ في المقدمة وأنا أتبعكِ.

38

أطرق بهدوء. لا أحد يأتي. أحاول دفع الباب، فينفتح. قليل من الضوء يتسرب من الأبجورات نصف المغلقة. الطاولة مع الكراسي، المطبخ الصغير، الحمام على اليسار، السرير في المؤخرة. لا يتطلب الأمر كثيراً لتحيط العينان بمنزلك. كلّ شيء في مكانه تقريباً كما كان. كراسي القشّ، بلاطات الأرضية المثمّنة الأضلاع، الطاولة ذات اللون البني العتيق. التلفزيون مع المفرش فوقه، لقد اشتغلته يدوياً، الراديو الذي أهديتك إياه في عيد ميلادك. ثوب النوم المزهّر معلّق على الشماعة، مفرش السرير الذي حبكته الجدة فيلومينا بالمخرز. أنت لستِ هنا.

على الموقد قِدْر المعكرونة الجنوبية. البيت الصغير مشبّع برائحة البصل المقلي، ما يعني أنك خططتِ أن تكوني على قيد الحياة في اليوم التالي، وأن تكوني في مكانك هنا لتأكليها.

أستطلع الشقة ببضع خطوات. لحظاتٌ قليلة تكفي لتلخيص وجودك. وربما وجود أي شخص. لا أتمكن من لمس أي شيء. نعالك المهترئة في المقدمة، المرآة التي تلقت صورتك لسنوات عدة

وأعادتها إليك كل يوم وأنت أكبر قليلاً. يبدو لي انتهاكاً للحرمة ترك ممتلكاتك البائسة بلا حراسة. تربة شتلة من الحبق في آنية فوق النافذة لا تزال رطبة. الجوارب معلّقة لتجف على عصا ستارة الحمام والفردة اليمنى مرتّقة أكثر من مرّة عند الإبهام، زجاجات الخمر المليئة بالماء الوردي والأصفر والأزرق محفوظة في خزانة المطبخ للزينة.

أودّ إنقاذ كلّ شيء كأن بيتك يوشك على الغرق. فوق صندوق الأدراج، بجانب مقصّ الأظفار، هناك مشط عظمي. ألمسه، أزِنه بيدي، وأدسه في جيبي. ثم أخرجه وأعيده إلى مكانه حيث اخترتِ. أشعر أنني لصّ، شخص يتسلل للتجسس على حياتك الحميمية. أفتح الباب الأمامي فتنسلّ الشمس قليلاً في الظلام. لكن قبل أن أخرج، أعود إلى المطبخ. أحاول استعادة كل تحركاتك البارحة، وصولاً إلى ذاك القِدر المتروك على الموقد، كأنه يؤنسك. للَحم، الجزّار عند الناصية الأخرى من الطريق، "قطعة طرية، أوصيك". بائع الخضراوات على الزاوية في آخر الزقاق للبصل والجزر والكرفس. أنت التي تكسرين قضبان المعكرونة الطويلة في وعاء السيراميك. الزيت يغلي والبصل يذبل. رشّة من

النبيذ للقضاء على آخر مرارة، اللحم ينضج مع الحرارة ومع الوقت، كما يحدث للجميع، الماء يغلي والمعكرونة ببطء تفقد صلابتها وتستوي كما هو مطلوب.

أنظر إلى الساعة. إنه وقت الغذاء، أشعر أنك طبخت لي. عندئذ أرفع الغطاء، أتناول الشوكة وألبي دعوتك الأخيرة.

آكل كلّ المعكرونة، أغسل القِدر وأتركه يجفّ، ثم أسحب الباب ورائي وأمشي على طريق العودة إلى الشارع الرئيسي. ضجيج خطواتي على الحجر الأسود المرصوف، الملابس المعلّقة التي تمطر على الطريق، دراجات "السكوتر" مثل الخيول تغفو جوار المنازل، الأبواب والنوافذ مباشرة على الشارع مفتوحة بسبب الحرّ، حيث يصعب تلافي التجسس على الحيوات المكدّسة هناك.

امرأة لا أعرفها تخرج من Basso، وجهها لا يزال شاباً لكنه مرهق. الشعر أسود وأملس، تنظر إليّ بعينين نصف مغمضتين بسبب الضوء القوي الذي تحتمي منه بيدها المفتوحة. "لا بدّ أنكم الابن الكبير للمرحومة الدونا أنطونييتّا، عازف الكمان...".

"لا"، أجيب، "أنا حفيدها"، وأتابع. لا أريد أن أكون جزءاً من حياة الزقاق. فضولية نهمة.

لا يروقني أن تلفظ اسمك هذه المجهولة كشخص ميت. تمشي بضع خطوات خلفي. "لقد أخذوها هذا الصباح بسبب الحرّ، هل فهمت؟ كان صعباً الاحتفاظ بها هنا، المنزل صغير والتلفزيون أعلن أن درجة الحرارة في طريقها إلى الارتفاع... لكن هل تسمعني؟ نعم أم لا؟" تصرخ. ألتفت والمس صدغي: "إحدى أذنيَ صمّاء"، أكذب. "آه، آسفة،" تقول المرأة وهي تنظر إليّ بارتياب: "غداً ستجرى التقاليد في الثامنة والنصف، داخل كنيسة القديسة". ما زالت تحدق فيّ، حذرة، ثم، بعد أن تدخل إلى المنزل، تصرخ خلفي: "أخبر ابنها... أنت!" إنها تفعل ذلك احتراماً لكِ فقط، لأنك أمضيت حياتك كلّها في هذا الزقاق، وليس من أجل الابن الهارب، ذاك الذي لم يكن يحضر أبداً لزيارتك.

بدلاً من المضي مباشرة عبر شارع توليدو، أقرّر اختصار الطريق عبر الأزقّة، هرباً من الحرارة. أضيع بين المزارات المليئة بالشموع والزهور، الوجوه الكالحة، الأسنان الملتوية، الأصوات الخشنة و... دون قصد، أجد نفسي أمام الكنيسة حيث جعلتني الراهبة المعجزة في ذلك المساء

أتناول الحساء والخبز مع الزيت والبندورة، وحيث ستجرى التقاليد غداً صباحاً، كما قالت الجارة. أبقى بضع دقائق دون أن أدخل. أنتظاهر بالصلاة وأفكّر أنني من هنا هربت وإلى هنا أعود، لكن هذه المرة أنتِ التي رحلتِ دون أن تقولي وداعاً. ولن تعودي.

أعبر الساحة الكبيرة ثانية وأطلّ على الكورنيش حيث أجمل الفنادق. لقد أقمت في بعضها وأنتِ كنت تمزحين قائلة: "لقد كسبتَ المال، العشب الضار ينمو". كنت أرغب في شراء بيت لك، بيت عادي، مع الدرج والشرفات و"الانترفون". كنت ترفضين: "لا، لا أريد أن أترك مكاني. أنت الذي تسافر، إنما أنا تلك التي تبقى ثابتة مكانها. أخوك أغوسطينو أيضاً يتوسل إليّ منذ سنوات للذهاب والعيش معه ومع زوجته هناك في الأعلى، في فوميرو، إنه سخيّ جداً... عليك أن ترى أيّ غرف وأيّ أثاث وأيّ إطلالة!"

لم ترغبي أبداً في المجيء إلى منزلي في ميلانو، ولا في مودينا، طوال السنوات التي أمضيتها مع دِرنا وألتشيدهْ وروزا، وحتى في ما بعد، عندما كنت أدرس في المعهد الموسيقي. ربما كنت تخافين القطار. لم أسألك هذا أبداً، ولن أسألك إياه الآن. أعتقد أننا أحببنا بعضنا بعضاً من بعيد. من يدري هل ترين ذلك أيضاً. أتوقف أمام الفندق الأغلى. أدفع الباب الزجاجي فتلفحني دفقة من الهواء البارد تجفّف عرقي. أطلب غرفة.

”هل لديكم حجز مسبق؟“ ”لا“، أجيب. ينظر الموظف إليّ مرتاباً. ”أخشى أن تكون كلّ الغرف محجوزة، دكتور“. يضع نظّارات ذهبية، الشعر الخفيف مسحوب إلى الخلف ومثبت بالجل، وتتلبسه مسحة من الأهمية كأنّه يملك في جيبه مفاتيح الجنّة لا أجنحة الفندق. ربّما هما الشيء نفسه بالنسبة إليه.

”وَلَدت ابنتي الليلة. جئت للتعرّف إلى حفيدي الجديد“، أختلق، وأقدم إليه بخشيشاً محترماً لأحثّه على منحي غرفة.

”أفهم دكتور، سأحاول إرضاءكم“، يشير إلى شاب ببزّة العمل يحمل حقيبتي والكمان إلى الطابق العلوي.

”الكمان، لا“، أقول، ”سأبقيه معي“. ينحني البواب تدريجياً على طاولة الاستقبال وينظر إليّ من فوق نظارته مقطباً حاجبيه.

”كم يوماً ترغبون في المكوث؟“ يهمس. أنا أفتح ذراعيّ مع راحتي كفيّ نحو الخارج وهو يومئ مشاركاً.

”عثرت لكم على إقامة مريحة دكتور، مع إطلالة بحرية“، ويسلّمني المفاتيح. ”حظّاً سعيداً!“ يبتسم لي وأنا أعطيه الوثيقة للتسجيل. ”سأجعلهم يرافقونكم إلى غرفتكم في الحال، يا

سيد بنفينوتي"، يضيف وهو يضغط على بطاقة هويتي.

يرافقني الشاب إلى الطابق، يفتح لي الباب ويسألني هل تعجبني الغرفة. أشكره وأترك له ورقة نقدية. أضع الكمان على السرير. أجول في أنحاء الغرفة وأفتح باب الشرفة. أبقى هكذا، بين تيّارين، هواء شديد البرودة من الغرفة وآخر حار جداً يصعد من الإسفلت على ارتفاع طابقين. أنا منهك. تعب قديم كأنني عدت إلى المدينة مشياً على الأقدام. كأنّ سنواتي كلّها، منذ هربت بالقطار، أحملها على عاتقي. أخلع سترتي، أشمّر عن أكمام قميصي، أخرج الكمان من الحافظة. أطلّ من الشرفة الصغيرة وأحدق في البحر: خط أزرق مرسوم كالحدود على أحد جوانب المدينة. الخليج الذي ينحني بعذوبة عناق يجعلني آسفاً لعجزي عن عناقكِ أيضاً، يا أمّي. يخال لي أنه سوء تفاهم، خيانة متبادلة، منذ المساء الذي نعتُكِ فيه بالكاذبة وجريت إلى المحطة.

تلك الليلة نمت في أحضان امرأة أخرى. أخبرتها أنك ميتة وأنني بقيت بمفردي. هكذا، عندما مرّ مفتش التذاكر في الفجر، قالت له إننا جميعاً أولادها، أنا والآخران. اشترتْ لي تذكرة الحافلة إلى مودينا. رافقتني وانتظرت إلى أن

حيّيتها بيدي الصغيرة من النافذة الخلفية. بمجرد رؤيتي خلف الباب، اغرورقت عينا روزا بالدموع. لم تصدّق أنني وصلت بمفردي دون سابق إنذار. ثم جاءت دِرنا وهرعت لتتصل بماداّلينا. قالت إنّكِ حتماً خائفة تبحثين عنّي في أنحاء الحيّ. تذكّرت صورة الطفل الذي تحتفظين به على طاولة السرير، صورة أخي الذي لم أتعرّف إليه أبداً. كذلك، لم أعرف حتى أبي، وأبويك. كنتُ الوحيد الذي تبقّى لك، لكنني كنت العشبة الضارة. بعد أيام قليلة وصلت رسالتك، تعسّر عليّ الفهم هل أنت غاضبة أم لا. كنت تقولين فقط إنّ عليّ العودة إلى البيت حالاً إن لم يكونوا راغبين في رعايتي جيداً. أنا بقيت هناك.

في الفندق، مع مكيّف الهواء بأقصى طاقته، لا أفعل شيئاً. أنتظر مرور الوقت حتى الغد. في هدأة ما بعد الظهيرة، يرتفع صراخ من الشارع، طابقين في الأدنى: كارمينههه! أطلّ. ثمّة مجموعة صغيرة من خمسة أطفال أمام الفندق، يمشون، يتوقفون، يتراجعون. أكبرهم قد يكون في الثانية عشرة، وأصغرهم سبعة أعوام أو ثمانية. أراقبهم وهم يلحقون بالسياح للحصول على بخشيش، أو ربما لنصب عملية احتيال لهم. أصغرهم، بشعر شديد السواد، يرفع رأسه وينظر إليّ. أنا أحيد نظري وأغلق باب الشرفة فوراً لأطرد تلك الأصوات من الغرفة. ولكن الآن تسللوا إلى رأسي باللهجة التي يتحدثونها. إنها نفسها عندما كنت ألعب لساعات في الشارع ثم أعود إليك في المساء.

كماني على السرير. أبدأ عزف لحن لأبعد تلك الأصوات، لكنّها، إن خفتت، تواصل شقّ طريقها مع أصوات الطفولة البعيدة. في البدء أصوات الأطفال الحادّة خافتة، كمان، فيولا، تشيلّو، بحسب العمر. ثمّ كونترباس النساء، صوتٌ

جهوريّ أجشّ أقرب إلى الذكورة يدقّ مسار الحياة اليوميّة. وأخيراً آلات النفخ الخشبية، أصواتٌ متصدّعة بعكس الأصوات الأنثوية، إنّهم الرجال: بيكولو، كلارينيت، مزامير. ضجيج الأسواق، ثرثرة العجائز التي لا تنتهي عند أبواب Basso، الأطفال يطاردون بعضهم بعضاً عبر الشارع، ثمّ صوت محفوظ في قعر الذاكرة.

أميريغو، آميريه! هيا انزل بسرعة، اذهب واستدن ليرتين من باكيوكيا

إنه صوتك، يا أمّي.

41

أمكث في الغرفة طوال الظهيرة بانتظار تلاشي الحرارة في الخارج. لم أتصل بدرنا. لم أتصل بأحد. بدا لي أنني بذلك أحتفظ بك حيّة بعيداً من حكم الموت، على الأقل في تفكير الآخرين.

عندما تغرب الشمس، أنتعل حذائي وأنزل إلى الشارع. لست متأكداً أنني جائع، لكنني، على أيّ حال، أعود إلى حيّك وأبحث عن حانة وسط روائح العشاء التي تفوح من النوافذ المفتوحة. أربع طاولات في الداخل، في قبو دون نوافذ، وثلاث في الخارج. طاولات وكراسيّ في منتصف الشارع. صاحب الحانة بقميص وسروال أبيضين يرحب بي كما لو كان بانتظاري، ويجلسني إلى إحدى الطاولات غير المرخّصة بمفرش من الورق وكأس مكسور الحافات. يقدم إليّ ورقة زلقة مكتوباً عليها طبق اليوم بخط اليد. أنظر إليه بدهشة، لعلّه عرفني، أفكّر، ثم أدرك أن المشهد يتكرّر مع الزبائن الآخرين الذين يستقبلهم بالألفة والتملّق المفرطين نفسيهما، وهو جزء من يوميّاته. أطلب طبقاً من المعكرونة بالبطاطا والبروفولا، كما كنتِ تحضّرينه لي، مع برش

الجبن الناعم داخله، للنكهة. أتجرّع رشفة من النبيذ وأتذوّق أول ملعقة. أشعر أن المعكرونة تذوب تحت سقف الحلق، لزجة بالبروفولا المذاب. كنت دائماً توصينني أن أجعل لقمتي صغيرة، وإلا من سيحملني إلى المستشفى إن اختنقت؟ لكنّني أحب أن يمتلأ فمي بتلك النكهة التي تجمع حلاوة البطاطا إلى ملوحة جبن البروفولا الذي يواصل قرص شفتيَ حتى بعد أن انتهي من تناول طعامي.

آكل بشهية غير متناسبة مع الحداد، منتزعاً برأس الملعقة أيّ بقايا. الجوع خبيث، يجعلك لا تهتم بآداب الطاولة ولا بالمشاعر. أنظّف فمي وأطلب الفاتورة. يكتب صاحب الحانة عمودياً بعض الأرقام مباشرة على مفرش المائدة الورقي، ثم يتبعه بخط أفقي، ويسجل تحته المبلغ المتوجّب دفعه. بضعة آلاف من الليرات. أضيف إكرامية جيدة وأستودعه. لكنّني أعود بعد بضع خطوات. "ألديكم تفاحة؟" أسأل صاحب الحانة. "ماذا قلتم، دكتور؟" "تفاحة أنوركا"، أهمس محرجاً بعض الشيء. يشير لي أن أنتظر. ينزل إلى الطابق السفلي ويخرج بعد دقيقتين مع فاكهة حمراء صغيرة، قلب صلب.

"بكم أنا مدين لك؟"

”ليس ثمّة ما يستحق دكتور، أرجوك! أنا لا أبيعها. لا أحد يعرفها اليوم، تفاحة الأنوركا. يبحثون عن تلك الكبيرة الحجم التي لا مذاق لها. هذه تفاحة تُمنح لمن يقدّرها“.

”إذاً... أشكرك“، أقول وأضعها في جيبي.

”رافقتك السلامة، يا دكتور“، يجيب صاحب الحانة وينسحب.

أثناء سيري نحو الفندق تؤانسني التفاحة التي تنفخ جيبي مثل تلك التي أعطيتني إياها ذلك اليوم عند مغادرة القطار إلى بولونيا. عهدت بي إلى مادَالينا كريسكولو، من يدري ماذا حلّ بها، مادَالينا. كانت شابة جميلة. الآن ستكون مسنّة.

هو الشيء نفسه الذي حدث لي.

تركت التفاحة تذبل على طاولتي في منزل دِرنا. لم أرغب في أكلها حفاظاً على ذكراك حيّة، ثم ذات يوم لم أعثر عليها. يحدث ذلك من جديد. تركت الوقت يمضي، والآن صار متأخراً.

الضوء في الخارج شديد السطوع، ما يجعل العتمة في الداخل تبدو أكثر حلكة. بدأت تمطر للتوّ رغم الشمس. في الكنيسة الجو دافئ ومليء بالرطوبة. أنتِ هناك في المقدمة، في الوسط بين صحني الكنيسة. الصندوق الخشبي البني راقد على مِحَفّة من المعدن مع عجلات، قطعة أثاث جاهزة للإجلاء.

أشمّ رائحة الرطوبة والبخور. طفل برداء أبيض يهزّ المِبْخَرة التي تنثر ضباباً رمادياً خافتاً. عندما يدخل الأب الراعي، ينهض الجميع واقفين، وأنا أشعر بضيق النفس من الحرارة، من رائحة الهواء الحبيس، من الظلام. لا أدري. ربما لمعرفتي أنك في الداخل.

أنحني على مسند الركوع، شخص ما سيظنّ أنني أصلي. يتكلّم الأب الراعي، لا أسمع شيئاً. لم تصحبيني إلى الكنيسة أبداً. الربّ والعذراء والقديسون لم يكونوا من شؤونك. حتى ألتشيدة لم يتحدث أبداً مع القساوسة. عيناي تعتادان ببطء الضوء الخافت. أحاول تمييز وجوه الناس. في الصف الأمامي نساء بشعر مضموم متشحات

بالسواد، إحداهن لديها جديلة بيضاء تلتف حول رأسها كالتاج. تبدو كأنها طفلة مسنّة. وحده، على مقعد في الصف الثاني، هناك عجوز بشعر رمادي طويل دسّه في ياقة قميصه الرمادي أيضاً، يغمض عينيه قسراً. ظننت في البداية أنه يغمزني. غمزاته المتقطعة تجبرني على التحديق به لبضع ثوانٍ. لقد حافظ على شيء من الشباب في القزحية ذات اللون الأزرق الكثيف، لكنه يبدو متعباً حاله كحال الآخرين الموجودين هنا في الداخل. وجوههم بيضاء ومشدودة كأنما فركت بالكلور. لم يكن لديكِ أقارب، كنت تملكينني أنا فقط. ثم أغوسطينو. أبحث عنه بنظراتي، لكنّني لا أراه. سنوات كثيرة مرّت وربّما لن أتعرّف إليه. العدد قليل، لكن الجميع بأحذية جيدة. بالية قليلاً، لكنها جيدة. علامة ونصف.

يتحدّث الأب الراعي كما لو كان يعرفك، ولعلّه كان محقّاً. ربما كنت ترتادين الكنيسة في شيخوختك، تذهبين إلى قداس الأحد، تعترفين وتأخذين المناولة، وتذهبين لممارسة صلوات السّبحة مع النساء الأخريات في الزقاق. لعلّه يعرفك أفضل مني، ولعلّي الشخص الذي يعرفك أقلّ من الجميع. يقول الأب الراعي إنك كنت امرأة صالحة والآن يحفظك الله في مجده، في

الجنة، جنباً إلى جنب مع الملائكة وكلّ القديسين. حتى لو كنت غريباً، ما زلت أعتقد أنك لا تكترثين للملائكة والقديسين والجنة، لأنك كنت تشعرين بالراحة هنا، بين الأزقة وترنيمات الناس، في Basso. لهذا أعددت المعكرونة الجنويّة لليوم التالي، وليس للذهاب إلى مجد القديسين حتماً. لكن الموت مُخاتلٌ ومستبدٌ، لا يتورع عن مباغتة الناس في جحور عاداتهم وفي شكوكهم الصغيرة وفي موبقاتهم. كل شخص يُحكِم إستراتيجية لكيلا يموت، ويخطئ. يخطئ عندما يظن أن باستطاعته الإفلات من الموت بإعداد طبق المعكرونة الجنوية لليوم التالي. يخطئ عندما يهرب إلى مدينة أخرى بحثاً عن مصير مختلف. يخطئ عندما يفكّر أن الموسيقا ستبقيه آمناً. ليس ثمة ملجأ. الموت ينال من الجميع على كل حال. ربما أنا أيضاً جئت لأموت هنا، من الخوف والحرارة والكآبة.

لدي رغبة في الصراخ، لكن الصوت يأبى أن يخرج، وإذ أكتمه تغرورق عيناي بالدموع. يطلب منّا الأب الراعي الجلوس فنجلس، ثم يدعونا للنهوض فننهض. يتبادر إلى ذهني قرد الرجل العجوز في شارع ريتّيفيليو. يدعونا الأب الراعي إلى المناولة، البعض يتركون مقاعدهم الخشبية

ليصطفوا في الرتل. الرجل ذو الشعر الطويل متشنّج العينين لا يبرح مكانه. أبْتَهُ في إطار مع صورة قديسة تحتضر، بشرة الوجه شاحبة والشفاه بلون أحمر قانئ. إنها لا تشبه امرأة تحتضر، تشبه فتاة جميلة تستعدّ لحفلة. أحاول تخيّل أن قديسة اللوحة تشبهك وأنتِ راقدة هناك في الداخل، مع الشعر المصفّف والوجه هادئ. ثم، بينما لا يزال الجميع في الرتل للتناول، أنهض وأتجه نحو المذبح. أقف في الزاوية المقابلة لمنبر الوعظ وأخرج الكمان من الحافظة وأبدأ العزف. أخفض القوس على الأوتار وتمتلئ الكنيسة بصوت بمنتهى العذوبة يعلو وينخفض، وفي بعض المقاطع، يشبه نشيد الفرح وليس رثاء أمّ لفقدان ابنها. إنها فقرة من "ستابات ماتر" لبورغوليزي، لا يمكنك أن تعرفيه. أنتِ لم تسمعيني أعزف أبداً.

أواصل لبضع دقائق، اليد اليمنى واليد اليسرى، القوس والأوتار. عندما تنتهي الموسيقا، يتناهى صوت المطر فقط. الجميع يعودون إلى الجلوس. الأب الراعي لا يتكلّم. أحاول أن أشيح بنظري عن الصندوق البني في وسط الكنيسة حيث تمكثين بلا حراك، لكن العيون دائماً تنتهي هناك. أتمنى فقط لو أنني أخرج في هذه اللحظة وأسافر فوراً،

حتى دون أن آخذ أشيائي من الفندق، تماماً كأنني لم أرجع أبداً، وكأنك لا تزالين على الرصيف حيث تركتك في ذلك اليوم تنتظرينني.

يخبرنا الأب الراعي أن القداس انتهى ونستطيع الذهاب بسلام. أن نعود إلى البيت. لكن أيّ سلام؟ أيّ بيت؟ تقترب امرأة ذات هيئة ذكورية من نعشك، فيما يأتي أربعة رجال ليحملوه على الأكتاف ويخرجوه. أحدهم هو العجوز المتشنّج العينين. تبقى المرأة صامتة بضع لحظات، ثم تضغط قبضتها اليسرى وترفعها في الهواء. عندما يقع نظرها عليّ، تبتسم. أنا أيضاً أمضي نحوك وألمس الخشب. إنه قاسٍ وخشن، فأرفع يدي وأدسّها في جيبي. وراءنا الجميع يحيّون التابوت، ثم ينحنون واحداً تلو الآخر، يستديرون ويغادرون.

المطر توقف في الخارج، لكن الطريق مبلّل ويمكن شمّ رائحة الأرض والخضراوات المتعفنة. المرأة المسنّة ذات الشعر القصير تتجه نحوي بذراعين مفتوحتين. خلفها صبي المذبح الأسمر، بلا رداء كهنوتي وبلا مِبخرة. "هيا يا كارمينِة، لا تخجل"، تقول للطفل، "هذا السيد يدعى مثلك، سبيرانتسا". أنا لا أفهم لكنني أحاول الاختصار. أريد أن أغادر بسرعة. "أنتِ مخطئة يا سيدتي،

كنيتي هي بنفينوتي"، وأبدأ المشي بسرعة نحو الطريق. تناديني باسمي وتضع كلتا يديها على كتفي. يتراءى لي أنني أعرف الطفل، هو من كان يعبر تحت شرفة غرفتي مع تلك العصابة من الصبيان. هو يحدّق إليّ بعيون ضيقة، كأن الكنيسة والرطوبة وتابوتك البني الذي يبتعد على أكتاف أربعة غرباء هم جميعهم ذنبي. لكن ربما أنا من يفكّر في ذلك، وليس هو. إنه مجرد صبي حزين يقف أمام رجل في منتصف العمر لم يره أبداً من قبل.

"هل أتيت بالقطار؟" تقول العجوز كأنها تتابع حديثاً كنا قد بدأناه. أتعرّف إليها من صوتها أولاً وقبل كل شيء، لكنني لا أجيب، ولا حتى لأقول إنني لا أستقلّ القطار أبداً، لأن صريره المرهق على السكّة مثل لسان يمسّ دائماً النقطة الموجعة نفسها، فيجعلني أفكّر في الطفل الذي هرب.

"لقد مرّ وقت طويل"، تتابع دون أن تنتظر إجابة، "لكن ليس باليد حيلة. بالنسبة إليّ تبقون دائماً صغاري، كثيرون ما زالوا مواظبين على زيارتي. سواء أولئك الذين عادوا، أو الذين بقوا في الأعلى". أضعها في البؤرة رويداً رويداً، مثل صورة تنجلي ببطء على ورق الساتان المصقول بفضل الكواشف الكيميائية. الفم، الشعر، العينان،

شكل عظام الخدَ. لكن قبل كلّ شيء عرفت صوتها. تلك التي كانت تغني في الميكروفون أثناء مغادرة القطار، تلك التي سألتني مؤنِّبة: لماذا لم أذهب لاستلام رسائل دِرنا.

بدأ المطر ينهمر مجدداً. لكنه باهت حتى أنه غير قادر على ملامسة الأرض الحارّة. كنا ثلاثتنا فقط في فناء الكنيسة.

أكشاك الفاكهة والخضراوات في بينياسيكّا تبدو كأنها تتحدّث من تلقاء نفسها، كما لو البضائع المعروضة في السلال وعلى الطبليات في تشكيل فنيّ، تصرخ مباشرةً دون الحاجة إلى الدلّال. أمامي تمشي مادّالينا ممسكة بيد الطفل وأنا أتبعها، كما كنت أفعل معكِ في وقت ما. كنت تنهرينني ولم يكن الذنب ذنبي بل ذنب الأحذية المؤلمة والدمامل التي تنتفخ في الكعبين مع كلّ خطوة. أثناء عبورنا شارعاً مزدحماً بالناس والبضائع، تتوقف مادّالينا لتنتظرني. إنها تعرف دائماً إلى أين تأخذنا، أنا، الصبي ذا الشعر الأسود، أطفال القطار. ونحن نتبعها.

المارة يدفعونني من كلا الجانبين ولا أحاول تجنّبهم بعد الآن. خارج الكنيسة، عندما تعرّفت إليها، بدت لي مادّالينا قوية وطويلة القامة، كما كنت أراها في صغري. أمّا الآن، بين الطرق الملتوية لحيّها، فقد صغرت وضعفت بسبب العمر. الزحام صاخب والهواء ثقيل. أضع يدي غريزياً على أذني لتخفيف الضوضاء وعزل صوت

مادَالينا. "كارمينِهْ هو ابن أخيك أغوسطينو"، تقول.

لقد وعدتني أن تأتي إلى مودينا في عيدي العاشر مع هدية أعجز عن تخيّلها. كانت المرة الأولى التي تذهبين فيها لرؤيتي. كنا جميعاً منفعلين، حتى روزا وألتشيدِهْ. بدلاً من ذلك اتّصلتِ ذلك الصباح، وأجابت دِرنا. تمنيت الخير لي وأخبرتني أنك لن تأتي، فقد نصحك الطبيب بالراحة. "هل ستجيء لرؤية أخيك؟ سيولد قريباً"، سألتني في النهاية. لم أجب، كانت الدموع تحرق عيني، كما يحدث عندما أصاب بحمّى شديدة.

بعد بضعة أشهر، تلقينا خبر ولادة طفل آخر. لقد دعوته أغوسطينو، مثل والدك. وكنيته سبيرانتسا، كل أولادك يملؤهم الأمل. قرّرتُ أنني لن أعود إلى منزلك ثانية. عندما سألتُ ألتشيدِهْ هل باستطاعتي محاولة الانتساب إلى المعهد الموسيقي، أعطاني النقود للقطار واشترى لي سترة جديدة، وكان عليّ أن أكسب مقعد الطالب بجهدي. رافقني المايسترو سيرافيني إلى بيزارو في صباح يوم خريفي. السهل من نوافذ القطار كان يختفي تحت طبقة كثيفة من الضباب

واعتقدت أن الضجيج البطيء الرتيب سيأخذني مرة أخرى بعيداً من المنزل.

دخلنا صالة بأرضية خشبية داكنة وأرائك من المخمل الأحمر، حيث يجلس شبان آخرون في مثل سنّي. تركني المايسترو سيرافيني أنتظر هناك. عندما حان دوري، أخرجت الكمان من الحافظة وبدأت. قوس وأوتار، اليد اليسرى واليمنى. لقد اخترنا مقطعاً من "ستابات ماتر". قدمت اختباري. تم قبولي وبقيت هناك في المدرسة الداخلية.

همستْ مادَالينا في أذني أن والد الطفل وأمّه تعرضا لمشكلة مع السلطات القضائية.

"وماذا بعد؟" أسأل. "هما في السجن الآن"، تجيب، ودائماً بصوت خفيض لكيلا يسمع الطفل. أتوقف وسط الشارع. دراجة نارية بيضاء على متنها ثلاثة صبية تلامس كوعي. مادَالينا والطفل يختفون بين الزحام وأنا أبدأ الركض. أصل إليهم وهم على وشك ولوج أحد المباني؟ "لقد وصلنا"، تعلن مادَالينا. نصعد طابقين على الأقدام ونجد على الباب لوحة: "كريسكولو". منزل مادَالينا صغير لكنه مرتَّب بعناية فائقة. يبدو كأنه منزل عابر، لكنها تخبرني أنها تعيش فيه منذ ثلاثين عاماً. لا تحبّ أن يكون لديها الكثير من الأشياء، ما هو ضروري فقط. لا شيء تقريباً، على ما أعتقد. نجلس في المطبخ وتسكب لنا كأسين من الماء البارد. "هل تريدونها مع الإيدروليتينا؟ سأعدّها لكم الآن".

من مخزن الأشياء المنسية التي لا حصر لها، تبزغ قنينة من الزجاج مليئة بالماء ويدي الصغيرة تسقط المسحوق السحريّ ثم ترجّها

بقوة. أؤدي الحركات نفسها بعد نحو خمسين عاماً. أزيل غطاء القنينة وأملأ الكؤوس.

"كارمينة"، تقول مادالينا، "هل تحب أقلام التلوين؟" هو لا يجيب. تعطيه مادالينا ورقة وخمسة أقلام، أو ستة، ملونة. "ارسم لي صورة جميلة، ولكن اجعلني جميلة ها! كما كنت وأنا شابة عندما التقاني عمك أميريغو". وتقدم إليه صورة بالأبيض والأسود حيث أراها كما كانت.

كارمينة، متردداً قليلاً، يبدأ الرسم، فيما ننتقل إلى حجرة الطعام مع كرسيين وطاولة صغيرة. لا يوجد تلفزيون، راديو فقط. نجلس متقابلين. شخصان تجاوزا مركز الحياة وبقيت الهوامش فقط.

"لقد رأيت الكثير من الأطفال الذين صعدوا معك على تلك القطارات. الأمهات اللواتي كنّ يطلبن أن أكتب رسائل إلى أولئك الغرباء الذين أخذوا أبناءهم ستة أشهر، أو سنة، أو حتى أكثر، وعاملوهم كأبنائهم. بقي الكثير منهم على اتصال بينهم. كانوا يقضون العطلات معاً في الصيف أو الشتاء. استمروا بمساعدة بعضهم بعضاً، حتى من بعيد".

هناك عدد من الصور المعلّقة على الجدران. في إحداها الكثير من الأطفال، ذكور وإناث، يحملون

في أيديهم أعلاماً ثلاثية الألوان. إنها صور بالأسود والأبيض، لكن الأعلام ملونة، أبيض وأحمر وأخضر، وتبرز فوق الوجوه الرمادية. في صورة أخرى الأطفال في بولونيا، لقد أمضوا الليلة في القطار. ملابسهم تجعدت والوجوه متعبة، وأحدهم يضحك في الفوضى. امرأتان تحملان لافتة كتب عليها: "نحن أطفال الجنوب. تضامن ومحبة سكان إميليا يدلان على أنه لا يوجد شمال وجنوب، إيطاليا فقط". يا للكلمات التي عفا عليها الزمن! أفكّر، يا للآمال التي تمّ تجاوزها وأصبحت خارج الموضة!

"لقد ساعدنا الكثير منهم. لكنهم لا ينتهون أبداً"، تقول، "كان ابن أخيك كارمينة، بعد إلقاء القبض على والديه، يعيش مع جدته، وكان يرعاه قليلاً الأب الراعي، الدون سلفاتورِة. لقد بقي وحده الآن".

"لم أكن أعرف شيئاً عن أغوسطينو، متى حدث ذلك؟"

"منذ بضعة أشهر. لا تسألني أكثر من ذلك. أنا كنت أتحدث مع أنطونييتا بهذا الشأن، لكنها لم تخبرني الكثير عن أعمال أخيك. وفقاً لها كان بريئاً ومن شأنه أن يثبت أنه لا علاقة له ولزوجته بالأمر. لقد تم توريطهما. ما أعرفه أن المطاف

انتهى به مع أناس سيئين. كان قد كسب الكثير من المال. يجب أن تكون التهمة خطيرة، لأنهم لم يسمحوا له حتى بحضور جنازة أمه. كان كارمينِهْ يبقى وحيداً في كثير من الأحيان، حتى قبل الاعتقال، ولو لم تكن هناك الجدّة... لكانوا فعلوا الآن الخدمات الاجتماعية".

أسترق نظرة عبر الباب إلى الطفل جاثياً على الكرسي ويستند بمرفقيه إلى طاولة المطبخ. أحاول التبيّن: هل يشبهكِ أو يشبه والده أغوسطينو، الولد الصالح الذي بقي قربك. لديه شعر أسود وأملس، مثل شعرك.

"إنه طفل مهذب، لكنه الآن مشوّش قليلاً..."، تقول مادالينا، "وأنت، هل تزوجت؟ لديك أطفال؟" يأخذ الطفل ورقة أخرى ويلتفت إلي. تلتقي نظراتنا بضع ثوانٍ، ثم أخفض نظري وأعاود تمحيص الصور.

"نعم، أنا متزوج"، أكذب. هي تومئ برأسها وتبتسم. هكذا أواصل ابتكار حياة أخرى، "لديّ ولدان كبيران يدرسان الموسيقا"، أقول، ثم أغيّر الحديث. التمثيل عليها صعب للغاية.

"هل تتذكر تومّاسينو؟" وتقدم إليّ كأساً من الليموناضة التي صنعتها بنفسها.

أرى ذلك الصبي الأجعد ذا البشرة القاتمة يظهر على حائط الذاكرة، كأنها إحدى الصور الرمادية المعلّقة على الجدار.

"هل بقيتما على اتصال؟"

"ليس لدي اتصال مع أحد"، أقول لها، "لم أكن أعرف حتى ما كان يفعله أغوسطينو، كم عمر ابنه، وأنه انتهى في السجن، وأن أمي تعاني من مرض القلب...".

أنتبه أنني رفعت وتيرة صوتي فأصمت، أرفع كتفيّ وأتنهد. ليس مهماً لمادّالينا ما حدث، هي تفكّر في المستقبل فقط، حتى إن كانت قد كبرت في السن. لم تتغيَر من هذه الناحية. "لقد استطاع توماسينو الحصول على مهنة جيدة"، تروي، "استطاع الدراسة بمساعدة الأب الشمالي، مع أنه بقي هنا مع عائلته. لقد صار قاضياً".

"لكن كيف؟ كان يسرق التفاح من عربة كابايانكا في ساحة السوق ويهرب...".

"ربما هذا هو السبب. إنه قاضي وصاية وكثيراً ما ساعدني. كنتُ لسنوات طويلة مدرّسة في أحياء يمكث فيها آباء الأطفال في السجون، أو يكونون فارين من العدالة... التمسته عند حاجتي إلى التدخل أو مجرد نصيحة".

تصدر عن مادَالينا تكشيرة مرارة وتدفع هي أيضاً جسمها للنظر إلى الغرفة المجاورة. ثم تأخذ رشفة من المشروب الأصفر بالكأس الصغيرة وتواصل: "كان الأمر أكثر يسراً في الماضي. كان هناك الحزب، الرفيقات والرفاق. لم يعد هناك أي شيء اليوم. من يريد أي عمل جيّد عليه أن يفعله من تلقاء نفسه. في الماضي، كان هناك 'القسم' الذي نظّم المبادرات للأطفال من حيّ إلى حيّ. بهذه الطريقة، كانوا ينقذونهم من الشارع. الآن هناك الخوارنة فقط لفعل ذلك... لا أنفي أنهم في الواقع كثيراً ما يقومون بأعمال خيّرة، لكنّهم لا يفعلون شيئاً، عملهم ليس سياسيّاً. لا أعرف هل تفهم قصدي، إنه إحسان. الأمر مختلف".

"التاريخ يمضي قدماً، الأمور تتغير".

"التاريخ يمضي قدماً، لكن بعض الأشياء يجب أن تبقى. فكرة التضامن تلك، هل تتذكّرها؟ الت – ضا – من...".

"والشيوعي الأشقر؟" يخطر في بالي، "الذي كان يغازلك!"

"من، غويدو؟ يغازلني؟ كنا جميعاً رفاقاً ورفيقات. كنا نفكّر في أشياء كثيرة، ليس الحبّ. على الأقل أنا لم أكن أفكّر في ذلك...".

"ربما أنت لم تكوني تفكّرين فيه، لكن هو... أذكر كيف كان ينظر إليك صباح مغادرتنا".

"يا لغويدو المسكين!" تتنهد مادالينا، "في النهاية، طُرد من الحزب. قصة حزينة. ذهب إلى مدينة أخرى وتخلّى عن السياسة. ثم أصبح أستاذاً جامعياً، لكن شيئاً ما داخله كان قد انكسر. لم يعد أبداً كما كان من قبل. وكذلك معي، لقد أحببنا بعضنا بعضاً، ليس كما تعتقد. حتى معي انقطع حبل الود".

تهزّ مادالينا رأسها وخصلة من الشعر الأبيض تنزلق على وجهها.

"لا، لم يكن كل شيء جميلاً. في الحقيقة، كان جميلاً لأنني كنت في العشرين، وكنت شغوفة بالفكرة. لكن ثمّة أشياء سيئة أيضاً. كان هناك الأشخاص الذين يحبون أنفسهم أولاً والفكرة تأتي لاحقاً، بعد ذلك بكثير".

تمدّ يدها على الطاولة الصغيرة بين الأريكتين وتمسك بيدي. لديها بقع بنية على ظهر يدها والأصابع.

"لكنك عرفت هذه الأشياء، تلقيت المساعدة، درست، أصبحت موسيقياً محترماً. لقد حظيت بالفرصة، وأنت رجل قدير وتعلم أن الأمر يستحق

المحاولة دائماً، حتى لو كان ذلك تقريبياً، مع عدم الدقة. كل ما 'يمكن' أن تفعله 'ينبغي' أن تفعله".

أسحب يدي من يدها وألوذ بالصمت. موسيقي محترم، رجل جدير بالتقدير، لست متأكداً أنني الشخص الذي تتحدث عنه.

"مادّالينا، فهمت ما ترمين إليه"، أجيبها بعد وقت وجيز، "وأشعر أيضاً أنه مُغرٍ، صدقيني... لكن لدي حياتي، عمري أكثر من خمسين. لقد قرّرتِ ألا تنجبي الأطفال وأن تكرسي حياتك للعناية بأطفال الآخرين، وأنا كرّست حياتي للموسيقا. كل امرئ لديه خياراته. ثم إن الطفل لديه أب. أنا اضطررت إلى الذهاب والبحث عنه".

يكتسي وجه مادّالينا بتعبير غريب لا أعثر على مثيل له في ذكرياتي. "لا يمكن اختيار كل شيء، بعض الخيارات ملزمة، يجبرك الآخرون على اتخاذها...".

"تقولين هذا لي، يا مادّالينا، أنا الذي وُضعت على متن قطار في السابعة؟ من ناحيةٍ، كانت أمي، ومن الناحية الأخرى كل ما كنت أرغب فيه: العائلة، البيت، غرفة خاصة لي، الطعام الساخن، الكمان. رجل مستعد لمنحي كنيته. صحيحٌ تمت مساعدتي لكنّني شعرت بالكثير من العار أيضاً. الترحيب، التضامن، كما تقولين، طعمه مرير أيضاً

لكلا الجانبين: لمن يمنحون ولمن يتلقَى. لهذا هو صعب جداً. كنت أحلم أن أكون كالآخرين. أردت أن ينسوا من أين جئت ولماذا. تلقّيت الكثير، لكنّني دفعت الثمن كاملاً، وتخليت عن الكثير. تخيلي أنني لم أخبر قصتي لأحد".

"وأنا كذلك، ماذا تظن".

تحدّق مادالينا في وجهي، وللحظة، لا أدري السبب، تعود إلى ذهني قصة زاندراليونا، قصة تيريزينيلّا مع البندقية بيدها وجسدها يرتعش مع كل طلقة.

"حملتُ في السابعة عشرة. كان الأب فتى في مثل سنّي ولم يشأ أن يعترف بالأمر. أخذوني إلى الريف عند قريبة لي إلى أن ولدت الطفلة. خاف والدي أن يُطرد من الحزب إن شاع الخبر. حتى أنا كان ممنوعاً عليّ الاختيار. استيقظت صباح أحد الأيام والحليب ينفر من صدري وهي غير موجودة".

جسد تيريزينيلّا الذي يتوقف عن إطلاق النار والارتعاش، عيون مادالينا التي لم تعد تجد طفلتها. تصلني الكلمات بطيئة، كأنّ عليها أن تعبر حياتها كلّها، منذ الصباح الذي استيقظت فيه وثدياها متورمان إلى الآن، وتتسع حتى تملأ السنوات التي مضت.

ثم تعود مادَالينا لتبتسم، كأنها عادة قديمة، فأتعرَف إليها مجدَداً. "التضامن يعني هذا أيضاً. ذاك الذي لم أستطع تقديمه إليها، قدَمته إلى الآخرين".

ترافقني مادَالينا إلى الباب والطفل يتبعنا محتفظاً بيديه خلف ظهره. أحاول تفادي نظراته. ثم تضرب جبينها وتقول إنها كانت على وشك أن تنسى شيئاً مهماً. تتركنا وحدنا في الردهة لبضع دقائق. أنا متعب وأريد العودة إلى الفندق. لا أستطيع التوقف عن التفكير في جسد الطفلة المسروقة وجسد أمها.

ينزع الطفل يديه من خلف ظهره ويريني ورقتين. في الأولى رسم صورة مادَالينا وهي شابة. وفي الأخرى شكل بيضاوي وردي مع دائرتين زرقاوين في الوسط. الشعر أحمر وخط وردي منحنٍ إلى الأسفل يجب أن يكون الفم.

"هذا أنت"، يقدمه إلي. "لقد جعلتك أصغر سناً أيضاً... هل أعجبك؟"

أقرّب الورقة وأبعدها وأتظاهر بتفحصها بدقّة للكشف عن كل التفاصيل. "إنه لطيف... لكن لماذا لدي ببغاء على كتفي؟"

"أيّ ببغاء؟ إنّه الكمان. قالت جدّتي إنك حصلت عليه منذ كنت طفلاً".

أعود فأرى نفسي وأنا أنظر أسفل السرير ولا أعثر على شيء. الطفل يمعن فيّ. ربما يرغب أن أخبره القصة. الأطفال يرغبون دائماً في سماع قصة. لكنني لا أعرف كيف أرويها. أطوي الورقة وأضعها في جيبي.

"شكراً"، أكتفي بالقول. لديه تعبير بخيبة أمل، كأنه أهداني شيئاً مهمّاً دون أن يحصل مقابله على شيء.

"أعرف أشياء كثيرة عنك"، يقول بخبث. أخبرتني جدّتي.

"هل حدّثتك الجدّة عني؟"

"كانت تحتفظ كذلك بمقتطفات الصحف".

"هذا ليس صحيحاً. لم تسمعني أبداً وأنا أعزف".

"شاهدناك في التلفزيون. اشترته خصيصاً من أجلك".

أراقبُ تأثير كلماته فيّ.

"هل أنت مشهور؟"

"هل يروقك أن أكون مشهوراً؟"

يلوي فمه ويرفع كتفيه. لا أفهم إجابته.

"ستعلّمني في ما بعد، أنا أيضاً؟"

"ماذا يجب أن أعلّمك؟"

"أن أكون مشهوراً".

”حسناً... سنرى في ما بعد...“.

”هكذا أذهب أيضاً إلى التلفزيون، مثلك“.

”مادَالينا، عليّ أن أغادر...“.

”هاك، ها هو!“ تعود مادالينا بصورة مصفرّة وتضعها على الطاولة الصغيرة. ”هذا ما كنت أقوله، نعم، يا سيدي“.

الصورة تمّ التقاطها أمام فندق الفقراء. تظهر هي مع غيرها من الفتيات في مثل سنّها، الشيوعي الأشقر والرفيق ماوريتسيو كذلك، ذاك الذي صار رئيساً للبلدية في ما بعد.

تحيط بهم مجموعة من الأطفال: البعض مع أمهاتهم، وآخرون دون أمهات. تلمس مادالينا كل الوجوه التي غيّرها الزمن الآن، ربما إلى حدّ باتت معه غير معروفة. الإصبع النحيف، مع الظفر القصير والنظيف للغاية، يمر على كل صف من الوجوه الصغيرة، وفي النهاية، يلتقط الخط مرة أخرى، كأنها تقرأ ذهاباً وإياباً إلى أن تتوقف عند صبي حليق الشعر على الصفر تقريباً يقف جوار أمه، عظام الخدّ عالية والفم المكتنز لا ينمّ عن ابتسامة. بسبب إحراجها، يبدو أنها لم تعرف ما تفعل بيديها فوضعت إحداها على كتف الصبي الذي التفت إليها مندهشاً من تلك البادرة.

أنظر إلى نفسي في الصورة. ثم أنظر إليكِ. كلانا في الصورة، ننظر إلى بعضنا بعضاً تائهين، قبل أن ننفصل.

"أوصيك أن تمرَ وتلتقي توماسينو"، تقول مادَالينا من الباب حيث تمكنت أخيراً من بلوغ الدرج. لا أجيب، لكنّني أستدير للمرة الأخيرة لمعرفتي أنني لن أراها مرة أخرى، فينتابني شعور غريب، حنين مبكّر، قبل الأوان. يبرز رأس الطفل خلفها. خائب، كما لو كنت محتالاً، شخصاً لم يحترم المواثيق. ماذا كان ينتظر مني؟ وما الذي يمكنني فعله له؟ نقود، هدايا، مكالمة هاتفية بين حين وآخر؟ نظرته تربكني؛ يذكّرني بجميع المناسبات التي لم أحترم فيها العهود حقاً ووجدت من الأسهل الهرب عند مواجهة أي طلب.

أسلك الطريق نفسها التي سلكناها في الذهاب. الباعة المتجولون فككوا الأكشاك والشارع يبدو أكبر وأكثر اتساعاً. الحرّ خفّ أيضاً. النسيم يرتفع حاملاً رائحة البحر. هكذا تدرك أن البحر قريب دائماً حتى عندما لا تراه.

لم تعد لدي رغبة في العودة إلى الفندق. لست جائعاً. لا أدري هل أفتقدكِ، وما زلت لا أفهم كيف سأفتقدك. أصبحت المسافة بيننا عادة. لقد تخلّفنا عن عدد من المواعيد. من اللحظة التي وضعتني فيها على متن ذلك القطار، اتخذنا، أنا وأنت، مسارات مختلفة، لم تتقاطع أبداً مرة أخرى. لكن بما أن المسافة الآن تقريباً يستحيل تجاوزها، ولإدراكي أنني لن ألتقيك أبداً، أشكّ في أن كل ذلك كان مجرد خلاف ناجم عن قصور في الفهم بيني وبينك. حبّ مصنوع من سوء تفاهم.

الشارع خالٍ من المارّة، وصمت مريب يخيّم على المكان. يتناهى من بعيد صوت نشاز صادر عن بوق الملعب. أحدهم يفجّر المفرقعات النارية. أصحاب المتاجر في شارع توليدو يسارعون لإغلاق المصاريع ويهرعون إلى البيت لمشاهدة

المباراة. أدلف إلى أحد الأزقة وأبدأ الصعود. في منتصف الطريق، أصادف على الجهة اليمنى دكان إسكافي. هو لا يغلق. إنه ليس في عجلة من أمره.

يجلس في كهفه الصغير المليء بأحذية تحتاج تغيير نعالها أو تصليحها. أطلّ من الباب وأسأل العجوز خلف الطاولة هل يستطيع أن يفعل شيئاً لحذائي الذي ما زال يؤلمني. يجلسني الرجل على مقعد واطئ ويطلب مني أن أخلعه. أبقى بالجوارب. يأخذ الحذاء، في البداية الفردة الأولى، ثم الأخرى، يفحصها من كل جانب، ثم ينظر إلى قدميّ. أمطّ الأصابع داخل جواربي، كما لو كانت حيوانات برية انتهى بها الأمر سجينة. دون أن يتكلم يشير لي أن أنتظر ويختفي في المخزن الخلفي. يخرج مع أداة خشبية لها شكل القدم متصلة بمرفق بواسطة برغي أسود. أكتم نفسي، كأنه يوشك أن ينجز تعويذة. يدس الأداة في الفردة اليمنى، ويدير المرفق مرة، مرتين، ثلاثاً. ثم يحرّرها ويكرّر العملية مع الفردة اليسرى. في النهاية، ينظّفها ويلمّعها ويضعها أمامي.

"هذا كل شيء؟" أوشك على الضحك. هو يبقى ثابتاً، وينتظر أن أنتعلها.

عندما أقف على قدميّ يختفي ألم الكعبين. أمشي خطوة، ثم أخرى. أكاد لا أصدق. العجوز، الذي بقي طوال الوقت صامتاً، يتكلم أخيراً: "الأقدام لا تتشابه، علينا الاحتفاظ بقالب لكلّ قدم. تحتاج مواكبة ذلك وإلا فالمعاناة تستمر".

أشكره وأسأله عن أجرته. "لا شيء"، يجيب العجوز محركاً يده في الهواء، "إنه مجرّد عمل بسيط". ويعود إلى الداخل. أبدأ العودة نحو فندقي، بسرعة أكبر واستقامة أكثر. من يراني أعبر في هذه اللحظة سيظنني إنساناً سعيداً خالياً من الهمّ.

تم حفظ لقطة الشاشة في: /Pictures
Screenshot

47

أفتح عينيَ والظلام ما زال مخيماً. أتقلّب في الفراش ولا أستطيع أن أغفو ثانية. أنهض، أطلّ من الشرفة. أنظر إلى الأفق وأرى في مكان ما أن السماء تتألق. لم أحبّ أبداً شروق الشمس، له طعم ليلة مؤرقة، أحلام مضطربة، طوارئ، طائرات عليك الوصول إليها مبكراً جداً للسفر إلى مدينة غريبة. بالنسبة إليّ، كل مدينة هي غريبة.

أبقى تحت الدوش لمدة طويلة جداً. ثم أرتدي ملابسي: قميصاً فاتح اللون وسروالاً خفيفاً بلا سترة. أرتدي الجوارب والحذاء. لست بحاجة إلى لصقات على الكعبين هذا الصباح. أعود إلى الحمّام وأنظر إلى انعكاسي في المرآة كأنني أراه للمرة الأولى. العيون نفسها لم تتغير، بلون أزرق كثيف، من يعلم من أين أتى. ربما من ذلك الأب الغامض الشغوف بأميركا، الذي ترك لي الاسم فقط وهرب. كانت عيناك سوداوين، مثل الشعر والحواجب، رفيعة ومحدّدة، كأنها رسمت بأقلام الفحم. كنت طفلاً لكنّني كنت أعرف أنك جميلة. لست جميلة كما تبدو الأم للابن. كنت أشعر أنك تروقين للرجال. كنت أقرأ ذلك في نظراتهم أثناء

عبورك، في كلماتهم المحمَلة بالمعاني المواربة. عندما ولدت، كنتِ في مقتبل العمر. كنتِ قد فقدت والديكِ، أباك في الجبهة، وأمك تحت القصف. كنتِ قد نجوتِ وأخذتِ تعملين خياطة من أجل البقاء على قيد الحياة. أعمال صغيرة، بعض التصليحات. لم تطلبي شيئاً من أحد. الرجال الذين تعرَفتِ إليهم تركوا لك الأطفال فقط. وأنتِ، ماذا تركتِ لي؟ ماذا يتبقى لي منك؟ ربّما طريقتك في النظر إلى الحياة ببعض الريبة والاشتباه في أن ثمّة خدعة ما دائماً، وتلك المساحة من الحذر. أنا الذي كنت ثرثاراً منذ الطفولة ينتهي بي الأمر الآن، بعدما نضجت وصار لي ضعف سنواتك آنذاك، أن أشبهك. الكلام لم يعد يثير اهتمامي. سذاجة تلك السنين تحوّلت قناعاً من اللامبالاة، وصِدْقُ ذلك الوقت ميل إلى الكذب.

لم يحن وقت الفطور في الفندق بعد. سأتناوله على الطريق. لديّ وقت. أقطع شاطئ البحر مشياً حتى ساحة بليبيشيتو. لم أعد أشعر أنني سائح الآن، ولا حتى شخص ينتمي إلى المدينة. ربما سأكون دائماً هذا فقط، الشخص الذي غادر.

في شارع توليدو، أتوقف عند محل للمعجّنات بقي على حاله كما أتذكّره، مع الرفوف السماوية

خلف الواجهة الزجاجية، والمعجّنات التي تتدفق باستمرار من الفرن وتنشر رائحة الفانيليا والميلّفيوري عبر كل الرصيف. كنا نأتي إلى هنا، أنا وتومّاسينو، مع قليل من النقود المعدنية التي نحصل عليها من باكيوكيا، وكنا نقتسم تلك المتعة الصغيرة كأنها شيء استثنائي. قبل مغادرتي، كانت أشياء كثيرة تبدو لي استثنائية.

أجلس إلى طاولة تلامس طرفها أشعة الشمس وأستمتع بِحَلْواي. يمكن أن أكون شخصاً آخر في هذه اللحظة. محاسب، إسكافي، طبيب. أدفع الحساب وأغادر مشياً على الأقدام.

محكمة الأحداث مبنى أحمر واطئ، محاط بشبك معدني رمادي، في منطقة التلال من المدينة. أسأل الحاجب، وهو رجل ضئيل الجسم مع خصلة خفيفة من الشعر ممشطة من جانب إلى الجانب الآخر من الرأس: "أين مكتب القاضي سابوريتو؟" "القاضي سابوريتو؟" يكرّر الحاجب وهو يمسّد صلعته، "لا يستقبل أحداً دون موعد. هل لديك موعد؟"

"لا أحتاج موعداً"، أقول مستعيداً عجرفة طفولتي، "أخبره اسمي فقط. أميريغو".

يرغب الرجل الصغير أن يطردني لكنه يخشى أن أكون شخصاً مهماً. منعاً للالتباس يتصل بالرقم

الداخلي المطلوب للتأكد. يكرّر اسمي ويبقى في الانتظار بضعة ثوانٍ فقط هي الوقت اللازم للمتحدث على الجانب الآخر كي يستعيد صورتنا، أنا وهو، بقامتينا البالغتين نصف متر، واختلاف لون الشعر. "يمكنكم الصعود. الطابق الثالث"، يقول الحاجب مندهشاً في النهاية. أتوجه نحو المصعد بوتيرة سريعة، في حين أن ذاك يخرج رأسه من المَحرس ليفهم من كان الشخص الذي تعامل معه.

عندما يفتح توماسينو الباب، نقرأ في عيون بعضنا بعضاً الوقت الذي مضى. ليس ثمة حاجة إلى مزامنة الماضي مع الحاضر، كأن السنوات منذ هربي بالقطار حتى هذه اللحظة لم تحدث أبداً. مساحة مليئة بأمور جيدة وسيئة لكلٍّ منّا. حياةٌ بين مزدوجين ليست جوهريّة في تاريخ صداقتنا.

مكتب توماسينو صغير ومرتّب للغاية. يريني صور زوجته وأولاده الاثنين، شاب وفتاة، شخصين طيبين دون الثلاثين، الأول نال إجازة في القانون، لكن عندما أدرك شغفه في الطبخ افتتح مطعماً في فوميرو، والثانية تعمل معلّمة، مع أنها الآن في إجازة أمومة. هذا الخبر، أكثر من أي شيء آخر، يجعلني أتأرجح ويرغمني على

إعادة حساب المسافة التي خلقتها السنوات بيني وبينه. أمام صورة الحفيدة فقط أفهم أن الوقت بيننا قد تصدّع ولم تعد حياتنا متزامنةً.

شعر توماسينو بقي على حاله، أجعد، لكنه ممشط إلى الوراء. الخطوط البيضاء قليلة. كلانا تجاوز الخمسين لكنّني أعتقد أنني هرمت بسرعة أكبر أكثر منه.

"كارمينِهْ طفل عانى كثيراً. لا أقول مثلنا، فالأمور مختلفة. لو كانت تلك القطارات لا تزال موجودة، قطاراتنا...".

لا يخجل توماسينو من قصتنا. إنَه فخور بتلك الغرفة الصغيرة المحشوة بالأوراق. أحدّق في يديّ، مسامير اللحم على الأصابع، يبدو أنني كبرتُ عبثاً.

"أميريهْ، فكّر في الأمر. أنت القريب الوحيد الذي بقيت له". أبقى صامتاً. "لا أعرف حتى السؤال". ينظر إليّ توماسينو بتعبير كارمينِهْ نفسه عندما غادرت بيت مادالينا، كأن الأمر يتعلق بوعدٍ لم يتم إيفائه. لكن أنا لم أعِدْ أحداً بشيء؛ فضّلت البقاء وحدي بدلاً من الوعد. أمعن في المكتب لأتجنب نظرته. الكتب المرتَّبة على الرفوف، المكتب من الخشب فاتح اللون، الكرسي الذي اتخذ على مرّ السنين شكل ظهره. على

طاولة المكتب بجانب صور أبنائه ووالديه، الدونا أرميدا والدون جواكينو، أجد صورة الأب ذا الشاربين بشعره الأبيض، وزوجته بحضورها الطاغي دائماً، لكن مع تجاعيد أكثر. ها هو الجواب. إنه أمام عينيّ.

48

هذا المساء، بدلاً من العودة إلى الفندق، سأذهب لأجول في الحيّ الذي كنت تعيشين فيه، كأنني أودّعه للمرة الأخيرة. الطرق التي كانت قاسية ومُنهكة تبدو لي أكثر ألفة. ما زلت خائفاً من الماضي لكنني أبحث عنه.

الزقاق ساكن الليلة، ويبدو أنني بقيت وحدي في كلّ المدينة. قبل أن أصل نهاية الزقاق أتوقف أمام Basso ينبعث منه الضوء الأزرق لشاشة التلفزيون. الأبجورات مفتوحة. ثمّة كرسيان وُضعا أمام الباب. إنه Basso زاندراليونا.

أنتظر بضع ثوانٍ، كما لو كنت أتوقع رؤيتها في أي لحظة بالإزار المربوط خلف ظهرها وضحكتها العريضة. يصل صوت ذكوري من الداخل: "هل تبحثون عن أحد ما؟" يطلّ رجل عجوز بشعر رمادي مضموم بضفيرة رفيعة تحاذي ياقة قميصه.

"من الشخص الذي تبحثون عنه؟"

"لا أحد، لا أحد... أعتذر عن التطفل، عمتم مساء".

يخرج الرجل جاراً قدميه والسيجارة بيده. لديه حاجبان كثيفان ومنفوشان وزرقة عميقة في عينيه. ينظر إليّ ويرمش مرات عدة. أعود إلى الخلف وأقف أمامه. إنه عجوز الكنيسة. "ألم يكن هذا مسكن زاندراليونا؟" أبادر، "السلام لروحها..."، يمجّ الرجل نفساً ويرفع عيونه إلى السماء. "لقد انتهت، صاروا أربع سنوات". يعدّ على أصابعه ويزفر الدخان مشكّلاً عدداً من الحلقات الصغيرة تتلاشى ببطء: "بعد مدة وجيزة من وفاة غورباجوف...".

"لكن غورباتشوف ما زال حياً...".

"لا يا سيدي، قالت لي زاندراليونا بالضبط إن غورباجوف مات والشيوعية أيضاً. وتوفّيت بعد أيام قليلة...".

لا أستطيع التنبؤ هل يهزأ مني أم لا. هو يواصل التدخين بتلك الطريقة الغريبة ويروي: "أنا أرمل وكنت أقيم مع ابنتي المتزوجة وزوجها والأطفال، بنتين وصبي. لم يكن لدى زاندراليونا أقارب، وهكذا، عندما أسلمت الروح، مضت أشهر ولم يدَعِ أحد ملكيته، جئت للبقاء هنا معها... لكن هل أنتم أحد أحفادها؟" يسأل، ربما لشعوره بالقلق من أن يفقد البيت.

"لا تقلق، لست بصدد ادعاء أي شيء".

"إذن أنت صحافي، وجهك معروف...".

"لا. أقوم بالدعاية لكولونيا بعد الحلاقة".

العجوز يراقبني بصمت رامشاً عينيه بوتيرة تبدو لي منتظمة. يشعل سيجارة أخرى وحلقات الدخان تبدأ الدوران في الهواء. أخيراً فهمت. "أنتم كابا إيفيزِو؟" أقول له. لا يجيب، لكنه يبتعد من الباب: "تفضلوا...". لبضع ثوانٍ تقاوم عيناه الرغبة في الرمش فأتعرف إلى نظرته السابقة باللون الأزرق نفسه. أتردد لحظة في المدخل، ثم أدسّ رأسي في البيت وبنظرة واحدة أحيط به كلّه. ورق الجدران مصفرّ في الزوايا، لكنه كما عهدته. الأرضية بأطياف مختلفة من البلاط الرمادي غير المنتظم والمتقطع حول محيط الغرفة. حتى يبدو لي أنني عرفت بلاطتي.

"بما أنكم بهذا اللطف"، أقول وهو يشعل سيجارة أخرى في إحدى الزوايا، "أريد أن أبحث عن غرض يخصّني. أتسمحون؟"

ينظر الرجل حوله ويفتح ذراعيه، كأنه يقول: لكن ما الغرض الذي يمكن أن يثير اهتمامك هنا في الداخل؟ أجثم بالقرب من صف البلاط المؤدّي إلى الحمام. رغم السنوات، أقرفص بالألفة نفسها

التي يقرفص بها أطفال الشوارع على الأرض.
"أميريه، انهض عن الأرض"، كنتِ توبخينني.
أتلمس البلاطات بيدي وأحسّ بالغبار العتيق تحت أصابعي. ألمس كل المربعات بأطراف أصابعي لاختبار انحرافها. أركز على إحدى البلاطات التي تبدو بالية أكثر من الأخريات. أحاول نزعها من مكانها. ببطء في البداية، ثم بقوة أكثر، لكنها تقاوم. الرجل يحدّق إليّ بعينيه المصابتين بالتشنج القسريّ. أشعر أنه يتفحصني. ربما يكون قلقاً على الأرضية فحسب. تخرج البلاطة وأقع للخلف ومربع السيراميك لا يزال في يدي. ثمة فجوة في الأسفل.
"أنتم كيف تعرفونني؟" يقول العجوز. تعود أمام عينيّ حزم الأشياء المخبأة تحت السرير، الأسمال التي كنت أجلبها إليك كل يوم والتي كانت تُنظَّف وتُرتَّب وتُباع على منصة كابا إيفيزو. أنت وهو كنتما تحبسان نفسيكما في المنزل للعمل وترسلانني خارجاً.
"أنا أيضاً، عندما كنت طفلاً، كان لدي كشك في السوق"، أجيب.
يكفّ الرجل عن الحديث. ليس واضحاً هل كان غاضباً لأنني كسرت أرضيته أو مترقّباً لما يمكن أن يوجد. أموال زاندراليونا الشهيرة. ربما يتبع

بذاكرته مساري نفسه ويعيد البناء على وجهي العجوز تقريباً، وجه ذلك الطفل ذي الشعر الأحمر.

أدس ذراعي في الحفرة وأسحب صندوقاً من التنك مع حافات صدئة. تحت طبقة الغبار لا يزال الطلاء الأزرق والعلامة التجارية للبسكويت. أنا لم آكل البسكويت، الصندوق أهداكِ إياه بائع اللحم المقدَد في بالونيتّو. كنتِ تستخدمينه لحفظ أدوات الخياطة. ثم في أحد الأيام، كان كابا إيفيرّو بالذات من أهداك صندوق المحترفين الخشبي بكوّتيه اللتين تفتحان متناظرتين نحو الأعلى مع الكثير من الجيوب لبكرات الخيطان الملوّنة، والإبر المختلفة الأحجام. كان للصندوق الخشبي الجديد ثلاثة أرفف يمكن رفعها بمفصلات معدنية. كم كانت جميلة! كانت تبدو لي مثل سفينة الفضاء في الرسوم المصوّرة لقصص الخيال العلمي المعروضة عند بائع الصحف في شارع ريتيفيليو. هكذا أعطيتني علبة البسكويت. لم تهدِ لي أي شيء أبداً. تلك العلبة بلون ورق الحلوى كانت ثمينة لديّ. لم أسمح لأحد أن يلعب بها، ولا حتى توماسينو. عرضتها على زاندراليونا فقط وقرّرنا إخفاء كل الأشياء التي أرغب في الاحتفاظ بها داخلها، كأنها خزنة حديدية. قالت زاندراليونا إن لديها مكاناً

سرّياً. وهكذا بقيت كنوزي في الحفرة طوال تلك السنين، وكانت لتبقى لو لم يدعني كابا إيفيزّو للدخول. كانت ستعيش إلى ما بعد زاندراليونا، وما بعدي. مثل كل الأشياء التي تترك معلّقة وتؤجل إلى اليوم التالي دون معرفة أن اليوم التالي غير موجود. مثل طبختك الجنوبية.

أنا وكابا إيفيزّو نبقى محدقين في الصندوق. كلانا غير مستعجل. اتسع الوقت لي وله، أصبح فجأة مريحاً، مثل أحذيتي. أضع صندوق التنك فوق طاولة الفورميكا. أدسّ أظفاري في أخدود الغطاء فتنفتح مصدرةً صدئً معدنياً. تظهر قطع كنوزي الواحدة تلو الأخرى، جنباً إلى جنب مع قدرتي السليمة على الاستعادة.

الدوّامة الخشبية مع الخيط حولها والرأس المعدني...

آميريةٌ دعك من هذه الأداة، تعال إلي.

أغطية البيرة الأميركية التي أهداني إياها جندي شديد السواد...

Wuozziurnèm, boi? lidl

Wuozziurnèm?[20]

[20] What's your name? What's your name, little boy? [ولد صغير؟ ما اسمك، ما اسمك؟] (الكلمات إنكليزية، لكن اللفظ باللهجة النابوليتانية).

قطعة خبز جافة كنا، أنا وتومَاسينو، قد سرقناها من منزل باكيوكيا...

> اتركها خارجاً، أيها اللص المخادع: أنت تذهب حتى لسرقة الخبز، مثل...

قطع من الخيطان. قشرة جوز مع شراع صغير يرتفع في المنتصف. شمعة نصف مستهلكة. دبوس مربّية أطفال وريشة ببغاء. أربعة أشياء قديمة كانت مكسورة حين عثرت عليها، من يدري في زاوية أيّ شارع. كل ما عندي من ألعاب.

ثمّ ورقة مطوية بزوايا مصفرّة ومتآكلة من الرطوبة. أفتحها وأنا أخشى أن تتفتت بين يديّ. قصاصة صحيفة باهتة تماماً، مع صورة لشخص مجهول، رجل طويل القامة ذي شعر أجعد، وتحتها كتابة بأحرف كبيرة: "جيجّين أووو أميريكانو"، جيجينو الأميركي. كنتُ قد حافظت عليها لأكون قادراً على تخيّل أبي. كابا إيفيزو يحدق في كل تلك الأشياء التي تظهر واحدة تلو الأخرى. ثم ينحني على ركبتيه. إنه نحيل لدرجة أظنّ أنه يمكن أن ينكسر. نحن قريبان جداً حتى ظننت لوهلة أنه سيداعبني. إنما يمدّ ذراعه الذي يختفي في الحفرة، وأذنه تلامس الأرض تقريباً. يصدر الرجل أنيناً بسبب هذا الجهد، ويبدو أنه يريد أن ينسلّ بكامل جسده داخل الحفرة، للعثور

على مال زاندراليونا وجواهرها وذهبها وأحجارها الكريمة فقط. لكن لا شيء. لقد انتهى الكنز.

"ليس صحيحاً أنكم تروجون كولونيا بعد الحلاقة"، يرميني بنظرة تحدٍّ. أنهض والصندوق تحت إبطي. أحييه وأخرج. "تعال لزيارتي أحياناً"، يبدأ بمخاطبتي بـ"أنت"، كأنه شعر فجأة أنه أعلى منزلة مئي، "هناك أشياء كثيرة يمكنني إخبارك إياها"، أسمعه يقول عندما أصير في الزقاق.

يغلق الباب، وأنا أتوقف في الظلّ على بعد خطوات من النافذة. أرى الرجل، بعدما أصبح واثقاً أنه بمفرده، يزفر حلقات الدخان نحو السقف ثم يعود ويدسّ يده في الحفرة. أدنو من الباب، وفوق صندوق البريد ألاحظ ملصقاً أبيض مكتوباً عليه بخط اليد "لويجي أميريو". في مدينتنا، يحمل كل شخص اسماً مستعاراً طوال الحياة، وحتى بعد الموت يُدَوَّن ذلك الاسم في إعلانات النعي والملصقات الجنائزية، وإلا فإن الناس لن يتعرّفوا إليه. أنا لم أكن أعرف قط اسم كابا إيفيرّو.

لويجي أميريو

كابا إيفيرّو في الاسم واللقب يحمل أسماء أول طفليك، لويجي وأميريغو. أو ربما نحن حملناهما

دون أن نعرف ذلك.

تم حفظ لقطة الشاشة في: /Pictures/
Screenshot

"أخبرتني مادّالينا أن كنيتك 'سبيرانتسا'، مثلي".

"أنا كنيتي 'بنفينوتي'، لقد تبنوني".

"والآن يتبنونني أيضاً؟"

كارمينهْ يسير مهرولاً بجانبي دون أن يكفّ عن الكلام. أخبروني أنني أيضاً كنت أطرح الكثير من الأسئلة في صغري. كنت مثل الزئبق. أليس كذلك، كما كنتِ تقولين؟ آه، ها هو. كنتُ عقاباً إلهياً!

"تقول أمّي إنني عندما أمشي في منتصف الطريق عليّ أن أمسك دائماً بيد شخص كبير"، ويحاول أن يتشبث بي.

"لكننا على الرصيف، ولا سيّارات تمرّ". يفكّر في ذلك ويهزّ رأسه غير مقتنع. عندما خابرتني مادّالينا إلى الفندق واقترحت عليّ مرافقة الطفل في نزهة لأن لديها التزاماً، فهمت أن الأمر يتعلق بفخ. إنها عنيدة، يجب أن تسير الأمور دائماً كما تريد. عالمها بلا نهايات، أفكّر وأتذكّر الغرفة الكبيرة في بولونيا والخجل الذي عانيته حين كان اختيار الأطفال يجري تدريجياً وتُرِكْتُ وحدي دون أن يأخذني أحد معه.

"هل حقاً كانت لديك أمّ أخرى عندما كنت صغيراً؟" نصل إلى نهاية الرصيف.

"هذا قاله لي أبي. الجدّة لم تشأ أن تحكي لي هذه القصة". إشارة السير تتحول إلى الأخضر للمشاة. "يا لحظك! أنا أيضاً أريد أماً أخرى في بعض الأحيان". يمدّ يده نحو يدي ليعبر الطريق، وفي هذه الأثناء، تظهر في عينيه دمعتان.

أمسك بيده، ناعمة وباردة. يضغط كارمينِهْ بقوة، يفرك ذراعه على وجهه ليمسح الدموع، ونصل معاً إلى الطرف الآخر من الشارع. نحن مجدداً على الرصيف لكنه لا يترك يدي. تتبادر إلى ذهني رائحة دِرنا عندما دفأتني بمعطفها في موقف الحافلة وأنا خائف. يدي، التي كانت حتى الآن ماهرة في استعمال القوس والكمان، يمكن أن تكون أداة للمواساة ومنح القوة. هي قوة كبيرة جداً حتى أنني غير متأكد من قدرتي على استخدامها. اليد التي تمسك بقوة يد الطفل تشعر فجأة بالوهن. لقد قطعت للتو وعداً لا تستطيع الحفاظ عليه.

"الجو حارّ جداً اليوم للذهاب إلى حديقة الحيوانات، سأعيدك إلى مادّالينا".

"هل سنذهب في مرة مقبلة؟"

أفكّر في الرحلة إلى ميلانو، الحفلات المحدّدة في البرنامج. لا أجيب.

"عندما تعود هناك مفاجأة لك"، يقول. نصل إلى مدخل مادالينا. وبينما أمشي في طريق العودة، يستمرّ الشعور بليونة راحة يده مطبوعة في كفّي.

تم حفظ لقطة الشاشة في: /Pictures/Screenshot

في محكمة الأحداث. الحاجب ذو الشعر المندوف يسمح لي بالمرور فوراً، حتى أنه يدعوني "دكتور"، يا للغرابة! في مدينتك المؤهلات ليست أكاديمية، إنما بالتشريف. "تفضّل دكتور"، يقول، "القاضي سابوريتو بانتظارك"، ثم يقترب من المصعد ويحجز الصعود.

يغلق توماسينو الباب ويجلس خلف مكتبه.

أجلس أيضاً.

"جئت أودعك".

يمسّد توماسينو شعره كأنه ما زال أجعد كحاله وهو في السابعة. "إنها أخبار جيدة! آخر مرّة هربتَ دون أن تخبرني شيئاً".

طرق على الباب. يظهر رأس الحاجب: "سيدي القاضي، أترغبون في القهوة؟" في مدينتنا القهوة ليست مشروباً إنما واجب. يومئ توماسينو بيده وهو يختفي.

"هل تذكر الأقداد الملونة؟" أقول وأنا أنظر إلى الصور على مكتبه. تجهّمُ توماسينو يتحول ابتسامةً.

"ومن ينساها؟"

"قبل المغادرة كان كل شيء ممكناً، حتى بيع الجرذان على أنها أقداد. أما عند العودة، فحتى أنا ما كان بإمكاني أن أصدق ذلك، لقد تبخَّر السحر. لم يبقَ أي شيء هنا، أمَي فقط. كل البقية هناك، أنا فضّلت البقية، وأصبحت ما أنا عليه، المايسترو بنفبنوتي".

أتوقف، لست واثقاً من كيفية المتابعة، ثم بدأت الكلمات تخرج تلقائياً دون أن أختارها: "لكنني بقيت ذلك الآخر، ذلك الذي يحمل كنية كارمينة نفسها".

لست متيقناً هل يفهم توماسينو ما أعنيه تماماً. كانت حياته مختلفة. هو لم يضطر إلى الاختيار. لا تنقص مكتبه أي صورة.

"يمكنه أن يأتي ويبقى معي"، أقول دفعة واحدة، "أنا القريب الوحيد الذي تبقّى له كما قلت. إلى أن يستقر الوضع. وتتوضح الأمور...".

"أنا سعيد لأنك تفكّر في هذا، ولكن...".

"أعرف. إنه أمر معقّد، أنا أعيش بمفردي، أسافر كثيراً، ولكن أستطيع أن أفعل شيئاً من أجله. لقد حصلت على الكثير، ولم أعطِ في المقابل أي شيء".

يفتح توماسينو فمه، ثم يغلقه.

"لا أعني إلى الأبد، لبضعة أشهر فقط، سنسافر معاً، ثم نرى...".

"أميرية، لم تعد هناك حاجة. لقد أطلقوا سراح أمّه".

"كيف؟"

"عادت إلى المنزل أمس".

"هل تمَت تبرئتها؟"

"ليس تماماً. منحوها الإقامة الإجبارية في المنزل، آخذين بالاعتبار وجود طفل قاصر. على أي حال، لقد تم تخفيف وضعها".

"وماذا عن أغوسطينو؟"

"لا شيء بعد. التحقيقات مستمرة، سنرى. التهمة خطيرة".

"مخدرات؟"

يبدو توماسينو مغموماً كأننا نتقاسم الذنب بالتساوي.

"لكن الطفل؟ هل يمكننا أن نبقى مطمئنين؟"

"إنها أمّه...".

لا أعرف. أرتبك. الشيء الصحيح الذي ينبغي فعله هو دائماً في مكان آخر. الأمّ عادت، هو خبر جيد، مع ذلك، أنا غير قادر على الابتهاج.

"أريد التحدث إليها. أريد أن أقول لهذه المرأة إنها تستطيع الاتصال بي لأتمكن من مساعدتهم.

هل لديك عنوانها؟"

يهزّ تومَاسينو رأسه. لا يفهم. لبضعة أيام خلت، لم أكن أريد أن أعرف أي شيء عن ذلك، والآن العكس. لقد قدّمت يدي وعداً وبدأت وضع خطط للمستقبل. تماماً كالوقوع في الحب. يسحب تومَاسينو ملفاً من الكومة أعلى الطاولة ويدوّن لي عنواناً ورقماً على قصاصة من الورق الأصفر.

نودع بعضنا بعضاً كأن علينا أن نلتقي مرة أخرى في اليوم التالي. كما يحيي صديقان بعضهما بعضاً دائماً. "انتظر"، يقول قبل أن أخرج من المكتب، "هناك شيء أريد أن أعطيك إياه". يفتش في درج المكتب، ويسحب ورقة مطوية إلى أربع: "بحثت عنها بعد أن أتيت لزيارتي. لقد جعلتني أتذكر أشياء كثيرة...".

أفتح الورقة وتظهر على الصفحة المصفرّة ثلاثة وجوه لأطفال مرسومة بالقلم الرصاص. الشقراء ذات الشعر القصير، الأحمر ذو العيون الخبيثة، الأسود الفحم.

"إنها الصورة التي رسمها ذاك الشاب يوم المغادرة"، أخمّن.

"إنها لك، أهديك إياها. هناك التوقيع والتاريخ. الرفيق ماوريتسيو، هل تذكره؟"

لا أقول شيئاً. أطوي الورقة وأحدق في مقدمة حذائي وأنا ما زلت غير مصدق أنني لم أعد أشعر بالألم. ثم أدنو من باب المكتب ببطء. خارج النافذة قمم الأشجار تدفعها الريح باتجاه البحر. الطقس يتبدّل.

على الخشب الداكن للباب، توجد لوحة نحاسية. أقرأ المكتوب: "أ. سبيرانتسا". يمكن أن أكون أنا، يمكن أن يكون منزلي، حياتي. إنما هي شقة أغوسطينو، حياته. لا أعرف هل هي أسوأ أو أفضل. العشبة الجيدة والعشبة الضارة، هكذا كنتِ تفكّرين. أبقى هناك أمام الباب دون أن أطرقه وأتخيل أميريغو الآخر، ذلك الذي بقي في المدينة التي ولد فيها، خلال كل هذه السنوات. أراه يتجول في الشوارع والأزقة، هو ذاته لكنه مختلف، أكثر اكتنازاً. مع شعر أقل. أكثر قتامة في البشرة. ضحوكاً. مع امرأة بجانبه. امرأة ذات شعر أسود وثديين عارمين. كان يمكنه أن يكون حِرَفياً، أو عاملاً. ربما التحق بالورشة عند والد ماريوتشا الإسكافي، كما كنتِ تفكّرين. ثم، بعد أن يكبر كان سيفتتح متجراً للأحذية يغير نعالها ويجعلها جديدة ومتكيفة مع أقدام أولئك الذين سينتعلونها لأنه كان يعرف معنى انتعال أحذية ليست لك. أو كان سيصنعها يدوياً. كان يمكن ألّا تكون أشغال المتجر جيدة أيضاً. وربما جيدة جداً ويصدّر الأحذية إلى الخارج. إلى أميركا. وكان

سيأخذك أيضاً إلى أميركا. لكان اعتنى بكِ. ثمة جرس لكنني لا أضغط عليه. أطرق بعقدة الأصبع طرقة خفيفة. "من الطارق؟" يسأل صوت امرأة من الداخل. "أنا أميريغو، نحن لا نعرف بعضنا بعضاً. جئت لأودّع الطفل".

أسمع جلبةً، ربما كرسي يُجَرّ على الأرض. المرأة تسأل ابنها الذي ربما يشاهد التلفزيون في الغرفة الأخرى. ثم صمت. أطرق مرة أخرى. يفتح الباب فقط بما يكفي لإظهار عينين كستنائيتين وخصلة شقراء تنسدل على وجه حاد الملامح.

"عذراً"، تقول زوجة أخي، "لكن لا يمكنني السماح لك بالدخول، لا يمكنني السماح لأحد بالدخول. لقد كلّمني أغوسطينو عنكم".

"فلنتحدث بلا كلفة"، أقول ممعناً النظر في الشقّ.

"اسمي روزاريا"، وتمدّ يدها عبر الثغرة، "أصغِ إلي. يمكنك اصطحاب كارمينهْ لبعض الوقت إن كان هذا يروق لك. أنا لا أستطيع الخروج".

ينسلّ الطفل إلى الخارج ويأخذ يدي. "عمّي"، يصرخ بعينين مبتهجتين لأنني وفيت بالوعد.

"سأعيده في غضون ساعة، لا تقلقي".

"لست قلقة"، تجيب. كانت على وشك إغلاق الباب، ثم تراجعت.

”لا تقلق أيضاً“، تقول بوجه مشدود. وجه لا يزال غضاً لكنه مؤطر بهالات داكنة، يجب أن تكون حديثة. ”أغوسطينو إنسان طيب، ثمة خطأ في الأمر. نحن كلنا أناس طيبون“.

”حتماً“، أجيب محرجاً، ”أعرف ذلك“.

”لا، أنت لا تعرف أي شيء“، تقول وتزيد قليلاً من اتساع فتحة الباب. أرى أيضاً يدها التي تسندها على العضادة. لديها أظفار قصيرة والأصابع طويلة ونحيفة، كعازفي البيانو. ”لم تكن مهتماً بأمرنا أبداً“.

بينما تتكلم، تقترب من وجهي لكيلا يسمع الطفل، وأكتشف أن العيون ليست كستنائية وإنّما بلون أخضر داكن.

”أنا آسف، يا روزاريا“، أتحسر وأشعر أن الاعتذارات ليست موجهة إليها فقط، ولكن إليك أيضاً يا أمي.

”ما الداعي للأسف؟“ تغير نبرتها كأنها لم تعد غاضبة، لكنها تفيض كآبةً فحسب.

”لم يحدث شيء. عندما يعود أغوسطينو، سأطلب منه الاتصال بك، لقد كان أيضاً مخطئاً معك“، وتفلت منها نصف ابتسامة، ”كارمينة يجدك لطيفاً“. تغلق الباب دون أن أكون قادراً على الإجابة.

"هل نذهب؟" يقول الطفل.

نسير في الطرقات المشجَرة للحي السكني. نبدو كأننا في مدينة أخرى. للوجوه لون مختلف، والملامح أقل بؤساً، ونبرة الصوت أقل وطأة، والهواء نقي. "هل عشت دائماً هنا؟" أسأله. "لا. في صغري كنا جميعاً في منزل الجدّة أنطونييتا. غير أنني لا أتذكر ذلك. هذا ما أخبروني به. لكنّني الآن كنت أبقى دائماً في منزلها، أنام هناك، وألعب وأذهب إلى كنيسة الدون سلفاتورة...".

"كنت تذهب مع أصدقائك في الجوار للهو...".

"أمّي دائماً عصبيّة".

"وأمّي كانت كذلك".

"هذا ليس صحيحاً. كانت مرحة".

الحب محكوم دوماً بسوء الفهم، أفكّر. نتجه نحو الحدائق العامة. "هل تريد بوظة؟" يهزّ رأسه.

"لا أحبّها".

"ماذا تحبّ؟"

"أفتقد جدّتي".

"أنا أفتقدها أيضاً".

نسير بصمت حتى مدخل الحديقة. ثم يتوقف الطفل ويسحبني من يدي. "ستغادر مجدداً، أليس كذلك؟"

"سأغادر غداً"، لا أستطيع الكذب، "لكن سأعود قريباً".

"إذن، يجب أن نذهب في الحال".

"للقيام بماذا؟"

"إنه سرّ لك. مفاجأة من الجدّة. لقد قالت إنك عندما تأتي إلى هنا، سنفعلها معاً، لكن الآن...".

ترتسم على وجهه ابتسامة حزينة. ألاحظ الآن فقط أنه ينقصه سنّ أمامي. لقد أخذه الفأر.

"لا أدري هل المفاجأة لا تزال قائمة...".

"فلنحاول"، أقول.

نصعد التل ونستقل التلفريك. نصل إلى حيّك، البيوت واطئة ومتكئة على بعضها بعضاً، محصورة بين الشوارع الأكثر أناقة، على بعد خطوات قليلة من الساحة التي تضم المسرح. في الزقاق صراخ الناس يذكّرني بكلمات الماضي، بإيقاع مثل الأغاني. "مساء الخير، دونا أنطونييتّا!" "كل الأمنيات، دونا باكيوكيا!" "هل الصغير بخير؟" "ينمو مثل عشبة ضارة..."، "هل الأعمال على ما يرام؟" "لم أفهم، ماذا تقصدون؟" "اسألوا كابا إيفيرِو..."، "ثمة ألسنة سيئة كثيرة!" "هل سيعود زوجكم؟" "بالتأكيد سيعود!" "بعد إذنك، دونا أنطونييتّا"، "عمت مساء، دونا باكيوو!"

أمام بيتك، أمسك بيد كارمينهٔ وأعصرها قليلاً. الباب ما زال مفتوحاً. لم يلمس أحد شيئاً. ندخل معاً. أحسّ بالحزن يتسبب في انقباض بطني. يقودني قرب سريرك. "هنا، في الأسفل"، يقول لي. أنا لا أفهم. "إنها هنا، المفاجأة".

أنحني على الأرض لأنظر تحت السرير حيث كانت تقبع في إحدى المرات بضائع كابا إيفيرَو. شفاه كارمينهٔ مشدودة من الانفعال، وشفاهي أيضاً. أمدّ ذراعي وأتناوله.

"استغرقت الجدّة الكثير من الوقت، لكن في النهاية عثرت عليه. قالت إنه يجب أن يعود إليك". أفتح الحافظة المغبَرة قليلاً، وأرفع الغطاء.

يبدو الكمان أصغر مما هو في ذاكرتي، يبدو كلعبة. يبدو لي أنني حزته كهدية مرة أخرى، لكن هذه المرة منكِ. الشريط المحاك على البطانة لا يزال مكانه، لقد تغير لونه لكن تمكن قراءة اسمي: "أميريغو سبيرانتسا".

"أرأيت؟ أنت أيضاً 'سبيرانتسا'".

أمرّر أطراف أصابعي على الأوتار ويعود إلى ذاكرتي الورق الملون الذي كان يغلّف الكمان يوم عيد ميلادي، ودروس المايسترو سيرافيني في الغرفة الخلفية لمتجر ألتشيدهٔ، والإحساس عند

سماع تلك الأصوات النشاز التي تتحول رويداً رويداً إلى أصوات لطيفة مع التمرين، وأصابعي التي كانت تزداد خبرة.

”أنت سعيد“، يقول الطفل. إنه لا يسأل، بل يطلب ذلك.

تم حفظ لقطة الشاشة في: /Pictures/Screenshot

جئت إلى المقبرة لأجلب إليك زهرة. إنها المرة الأولى التي نلتقي فيها، أنا وأنتِ، بمفردنا منذ وقت طويل. في البداية، حاولت أن أصلي، ثم فهمت أنه ليس وقت المصالحة. حاولت التحدث معك. اعتقدت أن عليَّ أن أخبرك أمراً مهماً، لكن لا شيء يتبادر إلى ذهني. لقد أهدرت الكثير من الغضب وأخيراً نسيت السبب.

السماء هامدة، ليست جميلة ولا قبيحة، بانتظار الوقت القادم. عدد قليل من الناس يتعقّبون موتاهم بين ممرات شواهد القبور. أحضروا زهوراً وزيتاً جديداً للشموع. أنا أيضاً وضعت زهرتي فوق قبرك. لم أشعل الشموع، لم تكوني تحبين الرقاد والضوء مشتعل. الزهرة ستذبل غداً أو بعد غد، لا يهم. التفكير فيك لن يُمسّ. كل السنوات التي قضيناها بعيدين كانت رسالة حب طويلة، كل نوتة عزفتها عزفتها من أجلك. ليس لدي شيء آخر أقوله لك. لست بحاجة بعد الآن إلى معرفة الإجابات. عن والدي، عن أغوسطينو، عن بُعدك، عن صمتنا. سأحتفظ بالشكوك لنفسي.

سأحملها معي لتكون سلوتي. لم أحلّ أي شيء، لا يهم.

أبقى مدّةً أخرى أمام الزهرة. أنتظر على قدمي إلى أن أشعر بثقل ساقيّ فأودعك. ذاك الذي لم نقله لن نقوله بعد الآن، لكن يكفيني أن أعرف أنك كنتِ طوال هذه السنوات على الجانب الآخر من تلك الكيلومترات من سكك الحديد، بذراعيك المضمومتين على معطفي. بالنسبة إليّ، هناك ستبقين. تنتظرين، ولا تغادرين.

برد الهواء فجأة. إنه يونيو، لكنه يبدو نوفمبر. أمطرت هذه الليلة. عاصفة بدت كأنها لا تترك فسحة للأمل. إنما هذا الصباح بزغت شمس باهتة وسحبٌ متغضنة وسط السماء الرمادية. درجة الحرارة انخفضت، خريف مفاجئ. الناس في الشارع يقولون إنه ليس في وسعهم الاطمئنان أبداً وإنهم اضطروا إلى استعادة السترات من خزائن الملابس حيث احتفظوا بها لتبدل الموسم.

محطة غاريبالدي تغصّ بالناس. عندما كنت أذهب إلى هناك مع توماسينو لرؤية القطارات وهي تغادر، كان كل شيء بحجم مضاعف. أتذكّر الصوت الذي كان يعلن القادمين والمغادرين والأشخاص الذين يرفعون حقائب ضخمة، يضعونها على أكتافهم ويتوجهون نحو الرصيف. أرفع نظري إلى اللوحة المضاءة وأقرأ الرقم. أمشي ببطء نحو الرصيف.

في المرة الأخيرة التي كنت فيها هنا، كان ظلاماً، كنا قد تشاجرنا، أنا وأنت، وكنت أركض حافياً بعكس اتجاه الأغاني وأضواء عيد بيديغروتّا. منذ ذلك الحين تفاديت دائماً محطات

السكك الحديدية. كانت تشعرني دوماً بالاضطراب. لكن أمس ذهبت إلى وكالة السفر وبدّلت بتذكرة الطائرة تذكرة قطار. أحتاج من جديد خوض الرحلة التي خضتها منذ سنوات طويلة.

على الرصيف، تهب ريح باردة وكل أولئك المنتظرون ينكمشون داخل معاطفهم. أنا أيضاً أرتجف في سترتي الكتان.

بدأ المطر يهطل. لقد وصلت المدينة بوجه مبلل بالعرق وها أنذا أتركها بوجه مبلل بماء المطر. مع ذلك، لا أشعر بالحزن، بهجة الشمس والسماء الزرقاء ذريعة زائفة روجتها الأغاني الشعبية، بينما تلزمني زخات المطر المتساقط ألّا أفكّر في مرور الوقت. أنظر إلى الساعة وأستدير إلى الخلف للمرة الأخيرة.

أبحث بنظري بين الأشخاص المتجمعين تحت المظلة وأتنهد. يدخل القطار إلى المحطة بهسهسة غير متناغمة، ثم الفرامل. أصعد ببطء الدرجات التي توصلني إلى العربة. أتحقق من التذكرة وأبحث عن المكان. أجلس، أستمر بتثبيت نظري على الرصيف منتظراً. سيدة شقراء بفستان منمنم بزهور حمراء صغيرة مقعدها أمامي. أساعدها في رفع الحقيبة ووضعها على رفّ القبعات.

تشكرني السيدة بابتسامة، وعندئذ فقط أراهما قادمين. جرياً والشعر تلوّحه الريح التي تزداد قوة باستمرار. أنقر بيدي مرات عدة على الزجاج لألفت انتباههما. يجتازان عربتي ويتوقفان على مسافة بضعة أمتار منها. يهدر القطار من جديد لكن الأبواب لا تزال مفتوحة. أنزل راكضاً. يترك كارمينِة يد ماداَلينا ويهرع نحوي. "لقد تأخرت الحافلة، كانت هناك زحمة سير"، يخبرني وهو يلهث في حين أنني أقرفص على ركبتي وأعانقه، "عندما أعود، أريد أن أجدك تنتظرني هنا، حسناً؟"

"نعم، يا عمّي"، يقول كارمينِة، "سآتي برفقة أبي".

القطار يصفّر ثانية للمرة الأخيرة. أصعد على متنه. أطلّ من النافذة، أمدّ ذراعي لكنّني لا أستطيع لمس يد الطفل. أهديته كماني، ذاك الذي جعلتني أجده. إنه بحجم مناسب له تماماً، من يدري هل لديه الشغف لتعلّمه. يمكنه أن يفعل ذلك هنا دون أن يضطر إلى الهرب، ودون الحاجة إلى مقايضة رغباته مع كلّ ما يملك. تغلق الأبواب ويتحرك القطار. ماداَلينا وكارمينِة يتلاشيان تدريجياً بينما ينزلق الطريق تحت العربة.

المدينة تبتعد ببطء في البداية، ثم بسرعة أكبر. قطرات صغيرة من المطر تنهمر على الزجاج وتنزلق بكثافة مطّردة.

أجلس مكاني. في الخارج، تمضي الأشجار والمنازل والغيوم.

المرأة ذات الثوب المزهَر الجالسة قبالتي تفتح كتاباً وتبدأ القراءة. بين حين وآخر، ترفع نظرها من الصفحات لتنظر إليّ، ثم تشير إلى الحافظة الموضوعة جوار الحقيبة وتبتسم لي: "هل أنت موسيقي؟ أنا شغوفة بالسيمفونيات".

"أنا عازف كمان".

"وهل أتيت لحفل موسيقي؟"

"لا، عدت لأودع عائلتي. أنا أعيش في مكان آخر، ولكن هذه مدينتي"، أجيبها، وأذهل من سهولة البوح بالحقيقة.

تمدّ إليّ يدها وتقدم نفسها. أشد على يدها وابتسم لها أيضاً. "سعدت بلقائك، أميريغو"، أقول، ثم أضيف: "سبيرانتسا".

العربة مريحة، القطار يسير بصمت، الجو معتدلٌ، لا بارد ولا حارّ، الأصوات المحيطة تسكنني كدندنة خافتة. أمامي الكثير من الوقت لكنّني لست في عجلة من أمري، لقد خضت

الرحلة الأطول. اضطررت إلى السفر عكسياً للوصول إليك يا أمي.

كماني على الرفّ والمرأة الشقراء عادت واستغرقت بالقراءة ثانية. بين حين وآخر، تلتقي نظراتنا. فجأة أشعر أنني مرهق مثل طفل راضٍ. هكذا أغلق عينيَ. أضع رأسي على المسند ويأتي النوم لطيفاً.

حول الكتاب

نبذة

أطفال خائفون تفتح مخيّلاتهم أبواب الاحتمالات الأكثر سوءاً.

عندما ركب أميريغو القطار برفقة أطفال آخرين ذات صباح من عام 1946، لم يكن يعرف وجهته ولا مصيره. بدهشة سنواته السبع، ونظرة طفل الأزقّة الثاقبة، يرسم أجواء إيطاليا الخارجة من الحرب كأننا نراها للمرّة الأولى.

إلى أين تأخذهم هذه الطريق؟ ولمَ يتركون أمّهاتهم ومدينتهم؟

رحلة ستغير مصيرهم وتحملهم من أزقة نابولي الفقيرة نحو الشمال البعيد حيث يكتشفون الثلج وأشياء أخرى..

قيل في الكتاب

* تُرجمت إلى 25 لغة

* «الأدب أفضل من السياسة. أنا أقول ذلك بعد قراءة ’قطار الأطفال‘» La Repubblica

*اختيرت ضمن قائمة «أفضل الكتب كنوعية ومحتوى» في الملحق الأدبي لصحيفة

«الكوريري ديلّا سيرا»

عن المؤلف

فيولا أردونيه روائية إيطالية وُلدت في نابولي عام 1974. عملت في مجال النشر وتدرّس اللاتينية والإيطالية في المدرسة الثانوية في نابولي.

«الكوريري ديلّا سيرا»

عن المؤلف

فيولا أردونيه روائية إيطالية وُلدت في نابولي

قطار الأطفال

فيولا أردونيه, يوسف وقّاص



Time spent reading

1 minute

MORE

أطفال خائفون تفتح مخيّلاتهم أبواب الاحتمالات الأكثر سوءاً.عندما ركب أميريغو القطار برفقة أطفال آخرين ذات صباح من عام 1946، لم يكن يعرف وجهته ولا مصيره. بدهشة سنواته السبع، ونظرة طفل الأزقّة الثاقبة، يرسم أجواء إيطاليا الخارجة من الحرب كأننا نراها للمرّة الأولى.إلى أين تأخذهم هذه الطريق؟ ولمَ يتركون أمهاتهم ومدينتهم؟رحلة ستغيّر مصيرهم وتحملهم من أزقة نابولي الفقيرة نحو الشمال البعيد حيث يكتشفون الثلج وأشياء أخرى..

OverDrive Read, version 6.0.0-ba